



الْحَوْزَةُ الْعِلْمِيَّةُ الرَّائِدَةُ بِالنَّجَافِ
HAWZA OF NAJAF LEADER IN INNOVATION



مَوْسُوعَةٌ

لِلْعَلَمَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ رِضَا الْبُطْقَانِ

المجلد الثامن

مِنْ وَحْيِ الْفِكْرِ

مقالات ♦ فطب ♦ دراسات ♦ حوارات

المجتهد المجدد

الشَّيْخُ مُحَمَّدُ رِضَا الْبُطْقَانِ

تَحْقِيقٌ وَعَلَقٌ

الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ جَوَادُ الطَّنِيحِي



هَوْزَةُ النَّجَافِ لِدَلَّةِ الْبَحْثِ
HAWZA OF NAJAF LEADER IN INNOVATION



موسوعة العلامة الشيخ محمد رضا المظفر (قدس سره)

الكتاب: من وحي الفكر.

تأليف: العلامة الشيخ محمد رضا المظفر (قدس سره).

اعداد: الدكتور محمد جواد الطريحي.

الإشراف العام: اللجنة التحضيرية

التدقيق اللغوي: هاشم الصفار.

الاخراج الطباعي: علاء سعيد الأسدي.

التصميم: محمد قاسم عرفات.

الطريحي، محمدجواد محمدكاظم كاتب، ١٩٥١-
موسوعة العلامة الشيخ محمد رضا المظفر قدس سره / تأليف الدكتور محمد جواد الطريحي. -الطبعة الاولى -
[كربلاء، العراق]: العتبة العباسية المقدسة: مؤسسة بحر العلوم الخيرية، ١٤٣٧ هـ = ٢٠١٦.
١٠ مجلد: صور؛ ٢٤ سم. (الحوزة العلمية رائدة التجديد)
المصادر.
المحتويات: المجلد ١. المجتهد المجدد الشيخ محمد رضا المظفر (١٣٢٢-١٣٨٣ هـ) -- المجلد ٢. عقائد الامامية
-- المجلد ٣. شرح كتاب المكاسب للشيخ الانصاري: البيع والخيارات / اعداد وتحقيق جعفر الكوثرياني العاملي --
المجلد ٤. أصول الفقه -- المجلد ٥. المنطق -- المجلد ٦. الفلسفة الإسلامية / اعداد السيد محمد تقي الطباطبائي
التبريزي -- المجلد ٧. سير وتراجم نجفية -- المجلد ٨. من وحي الفكر: مقالات. خطب. دراسات. حوارات --
المجلد ٩. ديوان الشيخ محمد رضا المظفر (١٣٢٢-١٣٨٣ هـ) / محمد رضا القاموسي -- المجلد ١٠. البحوث
المشاركة في المؤتمر الدولي حول التجديد في فكر الشيخ محمد رضا المظفر (قدس سره).
١. المظفر، محمدرضا بن محمد بن عبدالله، ١٣٢٢-١٣٨٤ -- الاثار العلمية. 2. المظفر،
محمدرضا بن محمد بن عبدالله، ١٣٢٢-١٣٨٤ -- نقد وتفسير. ٣. العلماء المسلمون -- الشيعة الامامية -- تراجم.
الف. العنوان. ب. السلسلة

BP80.M954 T8 2016

مركز الفهرسة ونظم المعلومات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَلِكُ الْقُرُونِ
مَلِكُ السَّعْدِ

مدخل

بسم الله الرحمن الرحيم

يجد الدارس لشخصية الشيخ المظفر أن له مساهمات جادة في إطار الصحافة والإعلام الذي شهده عصره بقدر واسع ولذلك أسباب منها أن العراق في مرحلة الثلاثينيات بدأ يستعيد عافيته بعد أن أعلن عن تأسيس الدولة العراقية ومهدت الأحداث التي تلاحقت بعد ذلك تطلّعات العراقيين إلى تغطية الواقع الثقافي بمعطيات رائدة لبناء كيان فكري يتناسب مع أهمية التغيرات السياسية والإدارية الجديدة لتشيّد بنية راسخة في تقويم الشخصية العراقية تحمل التطلّعات النهضوية ومواكبة التطور الذي أصبح يتطلّع إليه العالم العربي والإسلامي خاصة حين أسدل الستار على معالم التبعية العثمانية لأفول نجمها بعد أن رزحت الشعوب الشرقية للسلطنة الاسطنبولية لقرون طويلة.

ثم أن إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨م كان له الأثر في خلق نخبة تتطلّع إلى رؤى الحرية والاستقلال ولا بد لهذه الطليعة أن تمارس دورها على مستويات متعدّدة في مقدّماتها التعبير عن طموحاتها بما تنتجه من لبنات أفكارها في الخطب والمقالات وإصدار النشرات والمجلات والكتب وانعقاد المنتديات وغير ذلك من الوسائل التي ترفد الوعي العام للمجتمع وتغني الساحة بإثارة الشعور الوطني لبناء منظومة معرفية

من القيم والمثل العليا والأفكار الخيرة النابعة من عمقها التاريخي^(١) وتأثير تبنيتها باعتزاز وفخر لرفع راية التراث العلمي للشريعة والفكر الإسلامي.

وفي إطار ذلك كان لمدينة النجف الأشرف مكانتها وصدى صوتها المدوي بالنظر لما تحتلّه من كيان علمي ومرجعي باعتبارها تعد عاصمة العلم والفتيا والقيادة الروحية لأتباعها من الشيعة الإمامية في العراق والعالم - فضلاً عن يتفق مع مواقفها ويشاركها الرأي من الطوائف والديانات الأخرى^(٢) - ولما سجّله تاريخها القريب في صنع القرار لمجمل الأحداث والمواقف في عالم الثقافة والآداب والسياسة وما يستجدّ من مبادئ وصيحات ومذاهب فكرية فهي بذلك تعدّ (المدينة الجامعة) على مستويات محلية وقطرية أو دولية.

وقد تهيأً للشيخ المظفر أن يبدأ المرحلة المبكرة من حياته في الثلاثينيات من القرن

(١) تمتاز النجف بأنها مدينة التنوّع الحضاري نتيجة ما تعاقب على أرضها من الأجناس والأعراق قبل الإسلام وبعده ورحم الله الشيخ الوائلي إذ يقول:

ينام غمار مهمل وقياصر	فيا أيها الوادي الذي برماله
فلخصت الأجيال تلك الحفائر	تكوّر فيه كل جيل بحفرة
ومن مات من أمس فكل دوائر	بها يستوي من مات من عهد آدم
يؤمّل جدواه مقيم وزائر	ركائب أجيال تيممن ما جدا

أنظر كتاب ديارات، محمد سعيد الطريحي، الطبعة الثالثة هولندا ٢٠١٠. النجف الاشرف
إسهامات في الحضارة الإسلامية، لندن، بوك إكسترا ٢٠٠٠.

(٢) تراجع المصادر التي غطت أحداث حركة الجهاد ١٩١٤ - ١٩١٧ وما تبعها في ثورة العشرين من التحام الشعب العراقي بكل طوائفه وأديانه وقومياته والمشاركة الفعلية في جبهات المواجهة العسكرية لرد عادية الاحتلال الإنكليزي للعراق.

ولا ينكر موقف المرجعية الدينية في النجف لتعضيد ودعم حركات التحرّر في المغرب العربي وفلسطين وكل الحوادث المفجعة التي تطال العالم الإسلامي من حيف وتعسف وإرهاب قديماً وحديثاً كما تشهده ساحة الدفاع المقدس اليوم في بلادنا من الاستجابة لنداء المرجعية في النجف وللقارئ أن يطلع على ما كُتب في هذا الباب وهو كثير لا يسعنا الإفاضة به الآن.

الماضي وينطلق ليدخل مضماره في العطاء فيجد أن الفرصة مؤاتية أمامه لاقتناصها بمستوى التعبير عن أفكاره وطموحاته في مواكبة التطور وطرح الفكر التجديدي متسلحاً بإيمانه العميق ومنهجه الرائع الذي أعدّه بحنكة وتؤدة في خطوات متزنة هادفة لتحقيق ما يصبو إليه.

وَمَنْ يتحرّر بدقّة ويقرأ بإمعان مقالاته المنشورة يجدّه لا يعيش الترقّب بقدر ما يقدمه بصراحة متناهية وبقوّة ما يعرضه من أفكار ومتنبّيات كان قد طرحها على صفحات الصحف والمجلات إضافة إلى ما يلقيه من بحوث وخطب في مناسبات ومؤتمرات تصب فحواها في إغناء الهدف الأسمى له في الإصلاح والتجديد وبناء أسس قيمة لحركة اليقظة في تلمّس الحال الحاضرة التي يبتني عليها المستقبل العلمي والاجتماعي للأمة الإسلامية عموماً وللجامعات الدينية خصوصاً^(١).

ولو دلفنا إلى عالم الصحف والمجلات النجفية لوجدنا إحصائية واسعة وصل عددها منذ عام ١٩١٠م حتى الثمانينيات يقارب أكثر من الخمسين منها إلى وفاة الشيخ المظفر حدود الثلاثين وقد بلغت مساحة ما شارك به منها تصل إلى حدود ٦٠٪^(٢) إذا أضفنا لها ما نشره في الصحافة غير النجفية في العراق وخارجه وقد تضمّنت مواضيع تربوية وإصلاحية وعقائدية واجتماعية وفكرية وغيرها إلّا أن القارئ الكريم عندما يطّلع عليها يجدها تتّصف بطابع سلاسة التعبير وطرح المعالجات بطريقة جذّابة كما يكتشف أن الشخصية المظفرية حاضرة أمامه تشاركه. ومن الأمور الواضحة جدّاً أنه كثيراً ما يستعمل كلمات وألفاظ في غاية البلاغة لأداء المعنى المقصود والغاية التي يسعى

(١) أنظر (سير وتراجم نجفية وأحلام اليقظة) فقد عالج بها مسائل مهمّة ونبّه إلى مباحث تحمل طابع الجدة والموضوعية.

(٢) ولصحيفة الهاتف النصيب الأوفر ولم نستطع أن نحصل على تمامها بسبب عدم توفّر الأعداد المطلوبة.

إلى بلوغها كما اتصف أسلوبه بأنه سهل التناول بليغ العبارة مشرق الديباجة.
هذه إضامة مختصرة نقدّمها للقراء مع الاعتذار عن عدم إيفاءنا بحقّ دراستها
بسبب سرعة الإعداد لها في إصدارها مع الموسوعة لتقع بيد الباحثين.
داعيا الله العليّ القدير أن يوفّق في المستقبل لدراسة معالم فن المقالة عند الشيخ
المظفر والإفاضة بما تضمنته من ملامح حركته الإصلاحية فيما وشحه قلمه الرائع إنه
نعم المولى ونعم النصير.

محمد جواد الطريحي

٢٠ ربيع الأول ١٤٣٧

٢٠١٦ / ١ / ١

محاضرات

في آي القرآن الكريم^(١)

(١) كتب الشيخ المظفر مقدمة لهذه المحاضرات بما يلي:

تألفت في النجف الأشرف جماعة لإلقاء محاضرات لتفسير القرآن الكريم تجتمع كل يوم مرة في أحد النوادي العلمية النجفية ويلقي واحد منهم محاضراته، وقد شرعوا من أول الكتاب على الترتيب الواحد تلو الآخر وأنا أنشر محاضراتي الخاصة بي على ما فيها من التقطيع مستمداً من الله المعونة. والمعروف أن بعض الجماعة الذين شاركوا معي في هذه المحاضرات هما المرحوم المقدس الشيخ صادق القاموسي وسماحة آية الله المرحوم السيد يوسف الحكيم طيب الله ثراهما.

المحاضرة الأولى في فاتحة الكتاب^(١)

تسمية السورة

الفاتحة أو الحمد أو أم الكتاب أو القرآن العظيم: هي فاتحة الكتاب العزيز وابتدأه من حيث الوضع وفي مفتتحها الحمد له سبحانه بعد البسملة إيدانا بمطلوبية هذا الابتداء وتعليماً للمسلمين في استفتاح صحائفهم حتى وصف النبي ﷺ كما ورد في الأثر.. كل أمر ذي بال لم يبدأ بالحمد بالأقطع، ووصف الذي لم يبدأ بالبسملة بالأبتر^(٢) مع ما فيه من التنبيه على استحقاقه سبحانه للحمد مع ماله من قدرة واسعة ورحمة باهرة دائمة ومملك واسع ولفت نظر العبد إلى أن حمد الخالق وشكره أول واجب يفعله وأهم شيء يتعلمه لأن الحمد أساس الطاعات وحقيقة العبادات فله ولتحقيقه رغب فيها وهو غاية الغايات ومنتهى المقاصد. فالمتضمن للحمد عمدة ما في الكتاب وكل أمر ونهي تابع له وعنه يتفرع فكانت السورة فاتحة للكتاب، أم الكتاب، وأم الشيء عمدته وأصله فهذه هي أسرار تسميتها بالفاتحة والحمد وأم الكتاب والقرآن العظيم.

البسملة جزء من السور

البسملة جزء من هذه السورة وآية من آياتها بل ومن آيات كل سورة ما عدا سورة (براءة) على ما نطق به أحاديث الأئمة الأطهار عليهم السلام لا كما قيل أنها خارجة عن (١) نشرت المحاضرة الأولى في مجلة الرضوان السنة الأولى العدد الخامس في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٥٤هـ.

(٢) الأبتر: هو مبتور الذنب وفيه تشويه للخلقة أكثر من الأقطع: مقطوع اليد وتشبيه الأثر ذي البال بالأبتر والأقطع إذا لم يبدأ بالبسملة والحمدلة لأجل تشويهِه ونقصان فائدته واختلاف التشبيه إشارة إلى أهمية البسملة فتقدم. (منه)

السور جميعها يؤتى بها تبرّكاً على حد الاستعاذة من الشيطان ولهذا البحث نتيجة فقهية في الصلاة هي وجوب قراءة البسملة وعدمه وتوسع بعض علمائنا (طاب ثراهم) في البحث فيما لو قرأ المصليّ البسملة لسورة وعدل عنها إلى أخرى فآلزموا بإعادة البسملة للثانية اعتماداً منهم على أن للنية دخلاً في تعيين البسملة للسورة التي نواها لها فالتى قرأها آية من المرجوع عنها ولو لم يأت بها ثانياً لم تكمل السورة الثانية، وفيما عندي أن هذا توسع محبوب فيما إذا قرأ آية أو أكثر غير البسملة ثم عدل عنها دون ما إذا لم يقرأ إلا البسملة أصلاً^(١).

معنى البسملة

معنى البسملة الاستعانة بالاسم وهو لفظ (الله الرحمن الرحيم) والابتداء به متيماً أو مستعيناً، والظرف مستقر قائم مقام المتعلق به إنما هو للمعنى لا للفظ وقرينة المقام كافية في الدلالة على نفس المعنى، فالمقدّر يكون معنى مستعين أو ابتدئ وليس هو استعينوا أو ابتدئوا بأنه لا يناسب ووضع البسملة في ابتداء الكلام في غير الكتاب العزيز فإن الكاتب أو المتكلم إنما يتكلمه عن نفسه وهو المبتدئ لا لأنه يأمر غيره بالابتداء أو الاستعانة وهكذا أيضاً في الكتاب العزيز فإنما جعله الله سبحانه على لسان النبي والناس المتبعين له تعليماً وتدريباً ليقرواوه، فالقارئ هو الذي يبتدئ ويستعين بتلاوة البسملة كما أنه هو الذي يستعين من الشيطان فلا بد أن يقدر ابتدئ أو استعين.

ويصحّ أن يكون المقدّر أيضاً ابتدائي أو استعائتي ولا أرى وجهاً للاعتراض عليه

(١) لأن الجزء الخارجي دائماً إما أن يكون جزءاً ويتّصف بالجزئية إذا انضم إلى باقي الأجزاء ولو إلى بعضها دون ما إذا لم ينضم إلى واحد منها ولا مدخل للقصد فيه. بدهة أنه لما كان هو جزءاً خارجياً لمركب اعتباري خارجي فلا بد أن لا تحصل صفة الجزئية الخارجية إلا بعد الانضمام إلى باقي الأجزاء خارجاً لما هو معروف أن انتزاع الجزئية في مقام انتزاع الكلية إذ المتضايقان متكافئان قوة وفعلاً نعم إذا درج الجزء وحده يكون له شأنية الجزئية أي يكون جزءاً بالقوة كما أن الكل حينئذ كل بالقوة.. (منه)

بأنه يحتاج إلى تقدير زائد فيه تكلف نحن في غنى عنه.

لما تقدّم أن التقدير للمعنى لا لنفس اللفظ وابتدائي وابتدئ معناه واحد إنشاء
الابتداء كاستعين واستعاني معناه إنشاء الاستعانة والغرض من التعبير باللفظ في
مقام التقدير هو التعبير عن ذلك المعنى المقدر معنى والكل واف بتأديته.

ثم أن إضافة الاسم إلى (الله) إضافة بيانية إذ الاسم هو لفظ (الله الرحمن الرحيم)
فتكون معنى الاستعانة بهذه الأسماء الاستعانة بذكرها. وإن قيل أن الاسم صلته وأن
الاستعانة مستندة إلى ذات الله أي إلى المسمى تعالت أسماؤه.

المحاضرة الثانية في الحروف المصدرة بها السور^(١)

الم

آية مستقلة بالاتفاق، والكلام في الحروف المصدرة بها السور لا يشبه الكلام في تفسير سائر الآيات، فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين، وهذه أسماء حروف يتألف منها الكلام العربي وغيره، فليس لها ظاهر بل ولا باطن له طريق من نفس اللفظ، وليست هي الحروف التي يتعلم منها الكلام وإنما هي أسماؤها فالألف مثلاً اسم الحرف هو الجزء للكلام إذا أريد أن ينطق به على حقيقته يقال (آه) بهاء السكت، فهذه الآية (ألف لام ميم) أسماء للحروف المتركب منها الكلام فلا تدلّ إلا على تلك كل المسميات، هذا ظاهرها وهذا باطنها وإذا كان لها معنى آخر فذلك خارج عن الدلالة اللفظية فلا تكون هذه إلا رموزاً عليه وألغازاً فيه. فلذا كانت من المتشابهة كما ورد عن أئمتنا الأطهار عليهم السلام، ولا طريق لنا إلا ما وصل من أحاديثهم الشريفة الثابت صحتها والتفسير التي لفتت لا تسمن ولا تغني من جوع.

نعم شيء واحد نستطيع أن نفهمه هو جهة إعجاز ذكر هذه الحروف بما هي حروف أو شبه إعجاز، وإن كنّا عاجزين عن إدراك معانيها الرمزية إلا عن طريق أهل الحق.

إعجاز الحروف المقطعة

وذلك الإعجاز أو شبيهه الإعجاز: أنا نراها في مجموع السور نصف حروف الهجاء «١٤» حرفاً هي: الألف، الحاء، الراء، السين، الصاد، الطاء، العين، القاف، الكاف،

(١) مجلة الرضوان السنة الأولى العدد السادس في جمادى الأولى / ١٣٥٤ هـ.

اللام، الميم، النون، الهاء، الياء. ومجموع حروف الهجاء (٢٨) حرفاً أو (٢٩) حرفاً مع الهمزة، وفيها نصف من كل نوع من أنواع الحروف ففيها نصف المهموسة المجموعة في (ستشخذك خصفه)، ونصف المجهورة خلاف المهموسة. وفيها نصف الشديدة المجموعة في (اجدك قصبت)، ونصف الرخوة خلافها وهكذا إلى آخر أنواع الحروف فإن كان عدد الحروف أحد الأنواع فردياً يؤخذ نصفه الأدنى والأعلى إذ لا يمكن الكسر فيها وفيها نكات آخر من بعض قواعد تركيب الكلمات ويحتاج الاستقصاء في بيان هذه الأمور إلى وقت متسع نرجوه إلى فرصة أخرى وهذه الدقة ومراعاة هذا الحساب مما يعجز عنه الأديب الفائق في فنه.

وفي تعداد هذه الحروف أيضاً تنبيه لطيف على أن هذا الكلام المنزل والقرآن المعجز ليس مركباً لا من حروف يتركب منها الكلام العادي وتنظيم منها اللغة العربية فلو كان من غير الله تعالى لما عجز البلغاء عن مثله والفصحاء عن نده مع اشتراطهم في المعارضة وتظاهرهم على النبي الكريم ﷺ وهم أهل الفصاحة والبلاغة وأهل الفن والإبداع.

المحاضرة الثالثة في المنافقين^(١)

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)

ذكر الله تعالى المؤمنين فخصّهم بالهداية والإيقاظ بالكتاب العزيز وأثنى عليهم إعلاءً لشأنهم وترغيباً في اتباعهم ثم ثنى بالكافرين مؤيِّساً من إقناعهم ناقماً على تمرّدهم موعداً بالعذاب العظيم، وثلث بالمنافقين المذبذبين بين أولئك وهؤلاء ابتداءً من هذه الآية الكريمة فأفصح عن حالهم وصخر بصنيعهم وأطال تبعيدهم عنهم وتنبهاً للمسلمين على تغلغلهم فيهم، أولئك هم أعظم خطراً على الإسلام وأمضى شفرة على المؤمنين فاستلقت الأنظار إليهم بلطف تعريض وحسن تقريع، إذ حكى نفاقهم وبدعواهم الإيذان بالله وباليوم الآخر، وهم ليسوا بالمؤمنين.

فجهّلهم بـ(من) الموصوفة، من غير أن يشير إلى معينين، شأن (من) النكرة الموصوفة والمعنى. بعض من الناس يقول آمنا أو ناس يقولون.

وفي التنكير والتجهيل من الإبداع في التعريض ما لا يقوم به التعريف والتعيين، ذلك دلالة على وجود صنف من الناس غير محصور ليكون المسلمون في حذر دائم من بطشهم والمنافقون أنفسهم على خون من انكشاف سرهم وافتضاح سوء مناوئهم فيرتدع من كفر عن النفاق ويقف على حد الصراحة وهي إحدى الراحيتين وصاحبها متّقي شره، والناس من غوائله في حذر والتدجيل والمداجاة في كل شيء خطب يدع الناس في خبك وشماس وتلون واعتراض موضع الضلالة ومفازة حالكة بديجور من

(١) نشرت في مجلة الرضوان السنة الأولى العدد السابع، جمادى الثاني/ ١٣٥٤.

(٢) البقرة ٢: ٨.

الجميل وبهذا كان المنافق بالإيمان أعظم ذنباً من الكافرين جامعاً بين الكبريتين كبيرة الكفر وكبيرة النفاق.

ومع ما في التجهيل من استمالة لقلوب المنافقين وتحدير لأعصابهم فيه أيضاً الإهمال لهم والإغفال لشخصياتهم حتى لا يعرفوا بين الناس فتكثر اتباعهم وتقوى كلمتهم وفي هذا حكمة اجتماعية خطيرة فإن في الشهرة من الأثر على النفوس فوق كل دلالة ومنطق وفهماً أكبر دعاية لآراء صاحبها وأعماله.

وإنما خص متعلق الإيمان بالله وبالיום الآخر، فمع كونه حكاية عن حالهم، هو كناية أيضاً عن تصديق الرسول، مضافاً إلى الإيمان بالله. فإن لازم التصديق بالرسالة التصديق بما أخبر به المرسل والإسلام بشهادتين شهادة الوحداية وشهادة الرسالة فتكون إعادة الباء إشارة إلى هذا المعنى.

وما هم بمؤمنين

لما أخبر الله سبحانه عن قولهم آمنا كان مقتضى سياق الكلام أن يكذب دعواهم التي قالوها. ينفي أنهم آمنوا، ولكنه تعالى أنفى أنهم مؤمنون فعلق النفي بالفاعل لا بالعفل تأكيداً لتكذيبهم ولو سعى في إبطال دعواهم فإن فيه نفي ثبوت صفه الإيمان لذوات أنفسهم شأن اسم الفاعل الدال على الثبوت وهو أوسع من نفي حدوث الإيمان وأكد كما هو شأن معنى الفعل أعني الحدوث.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^(١)

يخادعون يطلبون الخدعة ويحاولونها لا بمعنى يخدعون فيقال خادعة فخدعه فاحدع، وهؤلاء المنافقون يخادعون بإظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر كأنهم يحاولون

بجهلهم أن يخدع الله (تعالى عن ذلك) فيقبلهم مسلمين ويجعلهم في زمرة المؤمنين وهذه محاولتهم ضللاً منهم لا تنافي أن الله تعالى علام بكل الخفايا محيط بجميع الكائنات، وإنما ينافيه انخداعه بالكذاب لا طلب خدعه جهلاً من الطالب وضللاً فلا حاجة إلى التأويل في الآية كما تكلفه المفسرون.

ومما يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ فإن مفهوم أنهم لا يخدعون الله سبحانه والذين آمنوا وإن خادعوه فثبت في صدر الآية المخادعة ونفي الخدع أخيراً ففيه التعبير من المخادعة إلى الخدع وهذا دليل على اختلاف معناهما، وإلا فكيف يثبت الشيء ثم ينفيه، على أن اختلاف المبالي دليل اختلاف المعاني فثبت الخدع للمنافقين ونفاه عنه تعالى وعن المؤمنين، والله لا يخدع لأنه عالم بالسرائر، محيط بالضماير والمؤمنون لا يخدعون لأنهم لا يؤثر عليهم انخداعهم بهم لا يضررونهم شيئاً. فإن إظهار الكافرين للإسلام لا يزيده إلا علواً ولا يؤثر فيه إلا شوكة والخداع هنا كناية عن لازمه وهو الضرر به المقصود من مخادعتهم هذه فأثبتته للمنافقين لحصول الأزمة ونفاه عن المؤمنين وعن الله أيضاً لانتفائه فكأنه قال (وما يضرّون إلا أنفسهم).

المحاضرة الرابعة^(١)

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(٢)

وصف الكتاب المنافقين بما وصفهم، فأماط عن مكنونهم مدن التموية، وضلل أحلامهم وأمانيتهم، ثم ضرب لهم مثلاً لسوء منقلبهم وخسارة تجارتهم بالمستوقد النار ليستضيء، فكان نوره ظلمة، والضيء ليلاً حالكاً، حتى استحقوا أن يكونوا الصم البكم العمى، لا يؤمل رجوعهم إلى حظيرة الهداية، ولا ترجى لهم بصيرة بعد العمى.

هكذا أمر علينا من آيات القرآن المجيد ما فيه مقنع لتضليل المنافقين وتهجينهم بذلك المثل البديع، ثم أراد سبحانه في هذه الآية أن يمثلهم بصورة ثانية شوهاء ساخراً بجهلهم، وكاشفاً عن السر في نفاقهم وتمردهم على الحق.

ففي الآية الأولى كان يمثلهم تعالى بالمستوقد النار حيث طلبوا الإسلام، وتحدوا زندد الاستضاءة بنوره، فلما أضاء لهم، وفتح لهم باب الهداية ورتاجها للدخول فيه، عموا عن الحق وضلوا فذهب الله بنورهم وأعمى قلوبهم وتركهم وشأنهم في ظلمات الجهل يتخبطون!

أما هذه الآية فيريد فيها أن يمثلهم حيث أعفوا الإسلام، وتركوا مواهبه العميمة وآياته النيرة، ولماذا تركوه وصموا عن آياته ومواعظه. فيجيب أن نوضح الآية، فنقول: لا شك أن الإسلام وافر خيراته عميم النعماء، وهو يصرح بأعلى صوته داعياً إلى الحق

(١) نشرت في مجلة الرضوان، السنة الأولى العدد التاسع، شعبان المعظم / ١٣٥٤.

(٢) البقرة ٢: ١٩،

نذيراً من يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، فانتحلّه المنافقون لخيرهِ الوافر، ولكن لدعوته إلى السعادة بإعلاء كلمته انتبذوه فصياً، عجزاً عن منازلة الشدائد ولا صطبار على مقارعة الخطوب، ثم بعد ذلك حذا لأهله وشنأنا، فصمّوا عن صوت الحق تعالى، وتغافلوا عن استماع زواجه ونواهيهِ وتوعيده بالعذاب خوفاً من أليم العقاب وعاقبة الخسران، فكان تصاممهم جهلاً منهم لا يغنيهم في يوم الجزاء فتياً.

فشأن الإسلام معهم وشأنهم معه يمثله: ما لو تلبد السحاب مرخياً عزاليه بخيرات الأرض، ليجعل من كل شيء حياً، ومع ما له من هذه البركات فيه ظلمات تلازم تلبّد السحاب، ورعد وبرق لا ينفكان عن صوب الأمطار. والطائش بجعله غير الموطن نفسه على احتمال الشدائد لتحصيل وفره ومغنمه، يرتعد خوفاً من أهوال أصواته، نخيل له من فرط اضطرابه سيفر عن نوازلهِ، فيضع أصابعه في أذنيه إبعاداً لهول المصاب من حذر الموت. ولأن كان ما يخافه حقاً وواقعاً، فيحتلّه الباردة وفراره إلى ضلال، وهو محيط به مهما حاول الهجران لا يستمع لتلك الصواعق والأصوات الهائلة. وذلك كمن لجأ إلى الفرار من الأسد بسد عينيه عن رويته، أو أذنيه عن استماع زعقاته. هكذا كان المنافقون اتجاه الإسلام وآياته، فهو لهم صيب فيه لهم الخيرات ويدرّ عليهم بالبركات فيطعمون فيه، ولكن يعافنه لشدائده ويضمرون له لسوء حسداً وبغضاً، فيتغافلون عن استماع مواعظه، والالتفات إلى زواجه ووعيدهِ الشبيهة بقصف الرعد في شدة وقعه على الأسماع، تخوفاً من العذاب وأليمه، وفيهِ ظلمات مخيفة، تلك سببه الكأداء إلى الحق، والحق مرّاً لا لمن ذاق حلاوته وعرف نصيحته وتذوق سلوكه. ولكن يا ترى أهل كان تصاممهم هذا وتغافلهم يجيدهم نفعاً في الفراد عن عذاب الله الواقع وناره الحامية! ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. هيهات ثم هيهات. فما أبدع هذا التمثيل وأوقعه في النفوس، إذ شبه الإسلام بالصيب وشبه زجره ووعيدهِ بالرعد والبرق وطرقه المرّة السولك

بالظلمات وشبه المنافقين التغافلين عن زواجه فراراً بمن وضع إصابعه في أذنيه لئلاً يستمع فراراً من الموت. وفي هذا التشبيه من الالهانة والتحقير ما لا يقوم به كل تمثيل.

نظم الآية

ولعلّي الآن أوقفك على حقيقة تركيب الآية وأسلوبها، وأن وقع القوم في حيص وييص، فليس الغرض تشبيه المنافقين بالصيّب، ولا تشبيههم بأصحاب الصيّب على حذف مضاف، فإن كل هذا مما يفت بعضد البلاغة، ويضع من علو البيان، وإنما التشبيه. كما أعتقد لمجموع القضية الواقعة بمجموع قصة المثل المضروب وذكر الصيب وما يلحق به، كتمهيد للمقصود من الملل، وهو بيان حال فرارهم من العذاب تصاممهم عن استماع المواعظ الزاجرة وتركهم التدبر في الآيات المنذرة، تملك السخرية المضحكة، ولا بد لبيانها من هذا التمهيد.

ولما ذكر سبحانه ذلك التمهيد الذي هو أحد أجزاء المثل أو شز فظه عدل عن تنمة المثل بذكر حالة الممثل إيجازاً أو إبداعاً. كالأية السابقة. لبيان ووجه السبه، مستغنياً عن ذكر تمام المثل، فاستعار لتغافلهم جعل الأصابع في الآذان تمثيلاً حسياً لتصاممهم وجرياً على المثل المضروب، مشبها الزواجر الإلهية بالصواعق، والعذاب الواقع بالموت (والصواعق هي الرعود القاصفة والأصوات المروعة) كل ذلك تمياً للمثل بصفة أخرى هي للمثل ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي بعذابه لا لوذاً معتصم، والذي يشعر بأن المراد الإحاطة بالعذاب، تخصيصها بالكافرين، والموت ما يقوله البعض لا تصاب لربهم.

المحاضرة الخامسة^(١)

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٢)

هذا وصف للفاستقين في الآيات المتقدمة، الذين حصر الضلال بهم، والغرض منه تعريف الفسق ببيان أسبابه، وذكر أشياء ثلاثة.

نقضهم لعهد الله من بعد ميثاقه. النقض النكث ضد العهد وضد الإبرام، لا نقض بإبرام، فلا يصح النقض إلا لما كان مبرما، وليس خاصاً بنقض الحبل وحل فتله، حتى يكون هنا استعارة. كما قيل، بإبطال كل ما هو ثابت مبرم نقض له، ويقابله العهد، فكل ما ذكر له من معنى مرجعه واحد هو ضد النقض، وأقرب ما يعبر به عنه هو الإبرام، فعهد الوصية إبرامها، وعهد الإمارة إبرامها للمومر والتقدم للمرء في شيء إبرامه، إلى غير ما ذكر من المعاني: كمرعاة الحرمة والأمان والذمة واليمين. والمرجع واحد واختلاف في خصوصيات الموارد، فأجدر به أن يكون من باب أشباه المفهوم بمصادقه، في كل من مفهومي النقض والعهد.

والعهد بهذا المعنى (أو المعاني) إنما يكون من شخص لآخر، كما يفهم من مظهر استعماله، فنجد هنا يفارق معنى الإبرام، وهذا شأن معاني الألفاظ، إنما تفسر لتقرب معانيها إلى الأذهان، من دون أن نقف على حقيقة المعنى بتفاصيله ولذلك وجدوا معنى الألفاظ، ليرتكز في الذهن شبح لمعنى اللفظ، قد لا يحل محله لفظ آخر ندعى مرادفته له،

(١) نشرت في مجلة الرضوان، السنة الأولى العدد العاشر، رمضان/ ١٣٥٤.

(٢) البقرة ٢: ٢٧.

إن كان التعبير ليقصّر إلّا عن تفسير أحدهما بالآخر، فنسمّيها التجاء مترادفين وهذا أمر يجده من تتبع اللغة العربية، وتذوّق آدابها، وأنا زعيم لك إنك تصدّقني فيما قلت، إذا ما تراجعت إلى لغاتنا الدارجة، وأردت التحقيق عن معاني الألفاظ، فتجد الباب - على أكثر - دونك موصداً، وإن كنت تحصن من نفسك أو تبادرك أن لكل لفظاً طابعاً خاصاً من المعنى في ذهنك لا يشاركه لفظ آخر قد نسمّيه - بالرغم من ذلك - مترادفاً معه.

وكل الذي أريده الآن أن لا تستنكر، إذا قلت لك: أن للعهد معنى ليس هو الإبرام، ولا أستطيع أن أعبر عنه إلّا بالعهد، لا أكثر ولا أقل، أما الإبرام فيتحقق من شخص واحد، والعهد - كما سبق - لا يتحقق إلّا بين شخصين من أحدهما للآخر، فالجبل تبرمه، ولكن لا تعهده، ولا يصح أن تقول ذلك أبداً.

إذن، إضافة العهد إليه تعالى: إما لأنه منه لعبيده، وإما لأنه له من عبيده. فالأول كعهده سبحانه لهم بإقامة أدلة التوحيد والعدل والتصديق بالرسول، بخلق ذلك في عقولهم، وإعطائهم قوّة التمييز والإدراك، وكعهده وصية لخلقه، على لسان رسوله، بما أمرهم به من طاعته ونهاهم عنه من معصيته، إلى غير ما هنالك من عهود عهدها الله تعالى لعبيده.

والثاني كعهدهم له أن يناصروا رسوله، ويدبّوا عن مقدّساته ويأتمروا بأمره ويتتبعوا بنهيه، وكعهدهم ببيعة خليفة النبي ﷺ وطاعته حينما ولاه النبي ﷺ بأمر الجليل سبحانه يوم الغدير، إلى آخر العهود التي تفرض من العبيد لله سبحانه. وعلى كلا معنيين تصح إضافة العهد إلى الله، فأما عهد من الله أو عهد لله، ونقضهم لكل هذا هو فسق وفجور، وخروج عن لباس العبودية. والفسق لغة: الخروج عن الحجاب. ثم لا مانع عن إيراد معنى عمام لكل من المعين المتقدمين للعهد، والإطلاق يقتضيه، فلا يختص بناحية

واحدة من العهود، كما جعله المفسرون لازماً عليهم.

«من بعد ميثاقه»

الميثاق: مصدر ميمي كالميعاد والميلاد. والعهد يتضمّن معنى الميثاق في الجملة، فبأي سؤال كيف يوثق الموثق؟ ولنا أن نجيب عنه بطريقتين:

١- أن العهد يأتي بمعنى اسم المصدر وبمعنى المصدر فتقول للوصية: عهداً، وتقول: عهد الوصية، وبالمعنى الأول يعهد ويوثق، بمعنى إيجاد وإنشائه كما قيل: أعهد عهدك، ومثله أوص وصيكتك -ب- أن أعهد وإن كان متضمناً معنى الإبرام، لكنّه تارة يُجعل قابلاً للنقض، كما إذا لم يكن إبراماً محكماً، وأخرى لا يكون قابلاً له بجعله محكماً، ومعنى ميثاقه حينئذ جعله نافذاً أبداً، لا يصح عليه النقض، ونقض مثل هذا أشدّ ذنباً وأكبر جرماً وكان ناقضه من «الفاسقين» المتمردين حقاً، فلذلك قيّد سبحانه العهد المنقوض بقوله: (من بعد ميثاقه) تسجيلاً لذنبهم وتعظيمه عليهم.

٢- قطعهم لما أمر الله تعالى به أن يوصل. القطع: ضد الوصل وما موصول، يصح هنا أن تكون كناية عن متعلّق الأمر، أعني: الوصل لأنه هو المأمور به، ولذا جعلوا أن يوصل بدلاً عن ما، وأن يوصل هو: الوصل ويصح أن تكون كناية عن متعلّق الفعل: كالمال والرحم والجار: التي يتعلّق بها الوصل، فتكون جملة: أن يوصل، بدل اشتغال من به، كقولهم: أعرفه حقه. وكقولهم أمر بالرجل أن يضرب عنقه، وأمر بالجار أن يكرم. ولا بد من هذا البدل، فإن الأمر لا يتعلّق بالأعيان الخارجية من دون تقدير فعل، كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾^(١) المقدّر فيه نكاحها مثلاً.

والأرجح في الآية إن لم يكن المتعين هو الثاني، وفيما عندي إن هذا أمتن تعبيراً. وأرضى أسلوباً، وإلا فالى مَنْ يعود الضمير في يوصل؟! كما أن إضافة القطع إلى الوصل ونسبته إليه لا تخلو عن بُعد وتكلف، فإن الشيء: الموصول هو الذي يقطع، لا وصله.

ولي شاهد على هذا المعنى ما جاء عن أهل بيت العصمة، القرآن الناطق ﷺ، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾^(١) قال أبو عبد الله عليه السلام: «ومما فرض الله عز وجل في المال غير الزكاة قوله الذين يصلون» وروي العياشي عن سماعته، قال: سألته عن قول الله عز وجل: الذين يصلون... الآية، فقال: «هو ما افترض الله من المال غير الزكاة» وظاهر من هذين الحديثين أن (ما) كناية عن المال، وإلا فمن أين جاء ذكر المال؟! وما أدراك لعل المأمور به في كلتا الآيتين واحد، وهو ما ذكره الإمام عليه السلام فيكون الحديثان تفسيراً لآيتنا هذه فتخص بالمال على النحو الذي ذكره الإمام، وما يدرينا أيضاً لعل غير الزكاة المأمور به في هاتين الآيتين: هو حقوق أهل العصمة على العباد، المغتصبة بظلم أهل الضلال الفاسقين!!، ولفظ الأمر ظاهر في الوجوب، وجعل مخالفته سبباً للفسق قرينة عليه أيضاً.

٣ - يفسدون في الأرض، بالفتن وتفريق الجماعة، وفعل المنكرات، مما يضر بالمجتمع الإنساني، ويفسد النوع البشري، وهذا أعظم الفسوق وأكبر الذنوب عند الله تعالى، لأن به فساد غير الفاعل. ولا شك أن من اتصف بجميع هذه الصفات، فهو الخاسر في الدنيا والآخرة، ذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٢).

(١) الردع ١٣: ٢١.

(٢) البقرة ٢: ٢٧.

أهل البيت (عليهم السلام)

عيدُ المولد النبوي^(١)

السلام عليكم أيها المؤمنون

إن كل يوم تشرق فيه الشمس تشرق معها شمس محمد ﷺ من جديد، فكل يوم من دنيانا هو يوم ذكرى مولد نوره الساطع الذي يبهّر العقول النيرة ويملأ النفوس الخيرة إيماناً.

ولئن تنادت أشرار الأرض وتصالحت ضلالاتهم على محق هذا النور الوهاج بكل ما لهم من قوة قاهرة وحيل مأكرة ودعايات فاجرة، فإنها لا تزيده إلا سطوعاً وانتشاراً وتلاؤلاً وظهوراً ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٢) وهذا من إحدى معجزات الإسلام الباهرة. ومن العجيب أن المسلمين - حتى المسلمين - أنفسهم أو الذين يحلو لهم أن يسمّوا أنفسهم بالمسلمين كانوا وما زالوا معولاً هداماً بيد أعداء الإسلام لنقضه وتهديم صرحه، وفي هذا العصر بالذات اتخذ أعداء الإسلام في نشرهم لمدينتهم الداعرة بين ظهرانيها، اتخذوا من المسلمين وسيلة من أعظم الوسائل لهدمه ونقضه من الأساس فخلقوا منهم أعداء ألداء لدينهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون وما بعض المدارس عند المسلمين إلا مظهرًا من مظاهر هذا التأثير المنطوي على الخداع والتمويه وثقوا - يا إخوان - أن الإسلام مع كل ذلك قد تحداهم وسيتحداهم إلى الأبد بقواه غير المنظورة، فيعلو بناؤه السامي ويتسامى نوره الساطع وتنتشر مبادئه الخيرة برغم الكافرين والملحدين والمستعمرين.

(١) خطبة بالمناسبة أُلقيت في أحد الاحتفالات الكبرى المقامة في النجف الأشرف ونشرت في مجلة النجف الأشرف السنة الثانية العددان السادس عشر والسابع عشر.

(٢) التوبة ٩: ٣٢.

وأقول (بقواه غير المنظورة) وأعني ما أقول، فإن المسلمين اليوم في جميع المعمورة أقل وأوهن من أن يحتفظوا بقوى الإسلام وكيانه أو أن يحسنوا الدعوة إليه. ولو أن غير الإسلام لاقى ما لاقاه من أعدائه من جهة ومن أتباعه المساكين من جهة أخرى لأصبح خبراً من أخبار كان، ينسى حتى ذكره ويطمس حتى اسمه، ولكن الإسلام يثبت وسيثبت أمام كل قوى الشر الظالمة التي لا تفتر عن محاربته بجميع الوسائل الماكرة الفاجرة ﴿وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١) وهنا أكرّر القول أن هذه إحدى معجزات الإسلام القاهرة حقاً.

﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾^(٢).

ألا ما أعظم خسران الإنسان: يرى الحق فيتعامى عنه ويتعرض له الخير فيجيد عنه، تراكضاً وراء الشهوات، وانخداعاً بالشبهات.

لقد نادى القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة فتحدّى البشر أربعة عشر قرناً بقوله: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجُنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾^(٣).

أبعد هذه الصرخة المدوية في مسامع الدهر والتحدى الصريح لجميع البشر شبهة لمشتبه أو كلام لقائل؟ لماذا لا يجتمع أعداء الإسلام هذه المدة الطويلة ليأتوا بمثل هذا القرآن؟ وما جاء به الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب في محيط جاهل بدائي لا يحسن شيئاً من العلوم والمعارف. وهذا البشر المتغترس الذي يناصب العداء للإسلام يملك من القوى ما لا يوصف في معارضه وعلومه ومخترعاته وفنونه.

(١) التوبة ٩: ٣٢.

(٢) العصر ١٠٣: ١ - ٢.

(٣) الإسراء ١٧: ٨٨.

لماذا لا يجتمعون ليسكتوا صولة هذا القرآن الذي يتحدّاهم بصريح القول هذه القرون المتبادية؟ لماذا لا يجتمع على الأقل نصارى العرب ويهودهم وهم كثيرون ويمدّهم الغرب بهاله وعلومه وسلطانه؟ لماذا لا يجتمعون فيأتون بمثل القرآن بدل أن يحاربوه بالأساليب الشيطانية من نحو الآباء اليسوعيين وجامعة بيروت النصرانية والمدارس التي يفتحونها هنا وهناك لنشر بذرة الإلحاد في أدمغة أطفال المسلمين والمجلات والكتب المضلّة التي ملأوا بها الخافقين.

لماذا لم يجتمعوا فيأتوا بآية من مثله؟ إنهم عجزوا وسيعجزون؟ إن هذا هو برهان الله القاهر إنه الحجة الدامغة.

إذن لماذا لا يخضعون للحق بعد انبلاجه؟ إذن لماذا لا يعترفون بالأمر الواقع؟ إذن لماذا لا يؤمنون بالرسول والقرآن الكريم؟

إنه التعصّب الأعمى وحب الشهوات وتقليد الآباء والرغبة بالدنيا عن الآخرة وبالظلم عن العدل والباطل عن الحق.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾^(١) ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٣).

(١) العصر ١٠٣: ٢ - ٣.

(٢) المؤمنون ٢٣: ١.

(٣) الأعلى ٨٧: ١٤ - ١٧.

الإمام علي معجزة الإسلام^(١)

سادتي

إن رجلاً كان في حياته وأطوارها معجزة الكون وخارقاً لما عرفه البشر واعتاده من عبقریات ونبوغ.

حقيق به أن يكون أعجوبة القرون وما نسلت ومهوى قلوب الملايين وما انطوت وما حبنا لهذا الرجل إلاّ حب من رأى فيه الإنسان الكامل فعشق فيه كماله الإنساني ودرس في تأريخه الإمام العادل فهمام في عدل إمامته.

إنه الحق الصراح في كل ما لهذه الكلمة من معنى فجدير بعشاق الحق أن يصرّحوا لتمجيده ويصرّخوا معلنين في تقديمه.

إنه المعجز في كل حياته وأطوارها لا ينحصر إعجازه في ناحية من نواحيه.

إنه المعجز في نشأته إذ يشب على الإسلام فيعتنقه بين الرجال اعتناق المتفاني المستهين بالموت وهو يافع مترعرع والإسلام محارب حتى من أهله وعشيرته وقومه. وكل واحد يعرف عظيم أثر ذلك على الناشئ.

إنه المعجز في شجاعته التي لم يحدث تأريخ البشر الطويل عن مثلها يافعاً وشاباً وكهلاً وشيخاً يقهر كل خصم يضاوله ويهزم كل شجاع يقاتله.

إنه المعجز في فصاحته وبلاغته ولم يحفظ الإنسان غيره من خطب وكلمات بما حوت

(١) الكلمة التي ألقى في دار العلامة الشيخ محمد جواد السهلاني، محلّة الجمهورية في البصرة، بمناسبة الاحتفال بميلاد الإمام علي عليه السلام وطبعت في كتاب ذكرى الإمام علي، مطبعة الآداب في النجف ١٣٨١ - ١٩٦١.

من أرقى ما يصله العقل البشري.

إنه المعجز في دينه وعقيدته وتصلبه وكم ضرب لها مثلاً رائعاً رفيعاً بما ضحّى بالدنيا وما فيها من اعتبارات في سبيل أن لا يتهاون بكلمة حق وإن ظن الناس في اعتباراتهم أنها صغيرة ولكنه لا يرى الدنيا بما فيها يقابل خطرها.

إنه المعجز في زهده وتقشفه وقد رقع مدرعته حتى استحيى من راقعها ولم يتخذ لبالي ثوبه طمراً وهو يومئذ ملك العالم والسيد المطلق لبلاد أقبلت الدنيا عليها بحذايرها. إنه المعجز في عبادته وتهجده ولم يفته أن يؤدي ورده من صلاة الليل في ساحة الحرب بين الصفين.

إنه المعجز في عدله وحكمه يساوي في العطاء والحكم بين القريب والبعيد والشريف والوضيع والصديق والعدو.

إنه المعجز في علمه وقد جاء بفنون من العلم ودقائق الفلسفة بما لا يمكن أن يأتي به شخص عاش في بادية جرداء قاحلة من العلم والمعرفة والبحث والنظر ولو جاء أحد بما جاء به من جابرة العقل الذين تربوا في بحبوحة العلم وأكبر جامعات العالم لكان مناراً للإكبار والتعظيم.

وأعظم معجزاته في نظري تجلّي أنواره وتعلّق السّمّار بقدسيته كلّما تقدّم الزمن وانتشرت المعارف والعلوم لاسيّما في هذا العصر الذي افتتن أهله بالعدل الاجتماعي وافتتن الحق والحرية والإخلاص للمبدأ فإن هذا العصر يجد فيه المثل الأعلى الذي يستحق أن يكون معبوداً للجماهير.

وعقيدتي أن علي بن أبي طالب (عليه السلام) هو نفسه أكبر معجزة خالدة للدين الإسلامي إذا تجاوزنا القرآن الكريم فإن رجلاً جمع بين الذكاء النادر والعلم والمعرفة اللتين بلغ بهما الدرجة القصوى في صنف البشر إلى الشجاعة النادرة التي لا يهاب بها أحداً سوى

الله تعالى إلى الجراءة الأدبية التي لا تأخذه معها لومة لائم أبداً مهما عظمت. ثم بعد ذلك يكون له هذا الإيذان المطلق بالله ورسوله هذا الإيمان الذي لا يشوبه شك ولا يدانيه ريب. وهذا الإخلاص والتفاني اللذان معهما صغر كل شيء في الدنيا مهما جل وكبر.

إن مثل هذا الرجل لا يمكن أن يفرض فيه عدم التمييز بين الحق والباطل في الدين الإسلامي بما له من عقل جبار ومرافقة للرسول ﷺ من طفولته إلى أن شب إلى أن واره في ملحودة قبره ولا يمكن أن يفرض فيه الجبن والخوف من إظهار عقيدته لو كان لا يؤمن بالرسالة. ولا يمكن أن يفرض فيه الطمع وحب الدنيا في كتمان شكّه لو كان.

إن هذا الرجل بمجموع خصاله تكشف حياته كشفاً قاطعاً لصافي السريرة عن صحة العقيدة الإسلامية ورسالة نبيها الأكرم ﷺ إن موقفاً واحداً منه لو درسناه حق دراسته لكفانا اعتقاداً بأنه عبد الحق والأخلاق الإلهية عبودية مطلقة لا تشوبها مساهلة ولا يقلل منها تلكؤ عن أداء وظائفها على أكمل ما يفرضه إنسان لإنسان.

وكفى أن نتمثل موقفه في الشورى حينما طلب منه أن يبايع على شرط سيرة الشيخين فأبى أن يعد بما لا يرى الالتزام به وأصرّ على الامتناع كل الإصرار وترك أعظم منصب في العالم في سبيل أن لا يعمل خلاف الحق أو يعد فلا يفني بوعده. وكفى أيضاً أن نشهد موقفه في مبارزة عمرو بن العاص وبسر بن أرطاة لما كشفنا عن سوأتهما هرباً منه فعفا عنهما لكرامة الدين وحدها. وهما من ألد أعدائه والمؤلّبين عليه وكان يسعه أن يغض النظر ويفتك بهما. ولكنه أبى إلا الكرامة والخلق الرفيع والنيل الإنساني أما هما فأبيا إلا الصفاقة المخزية والفعلة الوضيعة.

وكفى أيضاً أن نقرأ موقفه المشرف مع معاوية وجنده لما احتجزوا النهر وأرادوا أن يقضوا على معسكره عطشاً وحينما كشفهم بحد السيف أبى إلا الترفع عن الدنية ومعاملة الأندال بنوع ما يرتكبون فأباحه لهم شهامة ونبلًا وبرهاناً على حسن نواياه

الطيبة حتى مع أعدائه فسلام عليك يا أمير المؤمنين خالداً ما بقيت الدنيا ومعجزة
للإسلام ما طرفت عين ونطقت بنت شفة.
سلام عليك وعلى الحق الذي أنت معه وهو معك.

علي المثل الأعلى للإنسان الكامل^(١)

لم يمض على البشر في جميع عصوره - فيما اعتقد - عهد كهذا العهد الذي نحن فيه، عصر يستيقظ فيه ضمير الخير وضمير الإنسانية النبيلة فيحب الإنسان أن يرجع فيه إلى فطرته السليمة الطيبة ونوازعه الكريمة.

أقول - وأنا واثق مما أقول - إن شبابنا المسلم اليوم متيقظ واع وكله شعلة متوهجة في حب الخير والعدل والصدق والأمانة، عظيم الثقة بنفسه وبأمته وبفطرته السليمة وسجيته الخيرة. وإذا كان بعض الناس يغلب عليه التشاؤم فإني - على العكس - لا أستشف إلا الجانب المشرق في نفوس الشباب اليقظ الذي أصبح سجية الخير - تتغلب عليه والخلق العالي يستحثه وروح التضحية متنامية فيه وتعقل الصالح العام رائده.

أقول وأنا واثق مما أقول، إنني متفائل جداً بالروح العالية في أمتنا المسلمة فقد ملّ الناس من الجور والظلم وسياسة الإذلال والإفقار والسيطرة والتحكم والسلاح والحروب وأصبحوا يتطلعون إلى كل دعوة للخير وكل هاتف بالعز والكرامة، بعد هذا التفاؤل أجد أن الوقت قد حان لأن تتقبل القلوب في جميع بلاد الله دعوة الحق الصريح الخالص الذي لا يتمثل كما تتمثل في دعوة إمامنا أمير المؤمنين (عليه السلام) التي هي دعوة الإسلام الخالصة الصريحة الصارخة إلى تنمية نوازع الخير في الإنسان وتزكيته من الرذائل، والهاتفة بنا إلى الله تعالى التمسك بصراطه المستقيم.

بل أصبحت النفوس أرضاً خصبة لزراع تعاليم إمامنا وتوجيهاته للعدل والمساواة

(١) خطبة ألقيت في احتفال المولد العلوي بالنجف بتاريخ ١٣ / شهر رجب / ١٣٧٨.

والصدق والإخلاص والخلق الكريم والتهذيب الرفيع والتضحية في سبيل الواجب وجميع القيم الإنسانية تلك التعاليم والتوجيهات التي هي رسالة الدين الإسلامي حقاً.

وما أعرق رجلاً حملته الأرض على ظهرها بعد نبينا محمد ﷺ أنزه وأحكم وأسلم وأعلم من إمامنا على بن أبي طالب (عليه السلام) في دعوته المخلصة الصادقة إلى خير البشرية وسعادتها لا يشوبها غرض وطمع ولا ضعف واستكانة ولا حقد وحيف ولا كبر وغطرسة ولا تحيز وممالة.

وتجلية هذه الدعوة الخيرة وشرحها وكشفها للناس خير ما يعمل به دعاة الإصلاح اليوم لتوجيه البشر إلى أرقى ما يصبون إليه من بلوغ المثل العليا.

وإذا كان المسلمون فيما مضى من قرونهم الطويلة قد انتأوا جانباً عن تلك التعاليم الإنسانية الراقية فالسرّ في ذلك أنهم تجرّعوا في تاريخهم الطويل على أيدي الظالمين الجشعين والمستغلين الفاسدين أنواع الغصص والدواهي والآلام، حتى خدّر الظلم نفوسهم وأوقرت أصوات المفاصد أسماعهم، وأفسد البأس من العدل ضمائرهم وأنام الضغط عزائمهم فلا عجب إذا كنا لا نرى في المسلمين من أقدم العصور أثراً من تعاليم إمامنا إلا أضواءً باهتة وأمثلة ضئيلة.

أما اليوم وقد استيقظ الضمير الإنساني كما قلت فحق أن تجد تعاليم إمامنا آذاناً صاغية، وقلوباً بحب الخير طافحة، ونفوساً إلى التكامل الإنساني توافقة فقد أصبح بين الإمام وبين قلوب الناس وشائج تخلقها الطبيعة الإنسانية الخيرة المستيقظة إن قصر في خلقها التاريخ الطويل المظلم.

فمن هو من الناس لا يخفق قلبه شغفاً ويرفرف ضميره إصغاءً إلى ما يصف به أمير المؤمنين (عليه السلام) المتقين إذ يقول في علامات أحدهم (أنت ترى له قوة في دين وحزماً في لين

وإيماناً في يقين وحرصاً في علم وعلماً في حلم يمزج الحلم بالعلم والقول بالعمل الخير منه مأمول والشر منه مأمون يعفو عمن ظلمه ويعطي من حرمه ويصل من قطعه تراه بعيداً فحشه ليناً قوله غائباً منكراً حاضراً معروفاً مقبلاً خيراً مدبراً شرّاً. لا يحيف على من يبغض ولا يائثم في من يجب يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه لا يضيع ما استحفظ لا ينازب بالألقاب ولا يضار بالجار ولا يشمت بالمصائب ولا يدخل في الباطل ولا يخرج من الحق. نفسه منه في عناء والناس منه في راحة بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة. ودونه ممن دنا منه لين ورحمة ليس تباعده بكبر وعظمة ولا دنوّه بمكر وخديعة.

هذه هي الأخلاق الكريمة الإلهية التي لو ركبت في إنسان لكان هو الإنسان الكامل في أعلى مثل الخير الإنسانية الرفيعة ولو أن الناس كلّهم أو أكثرهم أخذوا بهذه الأخلاق كما يريد أمير المؤمنين عليه السلام لكان البشر فوق ما يتصوره المصلحون ويتمناه المفكرون ولتبدلت الأرض غير الأرض ولعمت السعادة والأمن وهناء العيش والرخاء أصقاع الدنيا.

نعم لو قدر لدستور الإمام وهو دستور الإسلام حقاً أن يسود العالم لما أنبتت الأرض ظالماً ومظلوماً ولا نمحى من قاموس لغاتنا كلمات العدوان والاستعباد والفقر والذل والكذب والبهتان والخداع إلى ما شئت أن تعبر من ألفاظ الشر والسوء الفساد. إن الإمام كان المثل الأعلى للإنسان الكامل في أقواله وأفعاله بل هو بملء عماله أقصى ما يمكن أن يفرض الكمال في المسلم المؤمن لا تجد فيه ثغره تؤخذ على الإسلام ولا هنات بل هو معجزة محمد عليه السلام الخالدة فإنه انصهر فيه وذاب في دعوته واتصلت حلقات حياته كلّها بتاريخ الدعوة المحمدية فأفرغت قوالب كلّها أمثلة عليا للجهاد ونكران الذات والتضحية والتقوى والإيمان والزهد والعدل والإنصاف والصلابة والشجاعة والرحمة والإنسانية بأسنى ما يسعه التعبير عن هذه المثل العليا ومن أين

نبتدى منها ننتهي إلى ما يدهش العقول ويحير الألباب فإن الصفات الكريمة تماسك فيه في سلسلة لا تنتهي إلا من حيث تبتدى.

بالله عليكم هل شهد العالم في تاريخه منافساً في سلطان كإمامنا حين يعرض عليه في قصة الشورى أن يبايع على سيرة الشيخين فيأبى ويترك أعظم سلطان عرفه التاريخ، لأن هذه السلطان العظيم لا يساوي عنده وعداً بها لا يرى أو كذبة في وعد. وهي في فقه غيره من أهون ما يقدم عليه من يعلل نفسه في المخالفات بالمصلحة العامة وأية مصلحة عامة أعظم من أن يتولّى الإمام الخلافة لإقامة العدل ونصرة الحق.

بالله عليكم هل أية مروءة في التاريخ كمروءة الإمام حين حاول معاوية وجنده في معركة صفين أن يميته وجنده عطشاً بالاستيلاء على الفرات وهم يقولون له (ولا قطرة حتى تموت عطشاً) فكشفهم عن الماء ثم أباحه لهم رحمة وشفقة على عدوه ولو منعهم مقابلة بالمثل لاستطاع ذلك ولانتصر عليهم ولو كان عند أهل الشام قلوب خيرة واعية لا عبرت بهذا الحادث الإنساني العظيم من هذا الفارس العظيم ولا نصاعت إلى الحق ورجعت عن غيها.

بالله عليكم أية شهامة حانية كشهامة الإمام حينما يتغلب على أعدى أعدائه الظالمين له وذلك في موقعة الجمل فينادي في جيشه (لا يجهز على جريح ولا يتبع مولياً ولا يطعن في وجه مدبر ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن) ووقف على قتلى الطرفين وبكاهم أحر بكاء وصلى على الفريقين أصدق صلاة ثم سرح بعائشة مكرمة إلى المدينة المنورة مع نساء متنكرات بلباس الرجال.

لم يمض على البشر في جميع عصوره - فيما أعتقد - عهد كهذا العهد الذي نحن فيه، عصر يستيقظ فيه ضمير الخير وضمير الإنسانية النبيلة فيحب الإنسان أن يرجع فيه إلى فطرته السليمة الطيبة نوازعه الكريمة الطيبة بالله عليكم أي عدل أسمى من

عدل الإمام حينما يأتيه شقيقه عقيل وقد أملق واطفاله كأنها سوّدت وجوههم بالعظام من الفقر يستميحه القليل من بيت المال زيادة على سهمه فيؤثر أن يلوي عنه ويلتحق بمعاوية وهو يومئذ على بيت المال الذي يجبى من أغنى البلاد.

بالله عليكم أية عفة أنبل من عفة الإمام حينما يظفر بأدهى أعدائه وأشدّهم مكرًا وهو لا يقل خطراً عن أي شخص آخر هو عمرو بن العاص فيعرض عن قتله إكراماً بعد أن أمكن السيف إذ لا ذل إلى خمسة الحقير مستجدياً من قبل الإمام ومروءته عفوه ولو فتك به يومئذ لما كان في عرف المحاربين ملوماً ولكنه ضحك منه سيفه ضحك العف من متهتك لئيم والفائز هو الإمام بالأخير.

بالله عليكم أي زهد في الزاهدين يبلغ زهد الإمام حينما يصبح على رأس أعظم دولة تجبى لها نفائس الأموال من أطراف البلاد فلا يبني لبنة على لبنة ولا يعيش إلا على قرص الشعير وجريش الملح ولا يلبس شتاء وصيفا إلا المدرّعة التي استحيى من راقعها ويخصف نعله بيده ويساوي بالعطاء بينه وبين غلامه قنبر.

بالله عليكم أي تواضع في الخلفاء الولاة في تاريخ العالم ينتهي إلى تواضع الإمام حينما يقول لرعيته مستحثاً لهم على نصحه وهو الإمام المعصوم (وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفقر ويوضع أمرهم على الكبر وقد كرهت أن يكون قد جال في ظنكم إني أحب الإطراء واستماع الثناء. فلا تكلموني بما تكلم به الجبابة وإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بها أثقل عليه فلا تكفّوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل).

بالله عليكم أية شجاعة في الدنيا تنتهي إلى شجاعة الإمام حينما يقف ليلة المهريز من معركة صفين بين الصفين يؤدّي ورده من صلاة الليل متبتلاً منقطعاً إلى الله تعالى مقبلاً على عداته في أخرج ساعات الهلع التي تنسي كل إنسان شجاع حتى نفسه.

بل أية صلابة في العقيدة بالله تنتهي إلى هذه الصلابة التي لا يبلغ وصفها الواصفون ولا يكاد يأتي على كنهها المفكرون. بالله عليكم أية شخصية هذه ترتفع في إنسانيتها إلى أقصى ما يمكن فرضه في الإنسان الكامل أضف إلى البلاغة في البيان التي رفعتة إلى أن يكون دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق وإلى أن يقول عنها أعدى أعدائه أنه ما سن الفصاحة لقريش إلاّ علي بن أبي طالب وأضف أيضاً إلى ذخيرة العلم التي حير بها عقول الفلاسفة بعد قرون وقرون وجاء بآراء لم يسبق إليها الفلاسفة الأقدمون ولا أدركها المتأخرون وقد عنيت بشرحها في مقال سبق لي أن القيته بهذه المناسبة بكراجي وهو من لم يترب في مدرسة ولا كتاب إلاّ على مدرسة محمد (صلى الله عليه وآله) والقرآن الكريم.

بالله عليكم أية شخصية هذه فيما لها من علم عجيب وذكاء خارق وإخلاص للحق منقطع النظير وتضحية لا يشوبها وهن ولا ضعف وشجاعة لا تقابلها شجاعة وأنانية كاملة لا يشوبها نقص أليست هذه الشخصية بما لها من العظمة النادرة وما اجتمعت لها من الصفات الكريمة الصادقة هي أكبر معجزة لمحمد ﷺ قبل أية معجزة أخرى إذ تؤمن به إيماناً لا يشوبه ريب وتتبع شريعته اتباعاً لا يخالطه أي انحراف وهي بعد هذه أكبر مرشد للبشر إلى سبل الخير وأعظم دليل إلى طريق النجاة في الدنيا والآخرة. جعلنا الله من المتمسكين بولايته الآخذين بفضل تعاليمه إنه أكرم مسؤول.

العدالة في الإسلام^(١)

لم يعط الدين الإسلامي - على طريقة آل البيت عليهم السلام - قيمة لشيء من قيمه الأخلاقية والقانونية ما أعطى للعدالة بجميع ما لها من معانٍ، وفي كل صورها في جميع مناحي الحياة.

فإنَّ الله تعالى هو (العادل) المنزه عن الظلم والعدوان، فكلُّ ما لكلمة (العدالة) من معنى سام رفيع، فوق مستوى المخلوقات في عدالتها التكوينية والأخلاقية والقانونية. ومن مظاهر عدله تعالى أن جعل لكلِّ ما نعمل جزاءً، وأعطى لكلِّ من يستحقَّ حقَّه من صغيرة وكبيرة، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ*﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ*﴾.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ*﴾.

من بعد عدالة الله - فيما عليه آل البيت من طريقتهم - فإنَّ العدالة أساس الاعتقاد بنبوة الأنبياء الذين يجب أن يكونوا في سمو عدالتهم معصومين عن كلِّ ما يشين البشر من جرم وخطأ.

وعلى مثل ذلك (الإمام) المنصور من الله تعالى الذي يتولى عهد الله في الناس

(١) مجلة النجف، السنة الرابعة، العدد ٨، ١٩٦١. وقد أُلقيت المحاضرة في الحفلة الكبرى التي أقامتها مدينة كربلاء المقدسة هذا العام لإحياء ذكرى ميلاد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وكان لها صدى استحسان عميق في نفوس ذوي المعرفة كافة.

لهدايتهم، ويتولاه الناس في طاعتهم الواجبة له ليهتدوا به ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾
﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

وفي الدرجة الثالثة، فإنّ العدالة في «الناس» في التشريع الإسلامي، شرط مفروض في ولاية أمور المسلمين وفي حكّامهم وقضاتهم، بل المتولين لأيّ شأن من شؤونهم المدنيّة والدينيّة.

ثمّ هي شرط حتّى فيمن يؤمّمهم لجماعة الصلاة، فضلاً عمّن يرجعون إليه في تقليده من المجتهدين في أحكام الدين (من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه).

وبالأخير هي شرط في قبول شهادة (الشاهد) في جميع القضايا المالية والحقوقية وغيرها، وشرط بالخصوص في شهادة (الطلاق) لإقامته وصحّته.
(وعدول المؤمنين) قد أرجع الله تعالى إليهم الأمور الحسبية حيث يفتقد الحاكم العادل أو الإمام القائم.

فالعدالة إله

والعدالة في النبي

والعدالة في الإمام

والعدالة في المجتهد

والعدالة في إمام الجماعة

والعدالة في كلّ من يتولى شأنًا من شؤون الناس العامّة

والعدالة في القاضي

والعدالة في الشاهد

والعدالة في المؤمن الذي يتصدى للأمر الحسبيّة.

كلّ هذه مفروضة في الشرع الإسلامي على مذهب آل البيت عليهم السلام وطريقهم في العقيدة والحكم والدولة والسياسة والأمر الاجتماعيّة.

فلا ولاية لفاسق

ولا شهادة لفاجر

ولا سلطان لغير العادل

ولا حكم لظالم

ولا قضاء لمن تأخذه في الله لومة لائم فيحيف في قضائه

ولا رأي مقبول متبع لمجتهد متبع لهواه غير مطيع لأمر مولاه.

ولا إمامة لمن لا يتورع عن محارم الله

ولا نبوة لمن يجور في حكمه ويكذب أو يخالف الله في صغيرة وكبيرة

وليس ربّنا من يجوز عليه الظلم والجور وعذاب المطيعين وثواب العاصين.

إنّ أساس الإسلام في عقيدته وتشريعه مقاومة الظلم، ومكافحة الجائرين، وجهاد العادين ومقاطعة الفاسقين، ومناهضة المستهينين بأمر الله.

وما امتلأت الأرض ظلماً وجوراً إلّا لانكفاء الناس عن العدل، وتهاونهم في رضا

حكم الظالمين، وإتباعهم لأهوائهم، ومجانبتهم للحقّ والقسط، وخروجهم على طريقة

آل البيت في الإسلام.

فانظر إلى أي مستوى بلغته العدالة في الإسلام عند آل البيت عليهم السلام.

فهي إذ كانت في الله تعالى إحدى صفاته الكمالية الذاتية عندهم، كانت شرطاً تقوم عليه أسس الشريعة الإسلامية في أصول اعتقاداتها وفي تشريعاتها القانونية لاصلاح سياسات الناس وتنظيماتها الاجتماعية تبتدئ من الشؤون العامة الكبيرة إلى النواحي الاجتماعية الصغيرة.

فالعدالة تنظم العقيدة الدينية والتشريع القانوني في الإسلام من الله تعالى إلى الشاهد.

وهذا أعظم شيء لغرض ضمان سعادة البشر وأمانهم وسلامتهم وصيانتهم من الظلم والعدوان والجور والتعدي لو أنهم أخذوا بهذا التنظيم وارتعنوا به.

فليس - إذن - شيء في قيمته الأخلاقية والقانونية له ما للعدالة في التشريع الإسلامي الذي أراد للإنسان أن يكون مثلاً عالياً للطهر والنزاهة والعفة والبراءة والصدق والاخلاص، لنعمة السعادة بين الناس ولتقام بينهم أسس العدالة الاجتماعية والمساواة الطبيعية العادلة التي تعطي لكل ذي حق حقه من الحياة حسبما تؤهله الملكات المتنوعة للأفراد والأعمال التي يحسنون القيام بها.

قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

هكذا كان الإسلام في عدله وفي تقيمه للعدالة الإنسانية وتقديره لأهلها، وكان سيّدنا أمير المؤمنين عليه السلام - ونحن نتحدث عن العدالة بمناسبة عيد ميلاده - في القمة من العدالة الإنسانية والمثل الأعلى للمسلم العادل والنسخة الكاملة للمؤمن المثالي الذي

أراد الله تعالى في تشريعه ولا تتمثل كل شيء في كماله العجيبة القدسيّة، كما تتمثل عدالته في أعماله الجبّارة.

واستمع إليه يتحدث عن نفسه الجبار وهو الصادق الأمين، «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت».

فكم هي منزلة هذه الدرجة من الكمال الإنساني؟

إنه لا يسلب من نملة قشرة شعيرة في معصية الله.

وما قيمة النملة والشعيرة وقشرتها في التقديرات المالية؟ ولكن تقديرها الأخلاقي في شريعة الله عند أمير المؤمنين ينوف على تقدير جميع الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها في قيمتها الماديّة.

وقد برهن عليه السلام في سيرته على هذه العدالة المثالية ممّا يعجز الوصف عن تحديده، وكفى ما عمله مع أخيه (عقيل) فضرب مثلاً لعدالته هذه... وكان أخوه قد أملق فاستماعه من بر المسلمين صاعاً يتلّع به هو وصبيته الذين كأنما سودت وجوههم بالعظم من الفقر على حدّ تعبيره عليه السلام.

فأين هو بالقياس إلى من يهب الألوف والملايين من مال المسلمين لخاصّته وذوي قرباه لا شيء إلا لأجل القربى والولاء الشخصي.

ما أعظمك يا أمير المؤمنين إنساناً كملت فيه جميع معاني العظمة الإنسانيّة، فقصرت عن بلوغ هدفه الرجال وعقمت النساء عن نظيره... ولولا الأئمّة من بنيه لما شقّ غباره أحد فيما تجلّى في شخصه العظيم كلّ ما دعا إليه النبي صلى الله عليه وآله من تحلية المسلم بالأخلاق الإلهيّة الفاضلة.

وقد صرّح فيما ندب إليه المسلمين من أتباع منهجه بعجزهم عن لحاقه، فقال: «غير أنكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد».

وأي بشر غيره أن تعرض عليه (الخلافة الإسلامية)، وهي اعظم سلطان عرفناه في الدول العالمية فيأبأها مترفعاً عندما اشترط عليه يوم (الشورى) أن يبايع على منهج معيّن وهو اتباع سيرة الشيخين، ولما لم ير الالتزام بهذا النهج طريقاً يعذر فيه عند الله لفظ الخلافة كما تلفظ النواة، وهو قمين بأن ينحدر عنه السيل ولا يرقى إليه الطير، ولكنّه أبى على نفسه الكبيرة أن يعد فلا يفي أو أن ينحرف عن منهجه القويم في سبيل ملك يفنى وجاه يطوى ودنيا زائلة كان قد طلقها ثلاثاً لا رجعة فيها.

مع أنّه كان له في عرف الناس مساع من تأويل وتبديل بعد أن يملك على الناس سلطانهم.

هنا تتجلى عظمة هذا المخلوق الإنساني، وهنا تتجلى عظمة الدين الإسلامي وعقيدته التي لا تقبل المخاتلة والمراوغة، ولا الانحراف، ولا التساهل، في أصغر صغيرة من شؤون العدل والصدق.

وحقّاً إذا كان ﷺ، وحده، معجزة هذا الدين، بعد أن نعلم أنّه نشأ في أوّل ولادة الدين فعرف مداخله ومصادره، مع العلم أنّه قد أوتي عقلاً جباراً ونفساً كبيرة وشجاعة نادرة وروحاً قويّة لا تلين لباطل ولا تتسامح مع الحقّ.

فلو كان في الدين الإسلامي من هنات يؤخذ بها لكان هو أسبق الناس إلى معرفتها وأشجعهم على التخلي عنها وأقواهم على كشفها، ولكنّه كان لا يتنازل عن أصغر حكم فيه لأعظم سلطان في الأرض.

إنّ القيم الأخلاقية عنده مهما صغرت في أعين الناس فهي أعظم عنده من الدنيا بما فيها ومن فيها.

سلام عليك يا أمير المؤمنين!

ما أقصرنا عن اللحاق بغبارك وما أجدرنا أن نهتدي بهديك وأن نفتدي بشريعتك وأن نتلمس خطاك في عدلك، لترفع من صنع أمتنا إلى مقام العليين، وننشر العدل في الأرض ونملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً....

خلود وتخليد^(١)

للناس في تخليد أبطالهم وقادتهم وأفذاذهم سبل وطرائق متنوّعة في ذاتها تبعاً لاختلاف المبادئ والأذواق أو نتيجة لاختلاف المثل التي يمجّدونها في مجتمعاتهم ويقرّؤون عنها في عناوينها لوحة الفن الأخاذة التي تكاد رؤاها تختطف القلوب قبل أن تتمثّل صورتها في العيون...

ولكل طريقة من طرائق التخليد نفحتها العباقرة ولكل سبيل طابعه المشع بلون الضمير والمحس^(٢) بمدى الاندفاع النفسي وهذا وذاك أصدق فما ولساناً في التعبير عن ضمائر العاملين إن لم يكونا مجهر الحقائق وشعاعها المصوّر للقلوب التي في الصدور.

وعلى قدر ما تسجّله أسفار التاريخ في صفحاتها لكل أمة من أنواع التخليد لأعاضمها وفي ضوء إعدادها ومعدوداتها تستطيع جيداً أن تزن خلق تلك الأمة مهما تقادمت عليها العهود وتحبط بمدى رقيّها وثقافتها في كل لون من ألوان الحياة...

والتخليد أيها السادة كبير في صورته بسيط في معناه فهل هو إلا رمز لولاء الفرد لذلك المخلّد أو شعار كل ما فيه الاعتراف بجدارته أو إلماع إلى الشكر العظيم لذوي التضحيات والصالح والباذلين أنفسهم في مرضاته تعالى. وهذا فقط هو يكون خلودهم

(١) نص الكلمة الافتتاحية للحفل الذي أقامته جمعية متندى النشر بمركزها العام في بنايتها القديمة الملاصقة للصحن الحيدري الشريف بمناسبة افتتاح الباب الذهبي الذي أنجز بمساعي المرحوم السيد محمد كلانتر لحضرة مرقد أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام وكان ذلك عصر يوم الخميس الموافق ١٢ شعبان ١٣٧٣ بمشاركة رائعة من أعلام النجف الأشرف وأدبائها الكبار كالشيخ عبد المهدي مطر والسيد محمد جمال الهاشمي وبحضور سائر الطبقات.

(٢) المحس: من أحس.. الشعور بالإحساس.

في كفتي ميزان الخلود ذاته مختلف الطبيعة كأبعد مدى يعرفه محل الاختلاف في النبوغ في الذوق في جودة الإنتاج والإخراج.

الخلود سلم يشق أفق الفضاء لينتهي طرفه الأعلى إلى السماء فهل سيستطيع ارتقاء مراقبه كلّها بشر ينقصه الحول والطول؟ وهل يؤمل إنسان يوماً أن تؤاياه الظروف بمثل هذا الصمود..؟ اللهم إلاّ فتى النبي علي أخوه ووصيه الأمين.

ذلك هو الإنسان الذي ضرب في الخلود رقماً عالياً عبر سلّم الخلود فخلد في نفسه في السماء كما كان في الأرض من أعظم الخالدين بكل ما حواه لفظ الخلود من مثالية يسعها حيّز الإمكان.

أستغفر الله العظيم - حاشا لأبي الحسين أن يخلّده المخلّدون كما يخلّدون أبطاهم وأعاضهم - إن التخليد الحقيقي الذي هو به جدير معلول لمعرفة الشخصية المخلّدة بكل مناحي عظمتها وعلي ﷺ لم يعرفه إلاّ الله والرسول على حدّ تعبير سيد المرسلين. إن أبا تراب وهي أرقى الكنى لسمعه الشريف خلد يومه بيومه ونفسه بنفسه فعاش خالداً ومضى لربه خالداً باعتراف الجميع على حين لا نجد للدعاية يدّاً في بناء مجده ولا للزخارف التي اعتادها الناس أثراً في توطيد كرامته ولا لمصطنعات النعوت التي تلوكها السنة الطمع فضل ولا بعض الفضل في دعم كيانه.

وناهيك بخلود لم يستطع جحده المارقون والقاسطون من دين الله وشريعة الإسلام أليس ذلك إلاّ لأنه ضرب لهم من نفسه العليا مثلاً في جميع ما كان لهم من مثل في الحياة حتى عجز واصفوه عن تصويره بحقيقة الذات والصفات ورحم الله أبا الطيب إذ يقول:

وتركت مدحي للوصي تعمداً مذ كان نوراً مستطيلاً شاملاً
وإذا استطال الشيء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلاً

لقد كان مثل أمته في الشجاعة والتضحية والفصاحة والسماحة وحسن الجوار والكرم والنجدة والصدق والحجى والغيرة وما إليها من كريم الأخلاق ولكنه (صلوات الله عليه) لم يبلغ ذروة هذه المثل فحسب بل تحدّى المثل ذاتها بكل ما للتحدي من معنى مريع تحدّاها بخوارق الصفات والممتنع بلوغه على بشر من هذه الخصال فلم تكن مواهبه الكريمة محض صفات إنما كانت آيات بينات وذات إعجاز.

ولهذه النفسية العلية التي رافقته حتى وفوده على بارئه العظيم فكانت ولم تزل بين جنبه لم يشأ أن يرفض ما اعتاده البشر في تخليد الأبطال ولا أن يتقبلها كباقي الخالدين دون إجابة وجزاء، ويتلقّى شعائر التقدير من أمته ورموز ولائهم بغير عوض أو مكافأة.. لم يشأ ذلك طالما كان السكوت عن هذا الخلق المجيد من سائر الناس مشوّه الاستسلام لصرعة الموت ورقدة الخالدين.

ولم يمت علي وحاشاه أن يموت أو ما قرأت في كتاب الله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١).

فكيف سيكافئ الإحسان بالإحسان والشكر بالشكر والمعروف بالمعروف...؟ فلنقرأ المكافأة من آثار التخليد ولنتحسّسها من طريق الاستقراء.

وإذا نحن نظرنا الساعين لتخليد أبطالهم بأمواهم وقرائحهم وسائر ما عليه قدّروا أو يقدّرون وجدناهم أحيوا أثراً وخلّدوا مثلاً دون أن يصيبوا من أعمالهم وجهودهم شيئاً مذكوراً، اللهم إلا ثواب الله إن كان ذلك التخليد من الطاعات.

وهنا بدأت الظاهرة العلوية تشع بنورها الأخاذ وبدأت الأذهان تنطبع بوحي جديد استلهمته من عظمة قالع الباب (في يوم الباب).

هذا هو علي عليه السلام يخلد مخلداً به في دنياه كما يضمن له الخلود في ذلك اليوم العصيب

- لقد رفع له محبوه قباباً ضاهت السماء وشادوا له ضرائح تفخر على الجنان ولكنهم لم يزدوا علياً وصي الرسول فخراً ولا شرفاً ولا محبة في قلوب رائيديه - فهذا هو ذا علي يخلّدهم في أعمالهم ويرفع لهم شرفاً باذخاً ومجداً شامخاً وذكراً عطراً فواحاً تستنشق عبيره ألوف المتمسكين بولاية أمير المؤمنين.

ومرّت مواكب الخالدين على ذهن (الحاج مهدي) مقدّم ورفاقه في الإحسان فأثارت في نفوسهم عواطف الولاء وتهاكت نفسه العالية ونفوسهم الشريفة إلى التخليد والخلود وأظن أنهم قارنوا جيداً ووازنوا الحياة بلونها فراؤوا أن حياة المال حياة خيال محدودة الشخصية رخيصة القيمة عند ناقدٍ الشخصية بميزان العرفان ورأوا كذلك أن حياة الخلود لا تشتري ولا تباع لا لغلائها فقط بل لأنها فوق مستوى المال فما كل باذل بخالد.

وتوجّهوا من توهم نحو باب مدينة الله ومدينة علم الرسول بهذا النضار الوهاج هدية متواضعة لم تجرأ على اجتياز الاعتبار ورمزاً جليلاً للولاء والاستمسك - ولكنهم ما إن لاح لأنظارهم نور علي يملأ الفضاء حتى أيقنوا بالخلود - هذه مدينة علي تنتفض بأشباهها مهرجانات وأفراحاً وهذه أصوات الثناء تملأ الفضاء وليس في يوم ولكنها أيام فمن كان يعرف المقدم وصاحبيه^(١) لو اعتزوا بنضارهم فليعتبر المتهاكون على المال

(١) قام بإنجاز الباب الخشبية أستاذنا فن النجارة في العراق: الحبيب السيد كريم المرعبي الحلي والحاج حسن اليزدي وقام بالصياغة أمهر وأشهر أساتذة فن الصياغة في إيران ممن حاز على الشهادات والأوسمة لتفوقه على غيره بهذا الفن، وهم الحاج محمد تقي الأصفهاني، والحاج السيد محمد العريضي الأصفهاني، ومحمد حسين برورش الأصفهاني، وتصدى للقيام بإنشائه السيد محمد كلانتر بإنهاض ثلاثة من تجار طهران للانفاق على الباب المذكور وهم: الحاج ميرزا مهدي مقدم وأبناء أخيه الحاج كاظم أغا توكلان مقدم والحاج ميرزا عبد الله مقدم.

أنفق ثلاثة آلاف وخمسة مئة مثقال من الذهب الخالص على الباب، وخمسين ألف مثقال من الفضة صيغت على شكل صفائح سمكية وضعت على وجه الباب تحت صفائح الذهب مباشرة - ومقداراً

وليبدلوا في سبيل انتخابهم للخلود بدلاً عن كل انتخاب.

وهذا هو (السيد كلانتر)^(١) كثر الله في صفوف المسلمين أمثاله يستبدل عن ندائه بنتائج سعيه النبيل ولا غرابة في مسعى هو من علي وإليه - فكأن سعيه يتحدّى معاً أرباب المال والهمم ودعاة الصلاح والإصلاح وكأنه يقول: هكذا ينبغي أن يعمل المجاورون ويتعاون المصلحون - سدّد الله الجميع لسبل الخير والصلاح.

ليس بالقليل من المينا الخالصة الثمينة ورصدوا له مبلغ عشرين ألف دينار عراقي واستمر العمل به ثلاث سنين، وقد نصب صباح يوم الإثنين الثامن من شعبان سنة (١٣٧٣هـ)، وأقيمت بمناسبة نصبه احتفالات في الأسواق والصحن الشريف استمرت أكثر من أربع ليال، وفتح وسمح للدخول منه والخروج يوم الخميس الحادي عشر من شعبان وقد تضرّرت هذه الباب وإطارها بسبب القصف الهمجى الذي طال المدينة المشرفة والمرقد الطاهر في سنة (١٩٩١م) عند دخول الجيش البعثي الدموي للسيطرة على مدينة النجف الأشرف.

(١) السيد محمد السيد سلطان الموسوي الشهير بكلانتر (١٣٢٥ - ١٤٢٠) عالم جليل محقّق فاضل يعد من الوجوه العلمية في النجف تصدّى لتأسيس مشاريع خيرية رائعة منها جامعة النجف الدينية والباب الذهبي للحضرة العلوية وأنجز تحقيقات رصينة مطبوعة كما في جامع السعادات واللمعة الدمشقية والمكاسب وامتاز بحسن السريرة والتقوى وحب الخير.

خلود النهضة الحسينية^(١)

إن ذكرى ولادة سيدنا الحسين - عليه السلام - هي ولادة لذكرى مأساة الحسين التي لم يخلق مثلها ولم يخلق جدتها الملوان، فما أن يخطر بالبال اسم أبي عبد الله إلا وتتضخم في القلب تلك النازلة بالإسلام والمسلمين فيعظم هولها وتصغر المصائب دونها، ولا تدع للنفس مجالاً لفرحة عيد ميلاده أن تسلك إليها، ولا تترك للقلم مجالاً واللسان أن يصمد في تصوير هذا الحدث الذي ملأ بيت النبوة بمشرق نوره الوهاج غبطة وحزناً في آن واحد.

على أن مثلي لعاجز من تصوير ما لإمامنا - عليه السلام - من عيد في ميلاد أو من ميلاد في عيد - وما أوتي كاتب من بيان فإن بلاغته لا تتجاوز التكرار لما هو مكرر آلاف المرات ليل نهار.

ولكن الشيء البكر الذي لم يتكرر في وجود الإنسان ولم يعرف له مثيل في تاريخ البشرية أن يظهر في الوجود إنسان مثالي كالحسين - عليه السلام - بنهضته الجبارة التاريخية في مصاولة الظلم ومكافحة الطغيان ومقارعة الجور، ومناهضة الكفر والإلحاد، مضحياً بكل ما عنده من قيم واعتبارات، وبكل ما يملك من مال وبنين وحياة، فيستدر عطف الأجيال المتعاقبة لنصرة الحق، ويثير حماس النفوس الأبية على مقاتلة الظلم، ويعلم كل

(١) الكلمة التي ألفها الشيخ المظفر في احتفال المولد الحسيني بالنجف وقد نعى فيها التحلل الخلقي الذي انتشر في الأقطار المسلمة جمعاء والذي ساعد على انتشاره المستعمرون وختمها بتعريف منزلة «المجتهد» عند الشيعة وإنه وحده ذو الولاية العامة وله حق الفتيا والتصرف بشؤون الناس وهذه التفاتة جميلة في تعريفه الحفل الذي يضم الآلاف من المسلمين بمن له الحق التكلم باسم الدين لاسيما بعد أن لوحظ تسامح ممن ليس له هذا الحق في استعماله.

محب للعدل على التضحية في سبيل الواجب، ويفضح أعمال الطغمة الفاسدة المستبدة، ويكشف للناس الروح الجاهلية الخبيثة التي أرادت باسم الإسلام أن تخادع الناس للقضاء على كل معاني الخير وخير كل المعاني الإسلامية التي نادى بها محمد ﷺ.

أعود فأقول: إن الذي لم يتكرر في التاريخ أن ينهض رجل كالحسين في ظروف للإسلام الخاصة فيعلنها حرباً شعواء على الظلم والفساد والكفر والإلحاد فيعيد الإسلام جدته، وللتوحيد صولته، ويعلن للعدل صراطه، وللحق منهجه، ولإباء الضيم والذل طريقه.

وإن تكن هذه الثورة عبرة لنا - نحن أبناء هذا العصر من المسلمين - فهي أحق من أن تكون عبرة تعصر فيها الدموع اعتصاراً ونقعد ملومين مدحورين عن مصاولة الظلم والإلحاد جبناً واستكانة.

وما أجد فيما وجدت عصراً كعصرنا الحاضر ولا يوماً كيومنا الذي نعيشه الآن طوح بدعائم الإسلام فهدمها وشتت شمل المسلمين فقوّضهم، وملاً الأرض ظلماً وجوراً والدنيا فساداً واستهتاراً. وقد مضت سنون طويلة والمستعمرون الصليبيون يدكون حصون الإسلام حصناً حصناً وينشرون راية الإلحاد نشرأً ونشراً ويبخسون حق الفضائل بخساً بخساً. ونحن - المسلمين لا بارك الله فينا من مسلمين - أعناهم على أنفسنا إعانة الضعيف المتخاذل للقوي المهاجم، وساعدناهم على ديننا مساعدة العبد اللئيم لسيده الجائر الحاقد، وشاركناهم في هدم قواعدنا مشاركة الدنيء الغبي للعدو اليقظ الجائر.

وإني لأتمنى على كل واحد من المؤمنين الأخيار الغيورين أن يجوب البلاد الإسلامية من أقصاها لأدناها كما شاهدت قسماً من مظاهرها العابرة، ليرى بأم عينيه كما رأيت إلى أي مدى تردّت الحال بتعاليم الإسلام الصحيحة، وإلى أي تحلل خلقي اقتبسناه

من أعدائنا الغربيين، وإلى أي استهتار وحشي بروح الدين بلغناه تقليداً لخصومنا المستعمرين.

وفوق كل ذلك وهو موضع الداء ومحزه^(١) إن ولادة الأمور في بلادنا الإسلامية من أقصاها لأدناها مفخر أحدهم أن يستجيب إلى داعية الغرب للاستهانة بتعاليم الإسلام والالتماس بمفاتن الشهوة واللذات الداعرة، ومبلغ حرية مفكرهم أن يستصيخ دعوة اللادينية والإلحاد وصولاً قويهم أن يصنعن بالظلم والجور ووحشية شريعة الغاب.

ولاشك إن المستعمرين الطغاة يتضحكون في سرهم بملء أشداقهم على هوساتنا في تقليدنا لهم، ويفرحون بمنتهى سرورهم على انكفائنا على أنفسنا وديننا وعلى انعكافنا على أصنامهم التي نصبوها لنا لنقلدها، ونحن نخادع أنفسنا بأننا بلغنا بتقليدنا لهم في الاستهتار الغاية من التقدم والعمران والرقى في الاستقلال حتى أصبحت دعوة أفيون الشعوب لها المجال لتخدير المغفلين المساكين منا وإغرائهم على هدم حصوننا الإسلامية.

وبهذه المناسبة يجب أن لا ننسى مواقف النجف الأشرف في هذا المضمار وبطولتها وتفهمها لنيات المستعمر ودسائسه، فإنها بفضل علمائها الأعلام نواب الإمام هي التي أعلنت الجهاد على المستعمر حينما هجم على إيران لاحتلالها قبل الحرب العالمية الأولى وأعلنت الجهاد عليه أيضاً حينما هجم على العراق لاحتلاله في الحرب العالمية الأولى.

ومما يلفت النظر حقا ان جهاد النجف كان في صفوف العثمانيين مؤازرة لهم.

نعم كان جهادهم في صفوف العثمانيين مع إنهم كانوا من ألد أعداء النجف، وقد ذاق العراق منهم والنجف بالخصوص صنوف الآلام وأنواع العذاب، ولم يمنعهم ذلك من واجبه المقدس الإسلامي في جهاد الكافر المستعمر.

وبعد هزيمة الأتراك بخيانة قوادهم واحتلال العراق من قبل الإنكليز ثلاث

(١) موضع الحز: أي القطع.

سنوات تعلمون من الذي نهض في وجههم بالثورة الكبرى التي قادها العلماء بكل إخلاص وتضحية وحكمة. ثم أنتم تعلمون كيف نفّض العلماء بعد ذلك أيديهم من الحكومة التي اصطنعها المستعمر فحرّموا انتخاباتها ووظائفها حتى أبعدوهم عن العراق.

ولا تزال النجف وعلى رأسها العلماء المجتهدون ينظرون إلى المستعمر وأحابيله^(١) الخادعة نظر الحذر المستيقظ، ولا ننسى أن من أعماله التي دأب عليها ولقّن أذنا به محاولة الانتقام من العلماء بتشكيك الناس في إخلاصهم وحسن نواياهم وفي ميزتهم الثقافية وعلو كعبهم في الإسلام. ومن بعض تلك المحاولات للانتقام منهم إنكار جميلهم في الثورة وتناسي جهادهم في الدين، وبالأخير محاولة عزلهم عن الشعب وتقليل نفوذهم فيه وتصغير شأنهم عنده لأمانتهم. وقد نجح المستعمر في ذلك إلى أبعد نجاح فيما سبق، غير أن صبر رجال الدين وصمودهم أمام تلك المحاولات المرهقة وأمام نتائجها المنغصة من ضنك العيش وخنق الحريات هو الذي أبقى النجف وسبقها مرفوعة الرأس دائبة في أداء رسالتها الإسلامية خالصة لوجهه الكريم.

ولا شك في أن هذا الموقف المقدّر لعلماء النجف مستوحى من جهة استغنائهم عن الحكومات على اختلافها في شؤونهم المادية وقناعتهم بكل ما هو ميسّر لأدنى كفاف العيش، ومستوحى من جهة أخرى من فتح باب الاجتهاد، إذ ينشأ في كل جيل علماء في الدرجة الأولى من ناحية الكفاية العلمية ومن ناحية الثقة بالله والانقطاع إليه والجهاد في سبيله لا تأخذهم فيه لومة لائم.

ومنزلة المجتهد عند الشيعة - كما تعلمون - منزلة الإمام في أنه المرجع للناس في شؤونهم الدينية وغيرها وليس لأحد غيره حتى الإفتاء، وليس لأحد غيرهم حق الحكم

(١) الأحابيل جمع أحبولة وهي المصيدة.

والتصرف في شؤون الناس العامة، له ما للإمام من الفصل في القضايا والحكومة بين الناس، والراد عليه راد على الإمام والراد على الإمام راد على الله وهو على حد الشرك بالله، كما جاء في الحديث^(١). فليس المجتهد الجامع للشرائط مرجعاً في الفتيا فقط بل له الأولوية العامة وذلك من مختصاته، ولا يجوز لأحد أن يتولّاها دونه إلا بإذنه وإجازته، كما لا تجوز إقامة الحدود والتعزيزات إلا بأمره وحكمه.

تلك حدود الله تعالى التي فرضها على عباده. وبعد هذا أفلا يكون موقف الإمام الحسين - عليه السلام - - عبرة لنا للنهضة بأمّتنا الإسلامية للرجوع إلى حضيرة الإسلام والرشد الديني والهداية الإلهية. وما أرخص النفوس والمال والجاه في سبيل إقامة عدل الله في الأرض وصرح الدين الإسلامي في الكون. ولنا بسيدنا أبي عبد الله عليه السلام الأسوة الحسنة وبطريقته المثل الأعلى الذي يحتذى.

ألهمنا الله تعالى الصبر ووقفنا لوحدة كلمتنا وجمع قوّتنا وهدانا سواء السبيل. اللهم وإليك المشتكى وعليك المعول في الشدة والرخاء. فأفّض علينا من رحمتك ما يغير من حالنا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٢).

(١) الكافي للشيخ الكليني ٨: ١٤٦.

(٢) الرعد ١٣: ١١.

يا أبا عبد الله^(١)

تنصرم القرون وذكراك باق مع الدهر وتموت الناس وثورتك حية في القلوب ففي
تاريخ حياتك حياة التاريخ، وفي جلال معنالك معنى جلال التضحية، وفي خلود سرك
سرّ خلود الكرامة لقد جئت إلى الأمة الإسلامية مشرقاً كالشمس تجلي للناس عن خفايا
الناس وتهوى المؤمنين إلى صدق العزيمة ومكافحة الظلم والثورة على الباطل.
وحق أن أهنيك في يومنا الأغر في تاريخ العراق مهد ثورتك بانتصار وثبته الجبارة
التي أطاحت بالظلم والعدوان والاستعباد، وانتقمت من الظالمين، فإن هذا من اشعاع
نورك الوهاج الذي أنار للناس سبل الظفر بجيشنا الباسل.

(١) مجلة النجف السنة الثانية العدد الأول ١٣ / محرم / ١٣٧٧ - ٣١ / تموز / ١٩٥٨.

يا نور الحق^(١)

في تاريخ حياتك حياة التاريخ، وفي جلال معنك معنى جلال العقيدة وفي خلود
سرّك سر خلود الفضيلة.

لقد جنّت إلى العالم كالشمس المشرقة كشفت عمّا في خفاياه من كامن الرذائل القذرة
التي كانت تهدّده بوباء الجاهلية، فتطوح به إلى موت الكرامة والفضيلة والإنسانية بل
جنّت كالقنبلة الذرية - وأنت نقطة ارتكاز الدهر - فانفجرت لتكهرب الدهر بتيار
قوّتها، فأحرقت صروح الشرور وهدّتها، ولكن نشرت الحياة في معناها اللائق بالحق
والعدل والحرية.

سيدي إن قلت «الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم» فقد سحقت بقدميك
الكريمتين سيدتهم ومعبودتهم وهي كل ما يملكون ويعبدون، فأثبتت للإنسانية الحائرة
ببرهان تضحيّتك كيف تسمو النفوس، وكيف يرتفع الحق نوراً يتوهّج، بل ناراً تذوب
عنده وتبخر جميع اعتبارات هذه الحياة الفانية أو المعبودة الفاجرة وجعلت اللعنة
الدائمة على الظالمين؟

فعليك منا - يا أبا الشهداء - سلام الله أبداً ما بقينا وبقي الليل والنهار.

(١) نشرت في مجلة البيان النجفية، السنة الثانية العدد ٣٥، ١٩٤٧.



مقدمات کتب

ما أعظم تاريخ الكوفة^(١)

ما أعظم تاريخ الكوفة وما أجل ما أبقتة لنا من آثار أدبية وعلمية لا تنسى مدى الدهر، مَصْرُها الإسلام في إبان نهضته الكبرى، وفي زمان كان يقفز بأجنحة من الإيمان ليحلّق على العالم كلّ بهدايته، ويكتسح جبابرة الكفر وطواغيت الشرك لقد كان وهو يناطح مملكة فارس العظيمة يبحث جيشه عن مقر للقيادة العامة تتوفّر فيه شروط الصحة والراحة، فرحبت به هذه الأرض (أرض كوفان) وهي ضاحكة له بسماؤها المجلوة، ومائها العذب، ونسيمها الساحر الذي يتألّف من نسيم السواد المبلول وهبوب الصحراء الجافة، وأصبحت (كوفة الجند)... وهذا مبدأ تكونها التاريخي.

ولكن جامعها العظيم هو قلب الكوفة النابض، أو المركز الجذّاب لدائرة الجند العربي، فلفّ حوله هذا الجند الفاتح الفخور بقوّته وإيمانه، والذي يتمثّل في هذه القبائل العربية، فراحت كل قبيلة تلتمس في هذا الجامع فخراً إلى فخر، أو ميزة لعزّها بالاختصاص بأحد جوانب الجامع الأعظم فأصبحت الكوفة (كوفة القبائل) أيضاً، وقسّمت إلى أرباعها المعروفة كل ربع إلى جانب من الجامع تختص به عدة قبائل، وكان أحظاها هاتي التي اختصّت بالجانب الشرقي أفضل جوانب المسجد، وهم قبائل اليمن، وقسّمت بعد ذلك إلى محلاتها السبع. فمرّت عليها - بحكم ضرورة التقدّم - أطوار العمران، من مضارب وخيم، إلى دور بنيت بالبن غير المشوي فأنشأت الشوارع والسكك، إلى دور وقصور بنيت بالآجر. وهذا حديث شيق يغري المؤرخ على البحث والتنقيب.

(١) تقديم كتاب تاريخ الكوفة للسيد حسين (حسن) البراق.

ولما تمصّرت الكوفة على هذا النحو أصبحت مركزاً للسياسة الإسلامية وعاصمة للخلافة، فمرّت عليها - بتأثير مركزها - أدوار متناقضة هي جملة أدوار الإمبراطورية الإسلامية، فمُنيت بحروب وحوادث محزنة ومدهشة. كل هذا ما جعل لها منزلتها التاريخية اليوم وفي كل يوم التي ترتبط بتاريخ تطورات الإسلام في أهم عصوره وأدق ظروفه والتي تستهوي غواة التتبع والبحث.

ثم لم ترض بذلك حتى جعلت لها مركزاً للأدب والعلم - نتيجة لمركزها السياسي - هو الوحيد بين البلاد الإسلامية، ما عدا البصرة يومئذ التي تنازعها هذه المنزلة فيتصارعان ويتجاولان، وكثيراً ما جرّ هذا التحزّب إلى الخلاف في الآراء العلمية والأبحاث الأدبية، ولا زلنا نسمع قال الكوفيون وقال البصريون.. فكانت الكوفة أيضاً (كوفة العلم والأدب) أو مدرسة الثقافة الإسلامية الجامعة وهذا ما زاد في قيمتها التاريخية بآثارها العلمية والأدبية، وبما أنجبت من علماء وأدباء وشعراء هم مفخر التاريخ الإسلامي في أهم أدوار نهضته الثقافية.

كلنا يعرف عن الكوفة شيئاً من أهميتها التاريخية في هذه النواحي التي تقدّمت وفي نواح أخرى تعرفها في غصون هذا المؤلف الذي بين أيدينا - ولكننا لم نعرفها في مؤلف واحد جمع شتات تأريخها على ما بها من مغريات للباحثين والمؤرخين وإنما التأريخ الإسلامي في أدواره التي مرّت (والكوفة مركز حركته السياسية والعلمية والأدبية بل التجارية) يعطينا فكرة عامة مشوّشة عنها تحتاج إلى التنظيم والتنسيق، ولا يزال كثير من نواحيها يحتاج إلى تدقيق عميق وبحث طويل في المصادر التاريخية المنوعة، وفي مواقع متفرّقة في كتب اللغة والحديث والأدب والرجال والبلدان التي لا تُحصى، فما أشرف الناس إلى مؤلّف يُشبع نهمهم في تاريخ هذه البلدة القديمة، ولماذا غفل المؤرّخون عن هذه النقطة الأخاذة!

نعم سمعنا وقرأنا عن بعض المؤلفات القديمة التي طواها الدهر معه وضمن بها على الباحثين فلم تبق لها عين ولا أثر منها:

١. (تأريخ الكوفة) لأبي الحسين محمد بن جعفر المعروف بابن النجار الكوفي المتوفى في سنة ٤٠٢ هـ ذكره في (كشف الظنون).

٢. (تأريخ الكوفة) لابن مجاهد المعروف ذكره في (كشف الظنون) أيضاً.

٣. (كتاب الكوفة وما فيها من الآثار والفضل) للنجاشي صاحب كتاب الرجال المشهور (ذكره في ترجمته).

٤. (كتاب في المزار وفضل الكوفة ومساجدها) لجعفر بن الحسن بن شهریار المتوفى في سنة ٣٤٠ هـ ذكرها النجاشي المتقدم في رجاله).

ولما ألقى المستشرق الفرنسي المشهور (المسيوماسنيون) محاضراته عن الكوفة في "الجامعة المصرية" لفت الأنظار إلى هذا الموضوع التاريخي المهم، وكان لها وقع جميل في نفوس المثقفين، مما دلّ على شغف الناس في تعريف تأريخ الكوفة هذه البلدة القديمة، وليس هذا مما يشفي العليل وينقع الغلّة، أين المحاضرة الواحدة - مهما كان صاحبها - من تأريخ هذه البلدة العظيمة الكبيرة التي امتدت عدّة قرون شعلة من حروب وحركات سياسية وأدبية وعلمية إلى أن انطفأت مرّة واحدة، على أنّا لا نزال بحاجة إلى كتاب قديم يصحّ أن نعول عليه كسند تأريخي نحتجّ به. إذن بماذا نسدّ هذه الحاجة، وأين لنا بالكتاب الذي يطمّن رغبة المولعين بالآثار القديمة؟

أظن - لأدنى تفكير - يذهب فكر القارئ لينجو من هذه الحيرة إلى اقتراح جمع المتفرّقات فيما يخص الكوفة المبثوثة في غضون الكتب المتنوعة. فتؤلف تأليفاً منسّقاً في كتاب واحد على شريطة ألاّ يقحم رأي المؤلف بين آراء القدماء، ولا يتصرّف بأكثر من نقل أقوالهم وتنظيمها، وبذلك يهيأ كتاب قديم في أقواله وآرائه كما نروم وإن كان حديثاً

في جمعه فيتمكّن به الباحث أن يصل إلى الحقائق مع الوقوف على حفريات الأثرين الحديثة ويحقّق الغرض الذي من أجله يعنى المحقّقون بالكتب القديمة.

ولكن هل يظن المقترح أن من السهل تلبية مثل هذا الاقتراح، وكم نراه يحتاج إلى مجهود عظيم وسير طويل في بطون الكتب التي لا حدّ لها، وكم يحتاج إلى أمانة في النقل ودقّة في الملاحظة وإتقان في الوضع.

ومن حسن الصدف أو من توفيق الباحثين أن يلبيّ هذا الاقتراح قبل وقوعه فيُخرج لنا العلامة الأستاذ (السيد محمد صادق آل بحر العلوم) هذا الكتاب الذي بين أيدينا من تأليف الفاضل المرحوم (السيد حسين البراقبي)، ذلك المؤلّف الشهير المشكور على تنبّهاته لكثير من المواضيع التاريخية التي لم يطرقها غيره من المؤلفين، وعنايته الخاصة بها، ولا تزال مؤلّفاته المخطوطة بمكتبات النجف مصدراً نافعا لتأريخ النجف وعلمائها يُعتمد عليها ومن مؤلّفاته الثمينة المبتكرة له هذا الكتاب (تأريخ الكوفة) الذي قد سمعت حاجة الباحثين إلى مثله وفقدان المؤلفات القديمة التي سمعنا عنها ولم نرها. وقد وفي هذا المؤلّف بشرط المقترح فجمع أقوال العلماء المتقدّمين والأحاديث والسنن كما هي، ليوقفك على إضامته من تأريخ الكوفة لا تستطيع أن تقف عليها في غير هذا الكتاب مجموعة.

ولما كان الكتاب الأصلي غير واف باستقصاء تأريخ الكوفة انبرى له صديقنا الأستاذ (السيد محمد صادق آل بحر العلوم) فزاد فيه زيادة ذات شأن يذكر فيشكر، ونقّحه تنقيحاً زاد في جماله وقيّمته التاريخية حتى أصبح كتاباً مشتركاً بينهما، وإذا كان قد نسبته إلى مؤلفه الأصلي فلاجل الاعتراف بفضل المتقدّم وابتكاره للموضوع الذي كان أساساً متيناً بني عليه هذا الكتاب فخرج وافياً بالغرض وتعرف تصرّفاته وزياداته على الأكثر في أواسط الكتاب وأواخره إذ تشم أن الأسلوب قد تغيّر بها لم يتفق له مؤلف في

عصر (السيد البراقي) ويتجلى ذلك لك عندما تقرأ المنقول عن المؤلفات التي طبعت أو عن المقالات التي أنشئت بعد (البراقي) بسنين كثيرة.

ولا يسعني إلا أن أعظم مجهود صديقي الأستاذ وتحرّياته الثمينة وتنقيباته عن كل شاردة وواردة بما لم يتفق له باحث غيره، ولئن زج بعض محاكماته التاريخية وآرائه الخاصة أحياناً، فتلك ضرورة البحث تدعوه وإلاّ فهو محتفظ بشرط المقترح ينقل لنا أقوال المتقدمين وآراء المتأخرين كما هي، فأعطانا أثمن مجموعة نادرة في هذا الموضوع. ومن المواضيع التي استقلّ بها وحده في هذا الكتاب ولم يكن لها أساس في الأصل معجم أسماء الكوفة وقراها ومحلاتها وما يتعلّق بها من النواحي والبقاع والديارات والقصور.. إلخ، ومعجم نقبائها وقضايتها وولاتها وتأريخ حوادثها وفتنها وغير ذلك كثير، فأرجو لكتابه التوفيق وأداء الغاية التي جمع لأجلها.

أقدم كتاباً هو الأول من نوعه

تقديم كتاب تاريخ الديوانية مؤلفه الحاج ودّاي العطية^(١)

في أمسية من أمسيات الشامية الجميلة قضيت سويغات سعيدة عند الأخ الحاج ودّاي العطية أحد رؤساء الحميدات في داره العامرة بجوار مكتبته الغنية بنفائس الكتب فأوقفني على مجاميع قيّمة من جمعه تخصّ تاريخ الفرات الأوسط بما فيه النجف الأشرف وكربلاء جمعها في مادة دسمة من متفرّقات الكتب والمخطوطات التاريخية النادرة ومشافهات ذوي الخبرة والاطلاع.

وما كانت تلك المجاميع يومئذ (وذلك في سنة ١٣٧٠) إلّا مشتّتات متفرّقة لا يربطها إلّا ما يجمع بينها من أنها تأريخ الفرات الأوسط ومن أنها مذكّرات قصد منها تسجيل وحشد المادة للتاريخ المنسي والمهمّل من ماضي هذا القطر، ذلك القطر الحافل بالحوادث الجسام والماجريات المثيرة وبالعلماء الأعلام والزعماء المبرّزين والأشخاص النابهين والشعراء المجيدين والشجعان المدلهمين^(٢) والرجال المجرّبين... وما إلى ذلك

(١) الحاج ودّاي بن عطية بن غضبان الحميداوي (١٨٨٩ - ١٩٨٣)، مؤرّخ نسابة ولد في الشامية ونشأ بها، دخل المدارس الرسمية وتخرّج فيها، اتجه للمطالعة والتحقيق وكان زعيماً لقييلته، انتقل إلى كربلاء سنة ١٣٦١ وسكنها متفرّغاً للبحث والتأليف وكانت لديه مكتبة قيّمة فيها نفائس المخطوطات وله اهتمام خاص بتاريخ عشائر الفرات الأوسط وحوادثها. من كتبه المطبوعة: تاريخ الديوانية قديماً وحديثاً، على هامش العراق بين احتلالين. والمخطوطة: الأسر الفراتية، العشائر والأسر العلوية في الفرات، مشجّرات العلويين، رؤساء العشائر في الفرات (١ - ١٠)، وفيات العلماء والأدباء والشعراء. مصادر الترجمة: معجم الأدباء ٤٣٨/٦، مجلة الموسم ١٤٣/٥، معجم المؤلفين ٤٥٤/٣، تراث كربلاء ٣٦٣.

(٢) يقال ادلهم الرجل: كبر وشاخ.

مما يتّصل بتاريخ المدن الفراتية وتأسيسها والأنهر ومجاريها والأراضي وسكانها وتاريخ العشائر وأنسائها حتى أنساب العلويين وتاريخهم.

ولا يقف الإنسان على هذه (المجاميع) إلاّ ويشعر بالمشروع الضخم الذي عنى به صاحبه في ذلك الجمع لهذه المادة الواسعة التي تصلح أن تستخرج منها عدّة مؤلّفات نافعة عند تنظيمها ثم يعجب من اطلاع هذا الرئيس وما يبذله من سعي متواصل ومجهود كبير في التقاط نواذر التاريخ وذلك من سنين طويلة وفي الخفاء المتكتم حتى على أعزّ أصدقائه ثم مما يتحلّى به من صبر المتنبّع الحريص على كل شاردة وواردة من غير لخب ولا ضجة ومن عشق متجاوز الحد لتسجيل وقائع التاريخ ودقائق الأمور وهو مستمرّ مع ذلك كلّه يبحث وينقبّ ويسأل ويسجّل ويحكم بين الآراء ويعادل بين الشهادات.

والأعجب من ذلك كلّه أن صاحب هذه المجاميع - على حرصه عليها واعترازه بها - لا ينظر إليها النظرة التي تستحق الإكبار لولا ما لاقى من تشجيع إخوانه على أن يضع عدّة مواضيع ويجمع كل ما تفرّق في هذه المجاميع فيضم كل درّة إلى أختها وكل حادثة إلى ما يربطها لتتألف عنده في ذلك سلسلة كتب متّصلة الحلقات محبوكة الصلات ينتفع فيها القارئ والباحث والمؤرّخ فكان كما أراد وها هو ذا يقدّم - أو أقدّم أنا - للقراء أول كتاب من هذه السلسلة، كتاب (تاريخ الديوانية) ليلحقه بكتاب آخر هو (حوادث الفرات) ثم يباقي السلسلة وأنا إذ أقدّم لهذه السلسلة إنما أقدّم كتاباً هو الأول من نوعه في تاريخ هذه البلدة وفي الأسلوب الذي اتبعه المؤلّف في مواضيعه وتسجيلها فإنه إذ يتحدّث لك عن موضوع يخص الديوانية وما يتّصل بها كتاريخ إنشائها ومنشأتها وحكّامها في جميع العهود وتوابعها من الأقضية والنواحي وعشائرها وسكانها فإنك تجده يتحرّى في بحثه دقائق الأشياء وتسجيل منتهى ما يصل إليه بحثه وتتبعه عن أمور

قد لا يجد من لا يعني بشؤون التاريخ كثير أهمية لها عنده كتاريخ بناية مدرسة أو توظيف شخص وهو في تحصيل هذه الدقائق الصغيرة قد يبذل من الجهود والمال ما لا يحيط فكر الرجل العادي به.

يسجل كل ذلك بأسلوب تأريخي محض بعيد عن الأساليب الأدبية والخطابية فلذلك خرج هذا الكتاب مرصوفاً بالمادة التاريخية المفيدة.

ومن البين أن التاريخ دائماً يحتاج سجله إلى يد أمينة نزيهة لا تتأثر فيما تسطره بسلطان العاطفة أية عاطفة كانت وقليل هم أولئك المؤرخون الذين يتجردون للتاريخ ولا يتجرون به. وكذلك كان مؤلف هذا الكتاب من ذلك الطراز النادر فإن نفسه الخيرة وبُعده عن السياسة وأغراضها وغناه عن الاتجار بأفكاره أو بتأليفه وعشقه البالغ لسطر الحقائق التاريخية المجردة كما هي قد وقعت.

إن كل ذلك كان كفيلاً بإخراج هذا الكتاب سجلاً أميناً للتاريخ النزيه حسبما استطاع أن يصل إليه تتبّعه المتواصل الدؤوب فالكاتب من هذه الناحية كان قليل المثل فيما كتب أخيراً عن تاريخ العراق ومدنه.

وإذا كان يبدو أنه قسا على بعض الشخصيات فهي الحقيقة التي يعتقدها ويرى أنه يجب أن يسجلها وإن كانت عليه ومع ذلك فإن الكتاب لم يخل من بعض العواطف التي أملت بعض التعليقات العابرة ولكنها ليست من نوع تلك العواطف التي تشوّه الحقائق وتغيّرهما أي ليست بعواطف شخصية نفعية وإنما هي الغيرة على وطنه من جهة والنزعة الأخلاقية أو الدينية التي عنده من جهة أخرى فإن هذه لها السلطان على تفكيره وتوجيه كتابه وتعليقاته الطفيفة العابرة على بعض الحوادث والشؤون مما جعل الكتاب بعيداً عن الدجل السياسي والمحاباة الشخصية والمجاراة للظروف وهذا مما زاد في قيمة الكتاب وهو على كل حال يستحقّ الاقتناء والمطالعة لا سيما ممن يعني بتاريخ

الحقبة الماضية من تاريخ الفرات وإني لأرجو له الرواج والانتشار ولصاحبه التوفيق
والتسديد ومن الله تعالى نستمدّهما له ولي.

في ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٧٣

تقديم نشرة البذرة^(١)

تعود بي الذاكرة وأنا أحرر هذه الكلمات للجنة التأخي من طلابنا الأعزاء إجابة لرغبتهم في تقديم (البذرة) إلى قرائهم - تعود بي الذاكرة إلى مبدأ غرس هذه البذرة في نفوسهم والعوامل التي دفعتنا إلى ذلك قبل حفنة من السنين.

ولبيان هذه العوامل أذكر القراء بحال النجف الأشرف يوم واجهت التطورات الحديثة في البلاد الإسلامية فظهرت فيها فئة من الناس تقبلوا هذه التطورات بصدر رحب واندفعوا بتيارها وغالى بعضهم فتقبلها على علاته حتى أزرى بكل قديم وبكل ما يمت إلى ذلك من قريب أو بعيد، بينما بقي القسم الأكبر مصراً على رفض كل جديد حذراً أن يفتح التجديد مهما كان كوة على القديم فيتسع إلى التأثير على الاعتقادات المقدسة.

وكان من الطبيعي أن تقع خصومة بين الطرفين قد تصل أحياناً إلى العنف والشدة، وهذا بالضرر مما يضاعف تعصب كل من الفريقين لرأيه وابتعاد كل منهما عن الآخر. وبهذا كادت النجف تخسر شبابها وهو طموح بطبعه إلى الحرية والتجديد وتضاءلت على أثر ذلك الحركة العلمية للمعارف الدينية في الشباب النجفي، وحدثت هوة كبيرة بين الثقافتين القديمة والحديثة.

وهذه الخصومة وأثرها في بلادنا عامّة هي التي دفعتنا إلى الوقفة من الطرفين موقف من يريد أن يقرب بينهما بتربية ناشئة دينية تكون هي الحلقة المفقودة التي تتطلبها

(١) نشرة البذرة السنة الأولى العدد الأول الصادر في يوم الخميس ١ / ربيع الثاني / ١٣٦٧ - ١٢

/ شباط / ١٩٤٨ الصفحة ٢ - ٤.

الحاجة وينشدها كل من الطرفين وكان هذا العمل - في اعتقادنا - خير الحلول التي يمكن بها أن يتلافى الوضع في معاهد النجف الأشرف قبل أن يحل الجذب في حدائقها الغنّاء (لا قدر الله).

وقد وفقنا بحمد الله إلى إلقاء (البذرة) في نفوس هذه الصفوة من طلابنا وكادت أن تفرع طبقة متوسطة تأخذ من الحديث ما لا يصطدم مع المثل العليا وتضيفها إلى الثقافة القديمة المختارة.

ولا نكتّم سرورنا بتقبّلهم هذه الفكرة على أحسن ما نأمل واجتهادهم في تحقيقها بما يكتبون ويحاضرون وينشرون في صحفهم المدرسية التي جعلوها ميداناً لأقلامهم وحذب على كل واحدة منها جماعة منهم أطلقوا على أنفسهم اسم لجنة من اللجان كلجنة تآخي الطلاب، ولجنة رجال المستقبل، ولجنة العمل والثقافة...

وقد رغبت هذه اللجان أن توحد مجهودها بهذه النشرة التي أطلقوا عليها اسم (البذرة) لتكون رمزاً إلى البذرة التي غرستها كليّتهم في نفوسهم يوم استجابوا إلى رغبتها وقد تركوا أمر إخراجها إلى لجنة التآخي.

مما سرّنا كثيراً في خطة بذرتهم هذه فكرة توحيد جهودهم مع إخوانهم من طلاب الكليات الأخرى والمدارس العالية ليحقّقوا بذلك روح (التآخي) التي دعا إليها الإسلام ففتحوا للطلاب حقلاً خاصاً تلتقي فيه أصواتهم من كل صوب.

وبهذه الطريقة نرجو أن يتحقّق قسم من آمالنا في توحيد جبهة الشباب الواعي في العراق الذين سيقوم على عواتقهم في المستقبل القريب إن شاء الله تعالى كيان العراق الاجتماعي. ونحن نهيب بالشباب المثقف في سائر الكليات أن ينحو هذا النحو في تكوين روح التآخي بين جميع الطلاب أينما كانوا.

أما بعد - يا طلابنا الأعزاء

فماذا تريدون أن أقول في تقديم نشرتكم إلى إخوانكم من الشباب وفي رغبتني أن تقوم هي بتقديمكم ولهم بعد ذلك أن يحكموا عليكم بما يلمسون فيها. وكل ما أقوله الآن بل تقوله جهود أساتذتكم الذين حذبوا عليكم هذه المدة: (هذا جنائي وخياره فيه...) وتقبلوا أنتم وجميع الشباب تحيات.

افتتاحية مجلة النجف^(١)

تلك أمنية ملحة راودت طلاب (كلية الفقه) الأعزاء من أول سنة من نشأتها هي أن يصدرُوا صحيفة دورية يملكون زمامها ويتمكنون من توجيهها الوجهة التي يولّونها، لتعبّر عن مشاعرهم الإسلامية ونشاطاتهم العلمية وأهدافهم الإصلاحية.

وقد سبق لطلاب (كلية منتدى النشر) الماضية سلف (كلية الفقه) أن أصدرُوا في سنتين مجلتهم المحتجة (البذرة) تلك المجلة الطلابية الخفيفة الظل النشطة، وكان مديرها المسؤول الأستاذ هادي فياض. فكانت خير لسان ناطق يومئذ عن مشاعرهم ونشاطاتهم وأهدافهم، نالت توفيقاً وثناءً بالغاً من قرائها.

وكان هذا السبق الموفق حافزاً لإثارة رغبة طلاب كلية اليوم أن يتعهدوها (شجرة) نمت بعد تلك (البذرة) التي غرسها طلاب كلية أمس وما كان لهم إلا أن يتفاءلوا مرة أخرى في نهضتهم الجديدة وهم أوسع أفقاً وأكثر عدّة وعدداً.

وما كان عليهم لو يختارون مجلة (النجف) مضماراً لهذا السباق، ومديرها المسؤول هو نفس مدير (مجلة البذرة). وما كان من الأستاذ الفياض إلا أن يفتح صدر (النجف) لهذه الطليعة المؤمنة، فيمكنهم من القيام بتحريرها اعتزازاً بهذه الحركة المباركة وتشجيعاً لهذه النهضة الميمونة المعول عليها لبناء صرح سامق للعلم وإشادة مجتمع قويم للدين. أيها الطلاب الأعزاء:

نحن اليوم في قمة الصراع العقائدي والفكري الذي يستهدف فيه القضاء على البقية الباقية من الإسلام. وكل مسلم مؤمن برسالة الدين الإسلامي لابد أن يشعر

(١) مجلة النجف السنة الخامسة العدد الأول جمادى الأولى / ١٣٨٢ - تشرين الأول / ١٩٦٢.

شعوراً عميقاً بأن عليه واجباً ثقيلاً لا ينوء فيه إلا الأبطال المجاهدون من الرجال. وأنتم - أيها الشباب الناهض من منتسبي كلية الفقه - في الطليعة من الشعاعين بضرورة التضحية في سبيل رسالة الإسلام. والذي أعتقده ويعتقده كل من يرى كلية الفقه إن هذا الشعور النبيل هو الذي دعاكم إلى الانخراط في هذا المعهد الناشئ استعداداً للدخول في معترك هذه الدعوة الخيرة التي تستهدف نشر الفضيلة وتكوين خلق إسلامي رصين.

وما أحوج المجتمع الإسلامي إلى طائفة مجاهدة مؤمنة تأخذ بيده إلى الصراط المستقيم من تعليمات الدين الحنيف ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١).

أخذ الله بناصركم لإعلاء كلمة الله في الأرض إنه خير مسؤول وهو الموفق للصواب.

يوميات جريدة الهاتف^(١)

أكتفي بالظاهرة من حياة الناس، فأستريح إلى ابتسامة الجليس، وأقتنع بمداينة المجتاز في الطريق، وألتذ بمفاكهة القرين، ثم أروح - كما تشاء لي عزلتي - مستريح البال من التفكير بأخلاق المجتمع وحياته وأنقلب إلى أشغالي الخاصة لا يهيمن عليّ الجزع من المحيط.

أما اليوميات فالكتاب الاجتماعي - كما يقول عنه صاحبه - الذي استمالني إلى ما فيه من لذة النقد وفكاهة الأسلوب ودقة التصوير فحملني على مطالعته بشوق، حتى عرفت منه وأنا أشعر بتبدل في سذاجتي ونظري إلى الناس ورحت متبرماً بما حولي من محيط وألمس عن كتب مغازي بعض العادات ودخائل السرائر فنغص عليّ كثيراً من عيشي وراحتي!

هكذا حدثني بعض من أعرفه بسلامة النفس وطهارة الضمير، وأكبر الظن أن إعجابه بالمؤلف وأسلوبه هو الذي فتح من قلبه باباً واسعاً لولوج أفكار الكتاب؛ وجعل من نفسه آلة حساسة تهتز لموجات صوت المؤلف الخارج من أعماق القلب أو عذبات اللسان أحياناً. وهذا أول ذنوب الكتاب - إن صحّ هذا التعبير - وأظن صاحبه سيقول: يا حبذا هذا الذنب! وهل تؤلف الكتب إلا لهذا الذنب؟!

أما أنا فأشاطر هذا الصديق الذي أصبح ضحية الهموم - فيما أظن - بالإعجاب بهذا الكتاب الذي جمع بين دفتيه صوراً غريبة صور الاجتماع، وألواناً متضاربة من ألوان الحياة وقد استطاع المؤلف ببراعته أن يقتنصها من عرض الحوادث؛ وينتزهها من

(١) مجلة المصباح السنة الأولى المجلد الثاني الجزء الثاني والثالث ١٣٥٤ - ١٩٣٦.

الفرص السائحة في أيامه ولياليه، في أوقات شغله وفراغه.

إن نظريات علم الاجتماع على الأكثر نظريات جافة أو دقيقة، لأنها قواعد عامة عملية؛ يستدعي فهمها وتذوقها كثيراً من التجارب والتطبيق على الحوادث الشخصية تطبيقاً دقيقاً، وهذا الكتاب إذا كان اجتماعياً - وهو كذلك في جملته - فهو تطبيقات عملية مباشرة، قد تلمس من بينها حقيقة لذلك وتفهمها من طريق التجربة للحوادث التي تكررت لك مثلها وهذا خير ما في الكتاب، وللخيلي براعة فائقة في تناول الحوادث اليومية فيخلق منها ليوميته صورة اجتماعية ذات معنى وفكاهية لذيدة، وبذلك يبعدها عن الابتذال الذي يبدو لأول وهلة.

وتجده في هذا يستعين بالألفاظ العامية الدارجة ليصل إلى أعماق قلبك وليضحك ويسليك كما يريد؛ وهذه عادة كثير من الفكاهيين من كتّاب العصر في الأقطار العربية، حتى أصبح الإنشاء باللغة العامية أو بالمزيج منها ومن الفصحى شعاراً للصحف الفكاهية، ويُعزى ذلك عند بعض الناس إلى قصور لغتنا الفصحى عن أداء هذا النوع من الأدب، وبهذا يحتج من يرى استبدالها بالعامية، وربما يدس بعضهم السم في العسل ليطوّحوا بلغة الدين الإسلامي، وقد فاتهم أن هذا القصور كان من ناحية الناطقين باللغة لا من ناحيتها نفسها.

كن من شئت من علماء اللغة العربية، وجرب نفسك أن تسترسل في كلامك باللغة الفصحى، فلا تقدر عليه بدون التحفظ الشديد والاتكاء بعد ذلك على الألفاظ العامية وجرب نفسك بعد ذلك - إذا أبيت - عند ثورة العاطفة فستجد لسانك مقهوراً بطبيعتك على الذهاب إلى اللغة العامية أو المزيجية. وليس ذلك لأن قيود الفصحى وقواعدها أكثر بكثير من العامية كما قد يظن ونحن نعرف عن العرب آبائنا كيف كانوا لا تستطيع أشداقهم أن تلوك غير الفصيح. بل لأن الفصحى لا تزال لغة القلم فقط،

ولم تصل بعد إلى حد تكون به لغة المنزل والسوق والمحافل، وبعبارة جامعة لم تصر بعد لغة اللسان، كما كانت عند آبائنا، ولا يصح لنا أن نسمي أدباء لغتنا العربية إلا عالمين باللغة لا ناطقين بها وفرق بين الأمرين كثير، ولذلك نحن لا نزال فاقدين مزايا اللغة العربية وخصائصها حتى في كيفية النطق بها، وبالأصح لا نزال بعيدين عن نفس اللغة. وشيء واضح أن الكلمة لا تمتزج بالنفس حق الامتزاج، ويكون لها التأثير على أعماق القلب، حتى يسبقها المعنى إلى الفكر، أو يدخلان مرة واحدة عند سماعها، ولا يحصل هذا إلا بعد أن تكون اللغة كغريزة للسان ينطق بها من غير سبق تحفظ وتأمل فكر، أو فقل: بعد أن يكون الفكر عندما يتصور الألفاظ يتصور المعاني معها كشيء واحد وبالعكس، كما لو نظرت إلى المرأة فتتأمل الصورة معها بنظر واحد كشيء واحد، وعند ذلك ينظر السامع أو المتكلم معنى الكلمة بجلاء من جميع النواحي والخصائص التي تتكفل بها الكلمة بسرعة فائقة، واللفظ مرآة المعنى، فكلمًا كان اللفظ أجلى بطول الممارسة والتدرب عليه كان المعنى أجلى، كما أنه كلما كانت المرأة أجلى كانت الصورة أجلى ونجد ذلك من نفسنا في اللغة العامية أو المزيجة عند المثقفين بالآداب العربية وعلومها.

وهذا هو السر في التجاء الكتّاب الفكاهيين إلى العامية حين يريدون التأثير على العاطفة والوصول إلى أعماق النفس، ففقدنا هذا النوع من الأدب في لغتنا العربية واضعناه، وكان من المحتم على أدبائنا أن ينهجوا بنا غير هذا النهج، وإن كلفهم في مبدأ الأمر جهداً وعناء وقد تكون له برودة ممجوجة، ومن المرجح أنهم ومعهم الناس سيتذوقونه فيملح لهم ويلذ، وتشترك به بعد ذلك الأقطار العربية جميعاً، لا كما هو الآن، فكاهة المصري والسوري لا نجد لهما طعماً ولا لوناً وكذلك العكس، وهذا عجز في اللغة أو عجز فينا كما هو الصحيح.

ويجب أن نعترف للخليلي هنا أنه قلما يلتجئ إلى العامية في فكاوته نعم يتكى عليها اتكاءً، وقد لا تخلو يومية من يومياته من هذا التعكّز، وعسى أن تصلح هذه الحال أدباءنا الفكاهيين وغيرهم فيسدوا إلى اللغة العربية خدمة جلي، والإصلاح الأعظم من هذا وغيره تعميم اللغة الفصحى حتى تكون لغة اللسان بيننا وإصلاح الأقلام من مبادئ هذا الإصلاح الضروري لأبناء الضاد ولغتهم لغة الدين الإسلامي لغة القرآن، فمتى نتنبّه.....

تصدير كتاب المختار الثقفي للشيخ أحمد الدجيلي^(١)

تشرف الكتاب بالمشول أمام سماحة العلامة الجليل الشيخ محمد رضا المظفر معتمد
منتدى النشر، وبعد اطلاعه عليه تفضّل علينا بهذه الكلمة القيمة

لا زلنا نعرف في المختار الثقفي رجلاً لامعاً في تاريخ الثورات، وشجاعاً مدّهاً^(٢)
في الحروب، وخطيباً مصقّعاً^(٣) على المنابر، وسياسياً محنكاً^(٤) في قيادة الناس واستغلال
العواطف. وهو مع كل ذلك شخصية متأرجحة في ألوان العقيدة المذهبية، يُغري
الباحثين بالفحص عنه وعن سرّه، ويدرس نفسيّته وعقيدته، ولا سيما إنه قاد أكبر ثورة
ضد الدولة الأموية باسم الأخذ بثارات الحسين الشهيد قتل العبرة.

والتأريخ لا يسعه أن ينصف مثل هذه الشخصية، فيكشف كل حقيقته للناس، لأن
أعداء آل البيت لا يروق لهم أن يخلص مثل هذا الثائر الجبار من النقد والتهم بما يصح
وما لا يصح، ومحبّو آل البيت من جانب آخر يحرصون كل الحرص على أن يظهر مثل
هذا الأخذ بأعظم ثأر لهم بأسمى المكارم الدينية والأخلاقية، فتبقى لأجل ذلك جانب
جد مغرية من حياة مثل هذا الرجل تحتاج إلى التمهّيص والبحث.

(١) الشيخ أحمد بن الشيخ حسن الدجيلي (١٩٢٦ - ١٩٩٠)، عالم شاعر مؤرّخ متتبّع تخرّج من
كلية الفقه واول الخطابة ثم انصرف إلى التعليم والتربية. له أحلام الشباب، أزهار وأشواك (ط)،
أعلام الأدب من آل الدجيلي، رسالة في الفلسفة عن الخير والشر، حياة المختار (ط).

مصادر الترجمة: أعيان الشيعة ٥٢/٥٧، خطباء المنبر ٣/١٣، شعراء الغري ١/٣٠٢، مشهد
الإمام ٤/١٠٣، معجم المؤلفين ١/٧٤، نقباء البشر ١/٤٢٩، معجم رجال الفكر والأدب ٢/٥٦٧.

(٢) يقصد (المغامر).

(٣) خطيب مصقّع: بليغ، العين ١: ١٢٩.

(٤) صاحب خبرة.

أضف إلى ذلك أنه على الرغم من كونه علوياً في تربيته ونزعتيه وخصماً عنيداً لبني أمية وآل الزبير، وهو الوحيد الذي أخذ بثأر الحسين فشفى صدور شيعته إنه على رغم كل ذلك، فإن خطوط ثورته وتاريخه في العقيدة الصحيحة والفقہ الإسلامي على طريق آل البيت عليهم السلام ليست واضحة كل الوضوح، بل لا تزال منها جوانب غامضة تحتاج إلى التدقيق والتحليل، لا سيما أن التساؤل لا يزال باقياً: من الموجه أو المجيز لحركته الثائرة التي لا تصلح بحال في مذهب الإمامية بدون إجازة الإمام أو رضاه.

فهل ثار بإجازة الإمام زين العابدين عليه السلام؟

ولماذا لم يعلن الإمام ذلك؟

أو لماذا يستغل الإمام انتصاره إن كان عن أمره فيحضر لقيادة الثورة؟

ولكن كل ذلك لم يقع ولم يدل سير الحادثة والتاريخ أنه ينبغي أن يقع.

فهل نرجح أنه لم يكن مجازاً من الإمام بالمعنى الصحيح من الإجازة؟

إذن فهل ثار بإجازة محمد بن الحنفية؟ لأنه - كما يقولون - كيساني العقيدة ولكن ابن الحنفية ليس بذلك الشخص الذي كان يدعي الإمامة حتى يميز مثل هذا العمل الهائل بدون رضا الإمام وقد أريق في آلاف الدماء المسلمة وذهبت كثير من الأموال الطائلة والفرح بوقوع الانتقام من قاتلي الشهيد أبي عبد الله شيء والرضا والإجازة للعمل شيء آخر.

وإذا لم يثبت كل ذلك أو لم يثبت ما يبرره، فكل ما قام به من عمل ليس له وزن صحيح في مذهب آل البيت ليصح أن يعد المختار من الشخصيات المقدسة في تاريخهم. هذا موضع أحد الجوانب الحساسة، بل أهم ما في ثورة المختار الثقفي التي تحتاج إلى درس وعمق في الدرس، لكشف ما أغلق من نفسيته وصحة عمله والالتذاذ بها

قام به من عمل لشفاء الصدور الواغرة^(١) على قتلة شهيد الطف، يدعو - كما قلنا - إلى التشبث بالطريقة الصحيحة لتبرير عمله أو إلى البحث - على الأقل - عما يكشف هذا الغموض.

مضافاً إلى أن معرض ثورته ووقائع حروبه هي في حد ذاتها معرض لذيذ لمحبي الانتقام من الظالمين والمعتدين وتاريخه تاريخ حقبة حساسة من تاريخ أهم العهود الإسلامية تليق بالدرس والعرض والتأليف.

على أن غموض الحوادث التاريخية هو نفسه وحده يثير في نفوس الباحثين الرغبة في التمهيص والتأليف بل يحمل القراء على الاستقصاء وتتبع مجريات^(٢) تلك الحوادث. إن تلك الأمور، بل هذا الأمر الأخير بالخصوص أحد الدوافع - فيما أعتقد - لتأليف هذا الكتاب المفيد الذي أقدمه بين يديك لمؤلفه قرة العين بل الجلدة ما بين العينين الأستاذ الدجيلي، بل لئن دفعة حبه لثورة المختار الذي حمله على الدفاع عنه بكل ما أوتي من قوة فإن الغموض في تاريخه كان هو الحافز الأول والمشجع لاختيار هذا الموضوع الشيق عند الباحثين والكتاب.

وبعد هذا، فإن القارئ له حسابه عند المؤلفين في انتقاء موضوع أبحاثهم والمتنظر من القراء أن تغريهم على المطالعة دراسة أمثال هذه الموضوعات فيستدرجون لاقتناء الكتاب حينما تثار فيهم الرغبة الكامنة لمعرفة غوامض التاريخ.

وإني لأحمد مؤلفنا لباقته في استغلال هذه الناحية من كوامن نفسيات القراء لترويج ما يريد أن يدعو إليه في مؤلفه هذا.

وهذا مؤلف - على صغره - يعطيك درساً جديداً عن حياة المختار يمكنك من

(١) المغتظة.

(٢) جمع (ما جرى) عوملت هذه الجملة معاملة الكلمة المفردة، فجمعت جمع مؤنث سالم.

الاطلاع على أسرار ثورة هذا الرجل الحديدي وحسن نواياه في جهاده وجميل بلائه في حروبه.

وإذا كان الكتاب باكورة^(١) تجربة مؤلفه في النشر، وهو في بواكير عمره المديد إن شاء الله تعالى فإني أتوقع له الانتشار والرواج وإقبال القراء المتعطّشين لمثل هذه البحوث النافعة.

وأسأل الله عز وجل أن يجعل منه مؤلفاً بارعاً - كما جعل منه شاعراً حسّاساً - ليخدم الحق للحق في مؤلفاته المقبلة التي ستكون إن شاء الله في الطليعة من بين الكتب الحديثة.

وأرجو لي وله والتوفيق، إنه ولي التوفيق.

(١) باكورة الشيء: أوله.

تقديم كتاب صور الحياة لضياء سعيد^(١)

في كل موجود نصيب من الجمال يستهوي النفس الحساسة في الأصوات في المناظر والمأكولات في كل ما تحسه النفس وتذوقه، وبإزاء هذا الجمال ما نسفيه بالسماجة أو القبح وهو ما تعافه النفوس وتمجه.

ولكن إذا حاولنا أن نقيس هذا المجال أو ضده بميزان علمي وحد منطقي نجد محاولتنا تذهب ادراج الرياح فانا في الوقت الذي نقرب لتفكيرنا تعريفاً لجمال المرأة - مثلاً - شبيهاً بالتعريف العلمي نجده لا يتفق ومعنى الجمال الذي تفهمه أمة أخرى للمرأة فقد يستهجن الافريقي أبرع الصور ويتذوق أقبحها في ذوقنا وهكذا في جميع محوساتنا من منظورات ومأكولات ومسموعات.

ولماذا لا يكون الجمال الحقيقي هو ما يدركه غيرنا دون ما نحسه نحن؟ على أن أفراد أمة واحدة يختلفون في تذوق الجمال فما هي حقيقة الجمال؟ وعجزاً عن ادراكها - أو لان الأمر الواقع يجب ان نعتقده نحيلة عرفانياً الى الذوق الذي خلقه الله في حواسنا التي يختلف باختلاف الامم بل البيئات بل الافراد وقلما نعرف ذوقاً عالمياً يشترك فيه جميع الناس كالموسيقى - مثلاً - التي يتذوقها الغربي ويستعز بها قد يمجها ذوق العربي كأشد ما يستنكر من الأصوات.

وإذا صح ان الذوق الذي يختلف في الناس هو الحاكم العادل في الجمال فلا حقيقة للجمال وراء ادراك هذا الذوق الخاضع لحكم اختلاف الامم والبيئات بل وللتربية أيضاً فيستطيع العربي منا أن يتذوق ما يتذوقه الغربي - مثلاً - إذا ربي ذوقه في بيئة غربية وبالعكس.. والفنون إذا كانت نشأتها في احضان الذوق كما هي الحقيقة فهي خاضعة لما

(١) مجموعة قصصية صدر لها الطبعة الثانية عام ١٣٨٣ - ١٩٦٤ في النجف المطبعة الحيدرية.

يخضع له الذوق من التربية واختلاف البيئات فليس لها حقيقة علمية وراء هذا الذوق. إذن - وهذي هي النتيجة التي نحاولها - ليس من النقص في أمة من الأمم ألا تستملح في أمة أخرى لها ذوقها الخاص به فتعده من الفنون الجميلة فالعربي الذي لا يتذوق ألوان الحياة الغربية واطوارها لا يصح ان يعد محروماً من الذوق السليم وبالعكس مادام الذوق ليس أمراً حقيقياً يصح أن يعلل ويقع تحت قانون منطقي ثابت حتى نصفه بالسلامة وبضدها وانما لكل أمة ذوقها الخاص السليم عندها الا اذا كان الفرد يقيس في بيئة خاصة ولا يكتسب ذوقها فنسميه بفساد الذوق ولا بأس الا يفسر الا بعدم قبوله للتربية لا اكثر.

والأدب بجميع مناحيه والوانه من تلك الفنون التي يتحكم فيها الذوق بأقصى حدود التحكم فله جماله وله قبحه فلئن اختلفت اطوار الادب العربي في القرون التي تعاقبت عليه فذلك من جراء تقلبات الذوق ومن احتكاك الذوق العربي بأذواق الأمم الاخرى ولا يصح لنا أبداً ان نصف هذا الذوق بسلامته مرة وبفساده أخرى فمنذ كان الادب العربي يتذوق الكلام المسجع فله ذوقه وليس لنا أن نعارضه في ذوقه الا اذا أخلل بأداء المعاني فان هذا الاخلال شيء حقيقي واقعي لا علاقة لحكم الذوق فيه فيجوز لنا أن نأخذ ذريعة للطعن في هذا النوع من الأدب.

واليوم إذا أبى العربي أن يتذوق (أدب القصة) أو هذا الفن الغربي الجديد فلا يحق للغربي أو المستغرب ان يطعن في سلامة ذوقه كما لا يصح لنا ان نطعن في اذواق غيرنا إذا استهجنوا بعض ألوان الادب عندنا وعشاق لون هذا الادب انما عليهم ان يوجدوا الطريق السهل لتربية اذواق ادباء اللغة العربية فاذا أبأها الادب العربي عندئذ فلهم ما يشاؤون في الحكم بفساد ذوقه على شريطة ان يفسروه بعدم قبوله للتربية لا أكثر.

وإنما اليوم - وأمامي هذه الاضمامة من القصص العراقية للأخ الاستاذ (ضياء سعيد) لأقول عنها كلمتي - وإنما اشكر منه قبل كل شيء هذه الثقة بي لا أخشى

على نفسي النقص إذا قلت اني لا اتذوق القصص وان كنت أحب لنفسي ان تتكلف هذا الذوق لئلا اخالف الشعور العام الجديد في القصة ولعله الآن ندم على اختياري للمقدمة، ولو علم من قبل ذلك هذا الذوق الخاص السليم او السقيم لا يصح ان تحكم أنت على أحدهما لما مكنتني من مقدمة كتابه بعد للنشر الى منتدى النشر فمن يضمن عني قلمي الا يحرر كلمته عن الكتاب.

ومع ذلك وليطمئن الاخ المؤلف اني لست محروماً من هذا الذوق كله في أدب القصة وفيما عرضه على ذوقي من كثير من القصص العربية لم أجد فيها الحلاوة التي ذقتها في هذه القصص العراقية ولما كنت أقرأ بعضها في الهاتف الغراء وجميعها في كتابك كنت أجد فيها لذة تحملني على انهاء القصة قراءة بلهفة وشوق واكثر من ذلك فاني أعرف فوائد القصة من الناحية المنطقية التي لا علاقة للذوق فيها، فأعرف انها أداة قوية لنشر الثقافة العامة اذا استخدمت عند من يتذوّقها فيستطيع القصصي ان يخلق في قارئه افكاراً عالية والثقافة التي يريدونها من طريق التسلية بالقصة، واذا كنت قرأت بعض القصص للكتاب فلم أجد فيها لونا ولا طعماً ولا قرأت فيها نفس كاتبها، فاني قرأت في اكثر قصصك - أيها الأخ - هذه الروح القوية التي يحملها قلمك بل قلبك الطاهر المغمور بالسلامة واللطف والحنان والايهان.

ولا اكتمك ولا اكتم القارئ - ان أكثر ما أعجبني من هذه القصص هذه الروح التي تذوب في خلال سطورها فتظهر مرة قوية جبارة واخرى رقيقة حنونة وثالثة مؤمنة بالله قانعة ورابعة متبرمة بالأخلاق الفاسدة وببهرجة المدنية وخامسة ساخرة بالأوهام والضلالات ولعلي واثق من القول بأنك عرفت كيف تستخدم هذه الروح لإفراغ هذه القصة وبالأصح عرفت كيف تستخدم القصة لإفراغ هذه الروح.

وإن طالبني القارئ برأيي في اسلوب هذا المؤلف الإنساني فيكفي ان ارجعه الى اي قصة منه فهي تحدّثه عن اسلوب جديد وبيان بليغ له حلاوته وبراعته وحينئذ يستطيع ان

اقتنص منه الرأي قبل اعطائه رأيي فأحصل على موافقته كما أريد، وقبل كل شيء اريده ان يعلم اني لما قرأت لأول مرة إحدى قصصه في الهاتف الغراء داخلني بعض ما يداخل الناس عندما يقرؤون لأشخاص لم يعهد لهم النشر والتأليف ولم أكن منفرداً في تحمل هذا الريب أو الذنب ولكن استطاع الاستاذ (ضياء سعيد) مؤلف هذا الكتاب بظرف قصير أن يثبت لي ولغيري كفاءته الشخصية وبراعته الفنية فاشغل كرسياً شاغراً من كراسي الادباء أو (أدباء القصة) بالأحرى وفاز بإعجاب الأدباء وتقديرهم وإذعانهم بعقريته فليسمح لي أن أهنته بهذا الفوز والنجاح ولقد ادعى كثير من القصصين انهم نهجوا في قصصهم نهج المذهب الواقعي فوصفوا لنا الحياة الاجتماعية على ما هي عليه ولكن هناك فرق بين من يعرض علينا العاطفة صحيحة واضحة لا غباوة فيها يقنعنا بصحته ويقفنا بحسن نيته وبين من يعرض لنا ملثثة سقيمة فنحس ان في نفس الأديب غرضاً وفي طبعه زيفاً وفي ذوقه سقماً فالأديب القصصي الواقعي المخلص الصحيح العقل يكون مرشداً أكثر من المرشدين وواعظاً دونه الوعاظ حينما يعرض للرديلة فيرسمها الى الشر فيصوره تصويراً أميناً، فكتابك هذا يا صديقي جاء كما اريد وهو آية في الابداع فهنيئاً لك ما اخرجته للناس من أدب وفن وتقبل مني تحية طيبة مباركة ولم يبق الا ان اتمنى لك ان تستمر في خطتك الادبية هذه لتتحف قراءك بين الفينة والاخرى بما يسد الفراغ الموجود في القصة العراقية التي اتمنى لها الذبوع لتستغل لنشر الثقافة العامة والاخلاق الفاضلة وأعتقد ان قصصك مما يساعد على تربية الاذواق التي لا تألف هذا اللون من الأدب ولعلي أنا منهم.

رشحات الفيوض^(١)

فن العروض - على ما أعرفه - فنّ ضيقة دائرته محدودة مسائله أبدع فيه واضعه (الخليل) رحمه الله فأنهاه إلى حده المحدود فلم تغفله درّة يلتقطها سواه ولم يخطئه تنقيبه لؤلؤة يغوص عليها غيره إلاّ يسيراً ليس له ذلك الاهتمام وقد استوفاه تلاميذه وأتباعه فلا مجال لأي مؤلف بعد هذا أن يضيف حلقة إلى سلسلته.

ولكن النقص الذي يستدرك فيما رأيته من التأليف الموضوعه لهذا الفن حسن الأسلوب وجمال الذوق في الترتيب والتبويب وتقريبه إلى طالبيه بوضوح العبارة.

ولما اتفق لي أن أقف وقفة المستعجل على (رشحات) قلم صديقنا الأديب الفاضل (الجواهري) في كتابه هذا واستشرف على رياضته الزاهرة الياقة أكبرت جميل ذوقه الرائع وروعة أسلوبه الطريّ ورأيته قد حاول أن يسد ذلك النقص في (رشحات فيوضه) فكانت محاولته الموفّقة وكان عمله المشكور لأبناء الضاد ومتدوّقي هذا الفن.

ولقد جاء كما شئت له عبقريته وهّمته يسد فراغاً من بين كتب هذا الفن ليس بالقليل فكان جديراً بالإعجاب والتقدير وكان جديراً بالافتناء وكان مقرباً لمسافة رواد علم العروض وساداً لحاجتهم.

فيا بورك بمؤلفه الفاضل المهذب ووفّق لاستمراره في أعماله إلى حيث تتطلّبه همّته الشّماء من التأليف والإبداع.

١٣٥٣/٦/٢ هـ

(١) تقديم كتاب رشحات الفيوض إلى علم العروض، تأليف الشيخ علي مير أحمد الجواهري، الطبعة الأولى مطبعة أهل البيت ١٤١١ / ١٣٧٠ قم.

شعراء العراق^(١)

إن المترجم الذي يريد أن يجعل موضوعه رجال وطن خاص عليه ان يراعي ناحية ولادة اولئك الرجال ونشأتهم كل المراعاة ان يعطيها ما تستحق ولكن مؤلف كتاب (شعراء العراق) أبى إلا أن يقول في مقدمة الجزء الأول «قد راعيت هذه الناحية بعض المراعاة واعطيتهما ما تستحق» فكيف راعاها بعض المراعاة ثم اعطاها ما تستحق؟ وهنا ستلمع في ذهنك خاطرة ان موضوع كلمتي هو هذا الكتاب! ولا شك انك أصبت في حدسك.

وبإذا تحصل نسبة المرء إلى الوطن؟

يفرض عليك مؤلف (شعراء العراق) ألا تنسى أن التربية وحدها كافية لأن يستدل بها على وطنية الشاعر. اذن فالذي تربى في مدارس انكلترا عالم انكليزي وفي اميركا عالم امريكي وان كان من زنوج افريقيا، فإذا أردنا أن نترجم علماء وادباء الانكليز

(١) تقديم كتاب شعراء العراق تأليف صاحب (عبد الصاحب)، مجلة الاعتدال النجفية العدد التاسع السنة الخامسة شوال/ ١٣٥٨ - تشرين الثاني ١٩٣٩ ص ٥١١.

وترجمة المؤلف عبد الصاحب عمران الدجيلي (١٩١٣ - ١٩٩٥): باحث، أديب، مؤرخ، شاعر. ولد في النجف ونشأ على والده وقرأ مقدّماته على أساتذة عصره وتوسّع في الأدب وتاريخه ونشر مقالاته الأدبية في الصحف العربية وعيّن بالمدراس النجفية أستاذاً للأدب العربي وأحيل على التقاعد. له من المطبوع: شعراء العصور ١ - ٣، شعراء العراق، أعلام العرب في العلوم والفنون ١ - ٣، الشعوبية وشعرائها، أنسام وأعاصير (ديوان شعر)، ديوان دعبل الخزاعي. توفي في النجف خنقاً من بعض اللصوص بداره يوم ١٢ شعبان ١٤١٥ هـ.

مصادر ترجمته: الأعلام ٤/ ١٠، شعراء الغري ٥/ ٤٣٦، معجم الأدباء ٣/ ٤٠٥، ماضي النجف ٢/ ٢٧٩، الذريعة ١٤/ ١٩٤، ١٩٩، معجم المؤلفين ٢/ ٢٨١، نقيب البشر ١/ ٣٥٢.

لابد وان نترجم كل من تربى في جامعاتها ومدارسها؛ وتعد في عصور الخلافة العباسية هي الجامعة الكبرى التي تلتقي فيها جميع ثقافات الامم الإسلامية، فاكثر شعراء البلاد العرب منهم والمستعربون هم شعراء العراق على هذا الفرض! فهل هذا صحيح؟ لا شك في صحة هذا عند المؤلف ” حيث تربى الشخص اعتبر ذلك وطنا صحيحاً له، بقي علينا أن نعرف رأي القارئ في ذلك!

وأكبر الظن ان حب مؤلفنا لوطنه - وللعاطفة اثر كبير لا يسلم منه اكثر المؤرخين - جعل لموضوع كتاب اوسع حد ممكن، حيث يدخل في اكثر شعراء اللغة العربية فيكسب هذه المفخرة للعراق، عل أن مفاخرة العراق بشعرائه اغنى له من اضافة ما ليس له.

مؤلف الكتاب

هو الأديب اللامع صاحب الدجيلي وإذا ذكرته فإني أذكره بإعجاب، إن هذا الشاب شغوف بالأدب منذ نعومة (أظفاره) ولقد قضى شرح شبابه باحثاً ومنقّباً الكتب الأدبية يبحث ويستفيد لاهياً عن كل ما يشغل الشباب فاستطاع ان يرتب من بين مبعثراتها كتابه الذي أسماه (شعراء العصور) في ثلاثة أجزاء صغار، ونشره قبل سنوات، فكان أنموذجاً لجهود الشباب مكللاً بالنجاح، ومنسقاً بذوقه الادبي الرقيق، يرجع اليه الباحث المتبع، مع فكرة صغيرة عن كل شاعر يستريح اليها المتأدب فتغنيه عن اضافة الوقت في مطولات الكتب.

وفي عقيدتي أنه في هذا الجزء الأول الذي ظهر من (شعراء العراق) أكثر توفيقاً وأبعد نظراً وأغزر مادة، وسيأخذ له مكاناً مرموقاً في المكتبة العربية إذا تمت اجزاؤه الثلاثة ونرجو ان يتوفق أكثر فيتفوق في الجزأين الآخرين.

وأنت تراه في هذا الجزء الذي يبحث فيه عن شعراء العراق في العصر الجاهلي والإسلامي والعباسي ويقع في (١٣٦) صفحة ويترجم (٥٣) شاعراً من فحول الشعراء أول ما يذكر اسم الشاعر بحروف بارزة ويضع على يساره تأريخ المولد والوفاة، ثم يأخذ في ترجمته في ثلاث مراحل: في الأولى يعطيك نبذة ناضجة عن تأريخ حياته وفي الثانية يتكلم عن منزلته الأدبية وفي الثالثة يمر بك على بعض المختار من شعره.

وهكذا يسير على هذه الخطة المحمودة في كل هذا الجزء؛ فيجمع مميزات الشاعر في صفحة أو صفحتين يطمئن إليها الأديب. ولا شك أنه مجهود شاق يقدر عليه وإذا كان هذا مجهود عصارة الشباب فنحن ننتظر (مع المعجبين بنوغه) روحاً أدبياً في مستقبل حكمة الكهولة يجعله في مصاف نوابغ الأدب في العراق. رزقه الله طول الحياة والتفرغ لخدمة الأدب والتأليف.

مقدمة كتاب العقد المنير^(١)

من النواحي الفقهية التي ما زالت تشغل بال الفقهاء، وتدخل في صميم استنباط الاحكام الشرعية، هي مسائل الموازين، والمقاييس، والنقود، والمقادير، لكثير من الاشياء التي وقعت موضوعات لكثير من الاحكام في الشرع الإسلامي المقدس وماتزال موضع ابتلاء عامة الناس في حياتهم الدينية.

ومن بينها - ولعلها في القمة منها - مقادير النقود من الدراهم والدنانير التي ورد ذكرها في كثير من الأحاديث، وهي موضوعات لكثير من الاحكام، في جملة من الفروع الفقهية.

ولا تزال هذه المقادير - ومنها النقود بالخصوص - موضع شك، وموضع رد وبدل، وبحث وكلام، عند الفقهاء - وهي في الحقيقة - من المشاكل العويصة في الفقه الإسلامي. وهذا ما جعلها من الموضوعات التي تحتاج إلى الاستنباط والاجتهاد، أي من الموضوعات الاجتهادية التي يجب الرجوع فيها إلى المجتهد.

وحقيق بكل واحد من هذه الموضوعات أن ينفرد بالبحث، استقصاء لجميع نواحي الكلام فيها، ولجميع أحكامها، كما وضعت بعض الرسائل في الموازين والمقاييس، من قبل بعض العلماء ولما كانت هذه المقدمة موضوعاً تمهيداً لخصوص هذا الكتاب الجليل فإن الجدير بي أن نتحدث عن مشكلة ”النقود“ بالخصوص.

والذي أعتقد أنه سر المشكلة فيها يكمن في أمرين:

(١) مقدمة كتاب العقد المنير في تحقيق ما يتعلق بالدراهم والدنانير تأليف السيد موسى الحسيني المازندراني ج ١ ط ١٣٨٢ مكتبة الصدوق طهران.

١. إن النقود في العصر الإسلامي الأول التي جاء ذكرها في الأحاديث، ألغى التداول بها من أقدم العصور الإسلامية، وبعضها ألغى منها حتى أسماؤها ومصطلحاتها، فبقيت تاريخاً محاطاً بكثير من الشك والغموض، ولم نعد نفهم حق الفهم تلك المصطلحات كما كان يفهمها من خوطب بها في الأحاديث عنها في تلك العصور، كالدرهم البغلي الذي جاء ذكره في أحاديث مقدار المعفو عنه من الدم في الصلاة، وغيره كثير.

إن تلك النقود - حتى في العصر الإسلامي الأول - كانت مختلفة كل الاختلاف في مقاديرها من ناحية المساحة، والحجم، والوزن، والقيمة، وكل واحدة من هذه النواحي موضع تعلق لحكم من الأحكام المختلفة. وهذا ما يقضي علينا أن نضبطها ضبطاً دقيقاً يزيل التردد فيها والشك حد الامكان.

والفقهاء - رضوان الله عليهم - لم يألوا جهداً في بحث هذه النواحي وغيرها، ولهم آراء مختلفة فيها وتوجيهات متعددة، ولكن لاتزال هذه الابحاث مبعثرة في غضون الكتب الفقهية، متشتتة في جميع أبواب الفقه، غير منقحة التنقيح الكافي الذي يركن إليه. فكان - والحال هذه - مما يعسر جداً على الفقيه الباحث الذي يريد أن يلم بجميع أطراف هذه الموضوعات أن يتيسر له الرجوع الى جميع ما كتب عنها واستيفاء البحث عنها، لأن هذا ما يتطلب جهداً مضنياً، ووقتاً طويلاً، وفراغاً واسعاً لا يعرف مداه الا من ابتلي بهذه المسائل وتحراها للعثور على مظان البحث عنها في مواضعها المتفرقة في الكتب الفقهية الاستدلالية غير المفهرسة ولا المعنونة، ولا المرقمة، لاسيما المطبوعة على الحجر.

ولو شك أن يتيسر هذه الموضوعات بجمع متفرقاتها في كتاب واحد من أهم ما ينبغي أن يعني به الباحثون، وهو ما يسد فراغاً كبيراً في كتبنا الفقهية.

وموضوع ”النقود“ بالخصوص لم توضع فيه رسالة خاصة مستقلة فيما أعلم.
وقد كنت أنا من الناس الذين تشغل بالهم هذه النواحي ويتمنون ان تتهيأ الفرصة
لتتبع مسائلها، وتوضيحها، واستيفاء حقها من البحث والتنقيب والتحقيق، وقد
شكرت الله تعالى على ان يتهيأ في هذا العصر باحث قدير وعالم متبّع يُعنى بهذه الامور
فينهض مشمراً عن ساعد الجد بالبحث عنها، والتأليف فيها كالأخ العلامة الاجل
حجة الإسلام والمسلمين الحاج السيد موسى المازندراني أيده الله تعالى، وأيد به الدين
الإسلامي الحنيف.

فإنه - حفظه الله تعالى - قد انبرى الى موضوع ”النقود“ في مبكر من تاريخ حياته
العلمية يوم كان مشغولاً بالتحصيل في الحوزة العلمية بالنجف الاشرف، فوضع كتاباً
طريفاً وافياً بكل ما يخص موضوع ”النقود“ أدى جهده العلمي يومئذ الحق المطلوب
من مثله وأكثر، حتى كان موضع تقدير العلماء وثنائهم الجميل.

وكان قد نشر هذا الكتاب باسم ”العقد المنير في تحقيق ما يتعلق بالدراهم والدنانير“
في النجف الاشرف وطبع في المطبعة العلمية سنة ١٣٦١ هـ أي قبل تسعة عشر عاماً
وأضاف له خاتمة في المقاييس والموازين هي في المقاييس العلمية ذات وزن كبير.

والشيء المسرّحاً أن ينبري مؤلفه - حفظه الله - مرة أخرى إلى هذا الموضوع بعد
ان اكتملت عنده وسائل البحث والتنقيب عن النقود القديمة والحديثة، فأعاد النظر
في كتابه، وقتله بحثاً ودرساً، ووسعه الى النحو الذي يتطلبه المنهج العلمي الدقيق،
والوسائل البحثية الحديثة عن تاريخ النقود، فأصبح الكتاب كتباً ثلاثة أكثر اتقاناً،
وأغزر مادة، وأنظم فكرة، وأبعد أثراً، وأنفع فائدة شكر الله تعالى مساعيه، وجعل
مستقبله خيراً من ماضيه.

وإني لو اثنى ان هذا الكتاب الجليل، سيسد فراغاً كبيراً في المكتبة الفقهية الإسلامية،

ويمهد لطلاب العلم الوصول الى الغاية بأقرب سبيل، ويوفر عليهم وقتاً كثيراً كان يضيع سُدى في التفتيش في بطون الكتب ومصادر البحث عن هذا الموضوع، في المواضيع المتفرقة المترامية الأطراف.

ومن الطبيعي ان يكون لهذا الكتاب شأنه الذي يستحقه من التقدير، ونصيبه الوافر من الانتشار والذيع والاستفادة مدّ الله تعالى في عمر مؤلفه الشريف ليحقق مشروعات أخرى في التأليف تسد فراغات أخرى لاتزال تنتظر من ينبري لها من المجاهدين ذوي الكفايات، واللياقات العلمية والفكرية والله تعالى هو الموفق المسدد لكل صواب.

٢ شهر رمضان المبارك ١٣٨٠ هـ

العاصمة الدينية الكبرى

تقديم كتاب مشهد الإمام مؤلفه محمد علي جعفر التميمي^(١)

لا شك أن النشاط الفكري الذي حظيت به هذه البلدة العلمية من عهود بعيدة، مضافاً الى مالها من نشاط سياسي وخلق اجتماعي ونزعة حربية، مضافاً ذلك كله الى مركزها الديني من جهة كونها عتبة مقدسة تضم مرقد سيد الكونين أمير المؤمنين عليه السلام هي مهوى أفئدة ملايين المسلمين وموضوع عناية ملوكهم وأمرائهم من جهة كونها عاصمة دينية هي مرجع تقليد طائفة كبيرة من المسلمين، كل ذلك جعل تأريخها حافلاً بكثير من المزايا التي تغري المؤرخين والمتعطين للبحث بأن يتتبعوا الزوايا المهمة والآثار المبعثرة والخبايا المنسية.

ولكن بقدر ما لهذه البلدة من صور لامعة في تأريخها العلمي يبتدئ من عهد الشيخ الطوسي العظيم المتوفى سنة ٤٦٠هـ، قد منيت - وبالأأسف - بالغموض في سلسلة حوادثها التاريخية والعلمية بسبب حرمانها ممن يسجل تأريخها وتأريخ رجالها في تلك العصور الغابرة، ولعل السر ان حركتها الثقافية كانت ولا تزال منصرفة بأكملها الى التخصص بالفقه الإسلامي وما يتصل به، فلم يكن من العلماء ولا الادباء على كثرتهم طيلة تأريخها المجيد من أهتم بهذه الناحية - أعني الناحية التاريخية - فلم يُسجل من تأريخ هذه العاصمة الدينية شيء يستحق الذكر والعناية، وبقيت فيه مجالات البحث

(١) مقدمة كتاب مشهد الإمام مؤلفه محمد علي جعفر التميمي وهو بأربعة أجزاء. بحث في الأول منها تاريخ تأسيس النجف، عمارة المشهد العلوي وفي بقية الأجزاء اهتم بترجمة أعلام الأسر النجفية وميزته أنه استقى المعلومات مما هيأ له رجال كل أسرة من تاريخها طبع في المطبعة الحيدرية عام ١٩٥٥.

لا تزال بكرة لم تتوفر له المصادر المبسطة غير ما هو مبعر في الزوايا وبطون الكتب، ومخبيات الآثار والمجاميع وهذا ما يحز في نفس كل من يتطلع الى الماضي ليفتش عن حوادثه وكل من يهيمه أن يسجل سلسلة تأريخها الحافل بجلال الآثار والاعمال.

وهنا يتجلى مقدار التبعة الملقاة على عاتق من يقحم نفسه في تسجيل تأريخ هذه البلدة، كما يتجلى ما يلاقه من عقبات كأداء في طريقه قد تحمل أقوى الناس شكيمة على الهزيمة من هذا الميدان. ومن خرج ظافراً ولو بعض الظفر في تسجيل ما قصر فيه التأريخ القديم فانه يستحق التقدير والاعجاب بل الشكر. وفي هذه العصور الاخيرة عني جماعة بتدارك ما فات السابقين من تأريخ هذه العاصمة الدينية، ولم تظفر المطابع بتناجهم على رغم الحاجة الى مثله، وكأنهم درجوا على نهج السابقين أيضاً في اهمال هذا الواجب المقدس عدا الاستاذ الجليل الشيخ جعفر محبوبة في الجزء الاول من كتابه (ماضي النجف وحاضرها) الذي لم يفتني ان اقول كلمتي عنه حين صدوره، وقد نشرت في مجلة "الاعتدال" الغراء المحتجة.

وأراني الآن متلهفاً لصدور هذا الكتاب الثاني عن تأريخ النجف الذي مكنتني الاستاذ "التميمي" من الاطلاع على الجزء الاول منه لأقدمه الى القراء وكان أول ما واجهني واعجبني منه تحريره لدقائق التأريخ عن مرقد الامام عليه السلام وان كان فيه من التكرار ما أرجو ان ينخله منه عند تجديد طبعه للمرة الثانية وليست هي بالبعيدة عليه.

وانه ليستشف القارئ من صفحاته مقدار الجهد المبذول من المؤلف والصبر على التبع لالتقاط النواذر من تأريخ هذا المرقد المقدس، ولم شعث ما تفرق في الكتب والصحائف المطوية والصحف المنشورة، وألف بين متفرقات ما استوعبته الآثار. فجاء في مجموعهِ مجهوداً مشكوراً وعملاً محموداً وسجلاً خالداً لكثير من المطويات المعرضة للإهمال والنسيان، شكر الله سعيه وأجزل ثوابه وجعل عمله خالصاً لوجهه الكريم،

وحقيق بمن تمسك بالعروة الوثقى من خدمة سيد الكونين ورئيس الموحدين وامام
الالهيين، ان يستلهم من روحه الجبارة، ونفسه العظيمة الطاهرة المؤمنة، ما يجعل منه
عاشقاً للحقيقة المجردة، وملهماً يرنو الى نور الحق الابلج.

وحبذا لو ينال هذا الكتاب الحظوة لدى كل عالم ومتعلم وأرجو أن يسد الفراغ
الذي نحس به في هذا الباب، ويتدارك ما فات الاولين من القيام بهذا الواجب وجدير
بأن يقتنيه كل من يتطلع الى تأريخ هذا البلد المقدس وفقه الله تعالى الى اكماله، وأرجو
لكتابه الرواج والانتشار ليعم الانتفاع به ومن الله تعالى نستمد التأييد والتسديد.

١٧ جمادى الاولى سنة ١٣٧٢ هـ

حفاظ القبائل العربية على تقاليدها^(١)

أرأيت تلك الجماعات الحرة على ضفاف الرافدين (الجماعات بكسر الجيم في لغة القرويين بالعراق) أم رأيت مثالا في بلادنا العربية البدوية؟
 أرأيته كيف تمرح بجوها الطليق الفاتن، وتعيش في استقلالها الفكري والاجتماعي، وتتمتع في سداجة عيشها وخشونته؟
 لعلك كنت رأيته، فأصبح ممن افتتن بجمال نفوسها او كرم طباعها وسمو اخلاقها ورباطة جأشها وقوة قلوبها وابائها على الخسف والضييم!
 أفي ذلك من سر غير ان تلکم الحرية الطليقة والعيش الساذج الخشن يبعثان على مثل هذه التربية العالية، تلك التربية التي حاولتها المدنية الحديثة المزيفة من طريق آخر فأخفقت وجرها الترف إلى الخنوع والنجوع والضعف والخور (فان الترف....).
 نعم! وكم في تلك القبائل الحرة من صفات اخرى تشاهد فيها صلابة عودها

(١) عنوان التصدير لكتاب القضاء العشائري تأليف فريق المزهرة الفرعون حيث أشاد بالتصدير بقوله: هبطت علينا من وادي الغري ينبوع العلم وعاصمة الأدب وباب حطة الله ومنبع الفقه الإسلامي رسالة من الأديب الفاضل الأستاذ العلامة الشيخ محمد رضا المظفر معتمد منتدى النشر في النجف الأشرف يقرّط فيها كتابنا (القضاء العشائري) وحيث أن الرسالة ذات مغزى أكثر من أن تكن تقریضاً لذلك فإننا نثبتهام مفخرة للقضاء العشائري ولتكون مشكاة يُستضاء بها ونوراً يُهتدي على ضوءها.

أما المؤلف المرحوم الشيخ فريق (١٨٩٠ - ١٩٦٥) وهو أحد زعماء العشائر العراقية ممن ساهم في ثورة العشرين وله مواقف وطنية مشهودة انتخب عضواً في مجلس النواب في دورتين ١٩٣٥ و ١٩٣٩ وله كذلك كتاب الحقائق الناصعة في الثورة العراقية ١٩٢٠. من مصادر ترجمته معجم المؤلفين ٢/ ٤٩٢، معجم الادباء د. كامل الجبوري ٣/ ٤٤٣.

وقوتها المعنوية منبعثة من تلکم الحرية والبساطة، هي استمساکها بنسبها القبلي ومبالغتها في المحافظة على تسلسله الى جدها الاعلى الذي تحت راية اسمه تجتمع كلمة القبيلة وتتوحد صفوفها، وبه فخرها وعزها.

هذا هو طبع العربي الصريح وطابعه الذي ليس لأمة اخرى من أمم الأرض وهو دليل نقاوة دم الوشيح من أرومته - فيرى في نسبه الصراح عنوان مجده الخالد وسر فخره التليد ومغزى عزه القومي، بل يرى فيه كل معنى عرويته التي تجتمع حدودها في نسبه ومجتمع نسبه في حدودها، ولا يرى اقبح من ان يكون المرء أعجميا لا يتصل له نسب معروف ولا قبيلة تذكر فتشكره.

ولا تعجب بعد هذا إذا رأيت القبائل العربية قد اتخذت لها طابعاً خاصاً من عاداتها القديمة وتقاليدها الموروثة من الآباء والأجداد، فتشتق الحفاظ عليها من المحافظة على نهجها وتجدها فيها أن فيها مفخرة القبيلة واعتصامها وسر جامعيتها وكيانها، فتستعصي على كل من يحاول ابتزازها هذا التراث الخالد بخلود القبيلة الخالدة بخلوده، حتى إن الباحث قد يرجع به تاريخ بعض العادات والتقاليد في القبائل العربية الى ما قبل الإسلام ذلك الإسلام الذي جاء منها واليها، فيرى ان بعضها قد تمنع على تعاليم الإسلام ان يتأثر بها كل التأثير خصوصاً في أحوال القبائل الشخصية ونظمها الاجتماعية في علائق كل قبيلة بأخرى وعلائق افراد القبيلة الواحدة، تلك الاحوال والنظم التي تسمى بالأحكام العشائرية وتعطي بالأخير اسم (قانون العشائر)، فيفوز هذا القانون منتصراً في هذا العصر عصر التطور والتجدد في كل مناحي الحياة.

ولا يغيب عليك أن تعلم أن من نوع هذه المناعة والحفاظ هذا المؤلف القيم الذي بين أيدينا والذي قام به مستسهلاً كل صعب الزعيم الفاضل الشيخ فريق المزهري، وقد رأى أن التطور قد دبّ في محيط العشيرة العراقية، وأخذت تستسيغ التحضر الذي قد

يقضي على الحفاظ العربي في تقاليده، فيجري إلى التسهل أيضاً في نسب القبيلة الذي يراه العربي - كما قدمنا - هو كل معنى عروبه التي يعتز بها ويفتخر بل هو كل ما في نفسه من معان سامية وأخلاق عالية.

فأراد المؤلف أن يجمع هذه التقاليد والعادات لقبائل العراق في كتاب يبقى للأجيال المقبلة، لا للتاريخ فقط ولكن ليحتفظ بتراث تلك القبائل ألا تنساه. حتى تبقى في مناعتها مستعصية على الحضارة الغربية (الزائفة اليوم وبعد اليوم) التي هاجمتها وحاولت أو تحاول أن تأخذ بأيدي أولئك العرب الأباة المتمتعين بهذه الحرية الواسعة إلى سور من التحضر الضيق في جوه ومحيطه.

ولعل المؤلف الزعيم أقدر الناس على تأليف هذه المجموعة النادرة في قيمتها التاريخية، وهو - سدد الله خطاه - أضاف إلى البراعة والبراعة علماً جماً بشؤون العشائر العراقية، وكفى أنه أجدر زعمائه الأفاضل الواقفين على سبر اغوارها.

ويكفي أن يكون هذا الكتاب بذرة ومادة لكل من أراد أن يطرق هذا الموضوع البكر الذي افتتح بابه وافتض بكارته، وهو أول زعيم فيما أعرف من زعماء القبائل اشتغل في التأليف خصوصاً في موضوع خطير كهذا ونرجو أن يوفق في باقي مؤلفاته كتوقيفه في هذا الكتاب الذي حاز فيه فضيلة الابتكار والتقدم لا عدم الأدب أمثاله.

النجف الأشرف، معتمد منتدى النشر، ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٦٠

على هامش كتاب ماضي النجف وحاضرها

... تعرف مؤلف كتاب (ماضي النجف وحاضرها)^(١) الأستاذ الشيخ جعفر محبوبه عند أول اتصالك به، بلباقته وبراعته في استخراج ننف التاريخ عن النجف، ومن بين الكتب الكثيرة الأوراق المبعثرة هنا هناك شغف يقتل وقته الثمين في استخراج كلمة واحدة قد لا تستحق في نظرك بعض هذا العناء، ولكنه نفسه يعرف قيمتها كدرة لا تقدر بثمن، فينظمها إلى أختها، حتى استطاع أن يطلع علينا بكتابه هذا العجيب، الذي ابتاعه بثمن من العمر غالٍ، وبعنفوان شبابه حتى هذا العام!

كثير هؤلاء الأثريون الذين يهيم هيامهم على وريقة قد لا يكون لها قيمة معنوية سوى أنها بالية، أو فيها كلمة بالية، وإذا شاهدتهم لا يسعك إلا أن تسخر بهم ويضحكك طيشهم، وفي عين الوقت يهزؤون بك أشد ما تتصور، وقد لا يرون لك قيمة في المجتمع أو الحياة، ومنهم مؤلف هذا الكتاب، فجاء كتابه يمثل حرص الأثري المنقب عن كل غثٍ وسمينٍ ورخيصٍ وغالٍ وقد لا يدع لنفسه مجالاً للاختيار، ولا

(١) وهو كتاب مهم في بابهِ وله الامتياز على المؤلفات الصادرة في تاريخ النجف الأشرف من حيث السبق ولما تضمنه من المعلومات النفيسة لأن الشيخ آل محبوبه أدرك في عصره أمة من المعنيين بهذا التاريخ واطلع بنفسه على أصول الوثائق والصكوك والمجاميع ونقل منها مباشرة أو بالواسطة القربة إلى كثير من الشخصيات والأحداث وكان من ذلك ما أشار إليه في المقدمة... (وأني لاقيت المتاعب والمشاق في جمع هذه الأوراق ونقبت عن محتوياتها كثيراً وسافرت في طلبها عدّة أسفار ولم يكن من همّي تزويق الألفاظ الفارغة.... ما أشار إليه الشيخ المظفر في قراءته للكتاب.

ومما دبحه قلم الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء في المقدمة بحق الكتاب والمؤلف بأنه حاز فضيلة السبق والابتكار إلى تأليف ضروري لا بد منه وقد فتح الباب لمن بعده.. وليعلم أن كتابه من الكتب الخالدة والآثار القيّمة التي تمشي مع الزمان وتسير مسير الأفلاك..

مجلة الدليل النجفية / السنة الثانية.

لفكره دليلاً للنقد وبالرغم من ذلك قد يدرك من نفسه هذا الحرص، فيقول لك في صفحة (٥٨): (وأكثر الشعر المثبت على أحجار الكاشي من الشعر الرديء الضعيف، وإنما أثبتناه حفظاً للأثر).

يريحك المؤرخ بالأمس على الأكثر في أمانة النقل عن كل ما يسمعه ويقرأه ويقف عندها عن كل رأي وتعليق وشقة المؤلف اليوم بعيدة عنه كل البعد، فلا يحدثك إلا عن كل ما يظنه أو يعتقد صواباً، استخرجه من بطون الكتب وثنيات الأوراق والصحائف، وأضاف إليه خيالات وظنونا يدعمها بكلمة الفن والعلم، فيريحك - يائسا - من أمانة النقل وتستريح به الى صورة تاريخية تفهمها من طرفيها.

أما صديقنا مؤلف هذا الكتاب فهو يتردد بين الذوقين:-

يغترف من هذا لذلك ومن ذاك لهذا وأراد - على ما أحسب - أن يطل من نافذته على الأسلوب الحديث من التاريخ والبيان ليتناول منهما ما يرضي قارئه على الأكثر، لولا أن يده لم تستطع أن تتناول اضمامة كافية لترويح ذوقه، فكنت ترى الذوقين المتباعدين يتزاحمان ويتصارعان فيتغلب احدهما - والأرجح هو الأول - وعلى الأقل يتساويان - إذا أبيت فينتج منهما أسلوب ثالث وحيد في بابه.

أليس كذلك أيها الصديق؟! وهنا اعترف بلباقتك، لما انهمت لقولك في الصفحة الرابعة (لم يكن من همي تزويق الالفاظ الفارغة...)، فأذهب سالماً.

وبالغ المؤلف حقاً في جمع كتابه من زوايا متباعدة كانت عزيزة على امثاله وتواضع الى حد بعيد لكل حقيقة مندرسة حتى أقنعها أن تأتيه من مكنها طائفة، فجمعه محيطاً بمختصر تاريخ النجف من شتى النواحي، ولا أجد لمؤاخذيه كثير عذر، اذا ما كان غمط بعض الشخصيات كما يرون - وكما أرى أحياناً - أو أغفل بعض الحقائق التاريخية كما يعتقدون وله جواب واحد يكفيه اذا قال:- (على المرء ان يسعى بمقدار جهده....).

ومع هذا فلا أستطيع أن أتغافل عما فاتته من فنّ الطباعة كثيراً ومن رسم الخط، فجاء كتابه كما شاهدته أو تشاهده.

وبالآخر أعتقد أن من عرف كيف ذهبت آثار النجف وتبعثرت، يعرف قيمة مجهود المؤلف في استخراج كتابه الذي هو أول كتاب ظهر من نوعه، وقد زاد ثروة المكتبة العربية وأسدّى للنجف وأهلها خدمة تذكر فتشكر على مر الأيام.

خواتر

ثلاثة ألقاب^(١)

ثلاثة ألقاب كان لها معنى عظيم عندنا كما لها عند غيرنا فعلاً فلما أسأنا استعملها صارت لا تؤدي المعنى الذي وضع لها وهي:
 أولاً - لقب (العلامة) الذي صرنا نطلقه حتى على الناشئين والمبتدئين من طلاب العلوم الدينية.

ثانياً - لقب (الأستاذ) الذي صار يطمع فيه كل من كتب سطرًا أو درس الأجرومية.

ثالثاً - لقب (المجتهد) الذي صار يدّعيه كل من درس أوائل العلوم الدينية بعد أن كان من حقوق الرئيس الأعلى للطائفة.

الحاكم الجائر^(٢)

أهنيك وأعزيك

أهنيك

لأنك تدفع الرذيلة عن المساكين المحررين من سعة العيش، إذ تصبح - يا ظالم - خير متنفس مباح لضغنهم المكبوت بشتهم ولعنهم لك.
 فإن شعورهم بالحرمان إذا لم يجدك متنفساً له التمس في غيرك البريء مما سلقوه فيه بالسنة حداد ظلماً وعدواناً.

(١) البذرة السنة الثانية العدد الخامس.

(٢) مجلة النجف السنة الثانية العدد التاسع في ٢٢/ ذي الحجة/ ١٣٧٧ - ١٠/ تموز/ ١٩٥٨.

وأعزيك

لأن ظلمك تعبير صارخ عن نقصك الكامن المستور، وعن شعورك الباطن بضعة نفسك أو ضعفها فتؤلف بين رذيلتين، وتجمع بين فضيحتين.

وبالآخر لا يفلح الظالمون، ولا ينجو إلا المخلصون
فمن منكما (هل أنت - يا ظالم - أو المظلوم) هو الفائز....؟؟

أيها الإنسان^(١)

أحدثك

إن أكثرنا - نحن أبناء آدم - نتهم أنفسنا بالكمال فنغضب عندما يصارحنا (الغير) بنقائصنا، مع أن الكمال لله وحده، وهذه التهمة - لو درينا - من أعظم نقائص البشر المستعصية لأنها سر فشل اطباء النفوس من اقدم العصور، فلا يؤثر طبهم في نفوس تتوهم انها تتمتع بالصحة.

وهذه التهمة كالربا في المال يقصد بها الربح، لتربي في النفس كما لها الموهوم ولكنها تنقصه وتزيد في الخسارة، كعدد سالب نضيفه في (علم الجبر) الى عدد سالب لينتج عدداً سالباً تحت (الصفر) هو مجموع العددين.

والله إنما يربي (صدقات النفوس) في اعترافها بنقصها وتواضعها للحق، كعدد موجب نضيفه الى عدد سالب أقل منه فيستهلكه ويرفع بالمجموع الى ما فوق (الصفر) فما أن للبشر ان يشفى من دائه القديم بالتواضع.

(١) مجلة النجف السنة الثانية العدد الثالث عشر في ٤ / ربيع الثاني / ١٣٧٨ الموافق ١٨ / تشرين الأول / ١٩٥٨.

أيها الإنسان^(١)

تزعم أنك خليفة الله في أرضه، وأنت لا تعرف من أسرارها إلا ما يقنعك أنك جاهل بأصغر ما عليها وتدّعي أنك أقوى مخلوق في تدبيرك وأنت عاجز عن توجيه نفسك إلى حسن تدبيرها في أضعف ما عندك وتطمع في أن تخرق حجب الكون لترى ما وراء المنظور، وأنت لم تحل إلى الآن مشاكل نفسك الفكرية من أقدم العصور، حتى مشكلة أنك مختار أو مجبور.

فمتى تزعم أن لا يحق لك أن تزعم...؟

ومتى تدّعي ما ليس لك أن تدّعي...؟

ومتى تطمع ألا تطمع أن تكون الإنسان المظفر...؟

أيها الدينار^(٢)

عليك من مخلصيك أفضل الثناء، لأنك استطعت أن تستعبد الأحرار بإغرائك، وتحرّر العبيد بقدرتك، وتقيم الدنيا، وتقعدها بجبروتك.

أنت للسراق قائدهم، للجرائم وللمرتشين مرشدهم، لسحق الضمير وللأغنياء سيدهم الرؤوف بهم مع سجنهم لك، وللفقراء عدوهم اللدود مع إخلاصهم في حبهم، وللمستعمرين مغريهم على وضع الأغلال في أعناق الشعوب، وللمستعبدين المساكين سر بلوتهم في هذه الحياة.

أنت (زينة الحياة الدنيا) ولكنك لا تجتمع إلا في شح أو حرام، ولا تتفرق إلا من إسراف أو انتقام ومع ذلك انت للكريم عبده المطيع، وعند الزاهد احقر من قراصة

(١) مجلة النجف السنة الثانية العدد الخامس عشر في ٢٦/١١/١٩٥٨.

(٢) مجلة النجف السنة الثانية العددان السادس والسابع في ٥/ ذي القعدة/ ١٣٧٧ - ٢٤/ مايس/

الجلم^(١).

من أنت؟

هل تدري من أنت؟

أنت - أم أنا - ...؟؟؟

أيها الشاب^(٢)

أنت قوة الحق في وجود الإنسان ولك حق الوجود في قوة انسانيته بل انت عنفوان الإنسانية في سموها وسمو النفس في عنفوانها الى حيث لا يتناهى من الكمال المطلق. لا يجد منك إلا الجهل الموجه المشنط^(٣) أو ظلم المعتدي المتغرس أو مرض يقعد بك عما خلقت له ولأنك قرارة الوارثات المتخلفة فلا تحرر إلا على اساس مئات منها تأخذ ناصيتك من سجن الى سجن فاحذر ان يضعضع اسم الحرية من نفسك. أصلح ما ابتقته لك الايام ليسلمك الى أسوأ ما اختفى من نفس الإنسانية المطلقة من الوحشية والجاهلية الاولى وانت لا تدري وخذ لنفسك من نفسك ما يصلحها لتكون أنت...

أيها الطالب^(٤)

أدعوك إلى شيء واحذر من منه.. أدعوك الى الاعتداد بنفسك، فان نفسك هي التي تلهمك الخير والاخلاق والعلم، لا محيطك ولا معلمك ولا كتابك، بل قد تحرك هذه

(١) الجلم: المقص الذي يجز به أوبار الإبل والقراضة ما يقع منه قال الإمام علي عليه السلام فلتكن الدنيا في أعينكم من حثالة القرظ وقراضة الجلم..

(٢) نشرة البذرة السنة الأولى العدد السادس ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٣) المشنط: قيل شواء مشنط لم يبالغ في شيء.

(٤) مجلة النجف السنة الثانية العدد الثاني عشر في ٤ / ربيع الأول / ١٣٧٨ - ٨ / أيلول / ١٩٥٨،

الأشياء الى خسارة لا ربح بعدها ابداً.

وأحذرك أن تفهم منه الغرور بنفسك لتستغني بها عن الموجه محيطك ومعلمك وكتابك، فيا سوء طالع ذلك الطفل الذي يتعلم المشي وحده بالسقطة تلو السقطة وقد يهلك او يتعطل قبل ان يخطو خطوته الأولى.

وما أبعد المعرفة الشاهقة التي تنال المصائب الشائكة وتجاب الحياة القاسية.
حتى لو كنت فيها الرابع.

أيها العدل^(١)

أشكرك: أنك ثقیل الظل على الناس، مر المذاق في الأفواه، شديد وقر الأسماع، وتبغضك القلوب حاقدة، وتعاذيك القوة غالبية.

ومع ذلك تحاول ان تلج المحافل فريداً مكرماً، وتقربك الحكومات ضعفاً عزيزاً، ويرصدك المستعمرون ضميراً حياً، وينصفك الجشعون إلفاً صريحاً، ثم تطرد من بينهم جميعاً منبوذاً مدحوراً.

فإلى متى تنخدع بمدحة الكاذبين، وثناء المنافقين، وتملق الدجالين.. فانطلق من سجن الأرض الظالم أهلها إلى سماء الحرية اللانهائي حيث (الحق المطلق) هو الحاكم.

أثمن نصيحة

ليس عندي أكثر مما تتلقونه في تعليمات مدرستكم وإذا كان لابد من الجواب فليس هناك أولى في تقديم النصيحة لكم ولنفسى - بعد الوصية بالانقطاع الى العلم - من ان يستشعر الطالب بانه مجاهد في هذه الحرب العوان التي أثارها هذا العصر ضد الدين الإسلامي وما يتطلبه هذا الجهاد من التضحية والشجاعة والاخلاص لله تعالى وحسن

(١) مجلة النجف السنة الثانية العدد الثامن في ٣/ ذي القعدة/ ١٣٧٧ - ١٩/ حزيران/ ١٩٥٨.

النية والصدق في القول والعمل ليكون مثلاً لمن لا تأخذه في الله لومة لائم.^(١)

ظاهرة الطالب الديني

لا شك أن أبرز ظاهرة في الطالب الديني بعد العلم والمعرفة أن يتحلّى بالأخلاق الحممدية من الصدق والأمانة والتواضع والعفة والفتوة بالترفع عن الرذائل وعمّا في أيدي الناس ونحو ذلك من الأخلاق الفاضلة وإذا حرم منها فالأولى به أن ينصرف إلى عمل آخر ولا يحشر نفسه في طلاب الدين دجلاً وجداً فيقنع بالاسم وحده وهو خال من حليته.^(٢)

(١) في سؤال للشيخ وجهته نشرة البذرة إليه: ما أئمن نصيحة تهدونها للطالب الديني؟... البذرة السنة الثانية العدد الخامس الصفحة ٣٠٩ - ٣١٠.

(٢) جواب الشيخ عن سؤال وجهته نشرة البذرة إليه كالآتي: ما أبرز ظاهرة تحبونها للطالب الديني؟... نفس العدد أعلاه.

بسالة العرب^(١)

الشيخ (م) من رجال (الثورة العراقية) كان يرسل من مركز الثورة (النجف الأشرف) للقبائل العربيّة، لتحريضهم على الأخذ بحظهم من الجهاد المقدس في سبيل تحرير المسلمين.

نعم! وكان لحد بعيد من دعاة الثورة والمعتقدين بنجاحها، جال في كثير من مناطقها، ولم يكذب يقترب من إحداها - قبيل الظهر - إلّا وأصوات المدافع وأزيز البنادق قد صكت مسامعه، وهزت الأرض من تحته.

دنى إلى بيوت إحدى القبائل الثائرة والحرب الطاحنة على أميال قليلة عنها ويكاد أن يخالط شرارها تلك البيوت وأنسل بين زغردة النساء، وضوضاء الأطفال؛ وعواء الكلاب، إلى (مضيف) هناك لأحد أصدقائه من وجوه القبيلة، وقف حائراً - وليس في المضيف إلّا (القهوة) في موقدها والحصير البالي - ونادى برّب البيت ثمّ بالعجوز الشمطاء زوجته.

العجوز (راكضة تعثر بأذيالها الطويلة، وعلى أسرة وجهها البشاشة الفطرية، وملء أهابها الكرم العربي؛ فرحة بمقدم عالمهم المحترم وصديق زوجها القديم) أهلاً بالشيخ! حيّاك الله! ساعدك الله!

الشيخ: وبك أكثر! وساعدك الله على....

(تقبل كتفه، ثمّ ترجع راكضة، تأمر نساءها بتهيئة طعام الغداء، وتحجّيء حامله الفراش للشيخ، والخطب لوقود القهوة، تفرش له إزاء الموقد، ويجلس).

(١) جريدة الهاتف، عدد ١٠٧، ص ٥.

العجوز: من أين جئت في هذه الساعة الملعونة؟

الشيخ: سمعت أنّ الانكليز هجموا عليكم، وكنت عند عشيرة (بني...)؛ وقد علقوا وساروا الحربة ولم يتركوا مركوباً يصلح للركوب، جئت إليكم ماشياً، هي: ماشياً؟!

هو (يستمر): جئت ماشياً من طلوع الفجر وسرت تحت أشعة الشمس المحرقة، وقطعوا عليّ الطريق (آل...)؛ ولولا أنّهم عرفوني وعرفتهم لأخذوا كلّ ما عليّ من ثياب.

(توقد العجوز النار للقهوة ويسود الصمت، ثمّ يعود الشيخ للكلام).

وأين الآن زوجك (محسن) وأولادك الثلاثة، وهل هم في ساحة الحرب.

نعم ذهبوا كلّهم من الليلة الماضية إلى المعركة ولم يعودوا؛ والآن - تسمع - قد اشتدت الحرب، ومن قبل ساعتين.

ذهبوا كلّهم!!

وكلّ عشيرتنا، ولم تبق إلاّ النساء والأطفال (يتضايق الشيخ ويظهر عليه الاضطراب النفسي، ولكنّها تستمرّ تحدّثه مفتخرة وبكل هدوء عن أحوال هذه الحرب المشؤومة منذ ثلاثة أيام، وعلى الأخص هذا اليوم، وعن شجاعة قومها الأبطال الذين دحروا قوّة الانجليز المعززة بطائرات تقصف بصواعقها الجهنميّة، حتّى بيوتهم التي لا تتقوس إلاّ على نساء وأطفال تتضور في سبيل استقلال العراق).

هو: ما ذلك الدخان المتصاعد.

هي (تترقق عيناها بالدموع): البارحة ألقت الطيارات قنابلها على (جماعة) من بيوت القصب هناك فاضطربت النار فيها وأحرقت أمتعتهم ومواشيهم؛ بل وذهب

الكثير من العائلات طعمة النار والقنابل.

وتحدث هنا جلبة يقوم على أثرها الشيخ فيسأل: ماذا حدث؟

هي: أظنّ قتيلاً جاوا به الآن (تقوم إلى خارج المضيف وترجع). - لا! ولكن جريحاً قد مات، وقد بلغت قتلى اليوم لحدّ الآن ثلاثين رجلاً، غير النساء والأطفال، ويالأسف!

هو: بل وألف أسف على هؤلاء الأبطال الذين بيّضوا وجوهنا!

هي: نعم أسف ألا أرى مع القتل أحد أولادي مضمخاً بدمائه؛ قد نال وسام الشرف الخالد (الشهادة) فاساهم نساء قومي النياحة والبكاء.

(ثمّ تعض شفتها وتكاد أن تقطعها تحرقاً).

هو: لا تقولي ذلك! أرجو أن ينتصروا على أعدائهم ويتمتعوا بالحياة حياة العزّ والاستقلال ولا يصيبهم ظلم، ظلم هؤلاء فهم لم يعملوا إلاّ لأجل البلاد وفي سبيل الاستقلال.

هي: أتظن سيبقى هؤلاء أثري في أرضنا؛ كلا! ولا شكّ أن قومنا الأشاوس سيعودون هذه الليلة ظافرين بعدوهم الألد، وتنتهي الحرب (يعتريها شيء من الدهشة، فينقطع كلامها قليلاً وتسارق النظر إلى ما وراء الشيخ، كأن شيئاً هناك يلفت نظرها، وتستمر) ولكن... ولكن ما أحلى الشهادة! أرجو أن يشفع لي أحد أولادي عند (الزهاء).

هو: إن شاء الله يظفر قومكم بعدوهم، ولا ترين مكروهاً!

بعد ذلك يسود الصمت بينهما، ويجلس الشيخ القرفصاء مطرقاً، حول موقد القهوة وقد ينكت الرماد بمخصرة كانت بيده، أو يعبث؛ بالقهوة وأوانيها ويرتشف منها؛ وقد استولى عليه التفكير العميق وأصبح لا يشعر كثيراً بما حوله.

يفكر في نفسه وهو يجدها - بعد حديث هذه العجوز - أمام أمر واقع: أمّا الالتحاق بالرجال، وهناك الموت الزؤام، وقد يلتجئ إلى خوض غمار القتال، وهو لا يحسن حمل البندقية، ولا فنون الحرب، وأمّا البقاء مع النساء؛ وهذا العار والشنار، ولا سبيل لرجوعه القهقهري ولا بدّ له أن يقف على خطّة الحرب وأخبارها في هذه المنطقة، ويجمع برؤسائها.

ومن ناحية أخرى؛ ساورته الشكوك في نجاح عصابات لا مدد لهم من عدد وعدّة إلاّ الإيمان والاخلاص؛ وهذا الجيش النظامي المدجج بأحدث الأسلحة والآلات الحربية تمده دولة عظمى لا تغيب الشمس عن مستعمراتها، بكلّ ما تستطيعه من حول وقوة، وهذا دوي المدافع والقنابل الذي زلزل الأرض بأهلها كافٍ وحده لرعب قلوب قوم لا يؤلفون إلاّ جماعات عزلاء!

وقال لنفسه؛ لو كنّا شاهدنا هذه الأهوال المخيفة أترانا نحض هؤلاء المساكين على هذه التضحية النادرة بالنفس والأهل والمال؛ في سبيل أمنية لعلنا مغرورون بها؛ وكيف يجوز لهذه القوة القاسية أن تلين لهذا الضعيف الواهن عدوها فتمكنه من تنسم حياة الاستقلال والحرية.

بينما هو في هذه الأفكار والهواجس، وإذا بالعجوز وثبت وثبة اللبوة الهادرة وتصرخ بشريد تستوقفه بأقبح كلمة عار سمعها.

التفت الشيخ التفاتة المدهول إلى خلفه؛ حيث الحادثة غير المنتظرة من هذه العجوز الهادئة؛ وذعر لما رآها قد تعلقت بأذيال رجل قد نفذ من تحت جدار المضيف منهزماً (وهكذا المودة في مضيف الريف القعبي ترتفع جدرانها بين الحنايا عن الأرض) وهو يولول تولول الخائف المستجير، ويتوسل بها أن تتركه لشأنه ولها عهد الله أن يذهب حيث تريد.

وكادت أن تسحبه - وهي تستنجد - ببناتها ليسرعت إليها - لولا أن هذا الشريد تمكن بخنجره أن يفصل ما تعلق به من أذياله، ويلوذ بالفرار هارباً لوجهه لا يلوي على شيء.

أمّا العجوز فقد قفزت إلى الباب، من دون أن تعير الشيخ التفاتها، بالرغم من استيقافه لها؛ فاطلقت رجليها للريح خلف الشريد على غير جهة المعركة.

يقول الشيخ وقفت مبهوراً أنظر إليها تطارده وتقذفه بالحجارة، وتبعتها امرأتان بيد كلّ منهما عمود، لا شك أنّهما يريدان قتله بهجمة واحدة وحركتي النجدة إلى أن أنهض لمساعدتهنّ عليه، لولا أنّ نساء الحي قد تجمعن وقد تصاعد إلى عنان السماء صياهنّ وزغاريدهنّ فأكبرت على نفسي الخروج بينهنّ وأنا على هذه الحال.

واعتقدت في هذا الهارب قد جاء سارقاً أو طارقاً قد أمن خلو الرحال من الرجال، وعجبت منه مدججاً لا يدافع عن نفسه بسلاحه، ولم أزل أحقق النظر بهم حتّى غابوا عن ناظري في منعطفات الزروع والأشجار.

ولم تمضِ بضعة دقائق على جلوسي حائراً قد أشكل على موقعي الغريب، إلا وهذا الشاب الشريد قد رجع إليّ ورمى بنفسه في أحضاني يستغيث مستنجداً بي، وهنّ وقفن على الباب يتحامين الهجوم عليه وهو في كنفي، لمقامي الرفيع عندهم، ولكن لم يتركه من كلمات اللوم القارصة والسباب اللاذع، وما هي ذي العجوز ترمي بقناعها عليه - استهزاء به - تشير إلى أنّه امرأة، وهي رمز الجبن والجور، والشاب يتميز خوفاً وغيظاً.

وكانت دهشتي عظيمة لما تأملتته وتحققت أنّه (شعلان) الذي أعرفه فرخ هذه العجوز الصغير، وقد توسط العقد الثالث من عمره، وهاتان الواقفتان زوجه وشقيقته.

فحنوت عليه حاجزاً، خشية أن يصاب بأذى أو مكروه، وتعرفت خبره من حديثه المضطرب وصوته الخافت؛ وعلى ملامحه أثر التألم العميق، وهو منهوك القوى يتنفس

الصعداء من التعب الذي عاناه هذا اليوم.

كيف وقد كان طيلة هذه الليلة الماضية في ساحة الحرب، كأحد الحرس على جنود الأعداء خوف المهجوم الفجائي؛ وجالد وكافح في المعركة الهائلة التي دارت بالهجوم المقابل عند طلوع الشمس، ولا تزال الحرب قائمة على قدم وساق، وكاد أن يشتبك الطرفان بالسلاح الأبيض والآن قد زالت الشمس، ثمَّ يجيء إلى هذه الطامة الكبرى فتطارده أمّه هذه المطاردة المزعجة؛ وهو لا يستطيع أن يمد على أمّه يد المدافعة خوف العار الفاضح!

على أنّه لم يكن له عهد بالطعام بعد طعام العشاء الماضي؛ وهو لم يكن إلاّ رغيماً وتغيرات لا تتجاوز مقدار الكف؛ فكيف تراه الآن قد خارت قواه من ألم الجوع وحده! فما كان منه إلاّ أن جاء لبيتهم - بيت الضيافة - يسترجع قواه بلقمة يتناولها واقفاً، ثمَّ يرجع إلى الجهاد المقدس عن الدين والوطن وإلى العزّ الخالد بالتضحية في سبيل المجد العربي.

أمّا أمّه العجوز ذات الحميّة والنجدة، فلم تكد تراه مقبلاً من ساحة الموت، إلاّ واتهمته بالخور، وظننته منهزماً من نار المدافع الموقدة، إلى نعيم عرسه التي بنى بها قبل أسبوعه، قد ساقه الحب إلى التمتع بلقيها ببقية النهار.

وقد يكون في نفسه هوى استراق نظرة من حبيبته، أو أن يطبع على جبينها قبلة الوداع الأخيرة؛ لكن لا بالمقدار الذي اتهمته به أمّه ولعلّها أيضاً لا ترضى لابنها أن يترك الحرب باحثاً عن طعام يسكن به جوعه فقد وقف شعرها عندما وقع بصرها عليه، وجاشت في نفسها الغيرة على قومها أن تلحقهم وصمة العار إلى آخر الدهر فرار ولدها، وكيف ترضى لفلذة كبدها أن يكون سبة لها ولأبيه وأهله (والموت أحلى من ركوب العار)!

لقد أصابتها نوبة عصبية فقدت بها رشدها؛ فراحت تطارده ليرجع من حيث أتى؛ قبل أن تعلم به نساء الحي؛ وهنا الفضيحة الكبرى، ولم تفسح المجال لأن يسمعها عذره المشروع، فلم يجد بداً من الانهزام أمامها إلى حيث تريد، وأراها أنه راجع إلى الحرب، ولكنه استتر بين الزروع، ووجد الفرصة للوثوب إلى (المضيف) الذي لا يسكنه أحد كما أننا في إحدى حناياه؛ لعل أن تحس به زوجته فتأتي له ببلغة عيش.

يقول الشيخ: أحسست بعد ذلك أن دخولي المضيف كان ثقيلاً جداً على هذا الشاب المختفي؛ وأزعجه مقامي الذي لا ينتظر له نهاية قريبة، وزاد الطين بلة دخول أمه المكان، فجعد الدم في عروقه، ولما أدرك أنها أحست بمكانه أراد أن ينجو من عقابها الصرام والفضيحة العظيمة بالهزيمة إلى حيث النجاة، فوقع الذي وقع.

وها هو ذا الآن إلى جنبي يستكين؛ ويسيطر عذره المشروع إلى أمه وزوجه وشقيقته؛ اللائي تألبن عليه ويتوعدنه بالقتل والفضيحة المخزية.

ولولا توسطي الأمر باقناعهن أن يأتين له بثلاثة أقراص شعير، ويقفل راجعاً إلى المعركة لذهب ضحية الخوف من العار؛ أو بسالة النساء العربيات.

إن أمة هذه بطولتها وبسالتها وهذا شعورها لا تموت إلاً كريمة، أو تحيي حياة الخلود والشرف.

ليسمعها المسلمون...^(١)

ليسمع المسلمون الزاهدون في دينهم كلمة هذا الكاتب الكبير الانكليزي أعظم مشاهير كتاب العالم وليعتبر المقلدون للمدنية الحديثة التي جاءتهم بزخارفها فأنستهم أنفسهم ومجدهم، وأصبحوا ألعبوبة بأيدي من أرادوا ان يجعلوا منهم عبيداً للمستعمرين. بحث الاصوات وكثر القول في هذه العصور عن عظمة الدين الإسلامي واستعداده لهضم المدنيات وموافقته لكل عصر ومصر في تشريعه ولكن الامة الإسلامية لم تتقدم الى الامام قيد أنملة لتلحق بركاب العالم المتقدم بل لا تزال تتأخر بخطى واسعة الى الوراء ناكصة على اعقابها لاهية عن كرامتها مفتونة بجهلها.

مضت الايام الاولى وقد اعتدنا - نحن المسلمين - عرفان ذاتنا وتذوقنا كيف

(١) نشرت مجلة البذرة مقالاً عن (الإسلام عند برنادشو) مقدمة له بالقول: برنادشو كاتب انجليزي شهير علم أربعة أجيال، وعمره الآن أربع وتسعون سنة لم يعرف التدخين طوال عمره ولم تدنو الخمرة إلى فيه وهو لا يزال نشيطاً قوياً ويأمل أن يعلم الجيل الخامس. ويعد اليوم من أعظم مشاهير كتاب العالم ومفكرها.

يقول برنادشو: إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد. هذا النبي الذي وضع دينه دائماً موضع الاحترام والاحترام. فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات خالداً خلود الأبد، وأني أرى كثيراً من بني قومي دخلوا هذا الدين على بينة.

وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في القارة - يعني أوروبا - عقب هذه الحرب. وإذا أراد العالم النجاة من شروره فعليه بهذا الدين أنه دين السلام والتعاون والعدالة في ظل شريعة متمدنة محكمة لم تنس أمراً من أمور الدنيا إلا رسمته ووزنته بميزان لا يخطئ أبداً. وقد ألف كتاباً عن محمد (عليه الصلاة والسلام) ولكنه صودر لخروجه على تقاليد الإنجليز.

وقد اثارت كلمات برنادشو الشيخ المظفر فكتب عنه المقال أعلاه.

البذرة السنة الثانية العدد السابع الصفحة ٤١٩ - ٤٢٠.

نحكم أنفسنا بأنفسنا ثم ننشر السلام والحرية ونولد الأمن والعدل وتدين لنا البلاد، ولكن سرعان ما غيرنا ما بأنفسنا متجاهلين تعاليم الدين الإسلامي فغير الله تعالى ما بنا من عزة ومنعة وكرامة ونعمة اذا أشعنا الظلم والفساد واعتدى بعضنا على بعض وانحرفنا عن الاتجاه الذي وصفه لنا المنقذ الاعظم (صلى الله عليه وآله) ابتداء من القرن الأول كما يتبدى التصدع في البنيان الشامخ حتى انهار علينا في هذه العصور التي بحق تعد مظلمة بالقياس الى الامة المنكودة الحظ.

ها نحن أولاء بين أيدينا وبملاء آذاننا صرخة الاستقلال الدائبة ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(١) وصرخة القوة الخالدة ﴿أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^(٢) والدعوة إلى الوحدة الشاملة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٣).

وبالأخير فنحن شرذمة تحت كل حجر ومدر، فلا ديننا اتبعنا ولا بشلنا احتفظنا ولا بتعاليمنا استرشدنا ولا بمعارفنا الأولى أخذنا وزخرف لنا الاستعمار أذاليه فأصبحنا طرايق قdda وسخر منا عبيداً نجبي له من لحمنا ودمنا لنسد بعض نهمته، وهيئات!

عرفنا التاريخ إنا أمة استطعنا ان نحكم العالم بالإيمان وحده فهل يستطيع مرة أخرى ان يعرفنا أمة تحكم نفسها على الاقل بين أمم استطاعوا ان يتخلقوا ببعض اخلاقنا الماضية ففاقونا.

فياضيعتنا بعد اليوم إذا بقينا في هذا التضييل ثم يطيب لنا هذا السبات القاتل واعدائنا ساهرون بالمرصاد!!

(١) النساء ٤: ١٤١.

(٢) الأنفال ٨: ١٦.

(٣) الحجرات ٤٩: ١٠.

ينادي (روسو) بحرية الإنسان وهو في أرض فرنسا فيخفق له بعيداً قلب مستعمرة بريطانية - وهي أمريكا الشمالية - شغفاً بهذا النداء الحي فتصغي له ويهيب بها الى مطاردة الاستعباد حتى تصبح (الولايات المتحدة) وهي أكبر دول العالم بعد ان كانوا تحت كابوس الاستعباد سنين وسنين.

فهلا تحقق هذه القلوب الإسلامية لصوت الدين المدوي وهو ينادي - على الأقل - كل يوم خمس مرات:

حي على الفلاح؟

حي على خير العمل؟

مشاكل الحياة^(١)

سلام عليك، وبعد:

فلا أعتقد انه يهتم في كثير أو قليل ان تعرف شخصيتي؛ المهم ان تتمعن في رأيي ويكفي ان تعرف بأني شاب ربيت تربية حديثة ودرست دراسة عالية وفكرت كثيراً في أمور الدين والدنيا.

لقد اعتراني في باكورة شبابي شك في الأديان؛ فأطلت تفكيري في الوجود فكان أن قوي الشك حتى صار إلحاداً فعكفت مخلصاً على الدرس والتتبع حتى صرت صوفياً أو من بالله أحر من إيماني السابق به ولكنني انكر الأديان، وما زلت مخلصاً في الجد والبحث، ومستعداً لقبول كل فكرة جديدة اذا قنع بها عقلي وضميري وهما وسيلتاي الى الله.

أريد أن انبهكم يا اصحاب الأديان والمدافعين عنها الى حقيقة خفيت عليكم فواحدكم يعتقد ان دينه أفضل الأديان جميعاً ومتبعيه أهدى أهل الارض طراً ولكنه في الوقت نفسه يجزم امام اهل الإلحاد بأن مصدر الأديان هو الله، وإن أراد أحدكم أن

(١) جريدة الهاتف السنة الخامسة العدد ١٨٦ الصادر في ١٥/شعبان/ ١٣٥٨ الموافق ٢٩/أيلول/ ١٩٣٩. وقد قدمت للموضوع بالكلمة الآتية:

وصلتنا هذه الرسالة من بغداد موجهة إلى الأستاذ محمد رضا المظفر ونحن حينما عرضها للنشر نشعر بأن الدين الإسلامي أرحب صدرًا من أن يضيق من المناقشة والرد هذا أصلاً عن أن المعني بهذه الرسالة معروف لدى الأوساط الدينية والأدبية بالمحافظ على آداب المناقشة لحد بعيد زيادة على ما اتصف به من سعة الصدر وطول الأناة، ولا شك أن الأستاذ المظفر سيجيب عن هذه الرسالة بما يرضي المنطق وهو الأساس الذي بنيت عليه الشريعة الإسلامية والرائد المتبوع في كل مناقشة دينية لدى رجال الدين الحقيقيين.

يثبت قوة دينه لجأ الى نقط الضعف في غيره من الاديان يظهرها للملأ مفصوحة، وهذه الطريقة تفيد أشياع الدين المذاد عنه، ولكن أتدري أيها الاستاذ ويدري رجال الدين معك ماذا يفهم المتفرج مثلي من هذه الحملات؟ حسنا، انها تزيد من شكه وتبعده أكثر عن جادة الصواب ان كان الدين صواباً.

أكتب اليك هذا بمناسبة ما قرأته من آرائك في عدد الهاتف الثمانين بعد المائة فقد اثارني ما لحظته من عبارات التشفي لأن ”النصرانية قد اصطدمت بالعلم فتطاحنا زمناً حتى صرعها، ولكن الدين الإسلامي أرحب صدرأ وهذا قرآنه العظيم يحث على التفكير في النفس.

والآن اذا كان الإسلام من عند الله فمناقضة النصرانية للعلم الذي هو من عند الله ايضاً بقيت انها ليست من عنده، لكن الإسلام يعترف بالنصرانية ديناً سماًوياً، أفلا تثير تهجمات المسلمين على النصرانية شكاً في ” المتفرجين “ أمثالي بالإسلام أيضاً، وبالتالي بالأديان كلها“.

يسرني أيها الاستاذ الكبير أن اقرأ لك اعترافك بخطك وجلّ من لا يخطئ وانا واثق من أن ”الهاتف“ الاغر سيسمح لي ان أوصل هذه الكلمة اليكم على صفحة وسيتيح لي أن أقرأ ردك عليها.

وأخيراً، ولكي لا تحمل كلمتي هذه على غير محلها، وأقول لك إني من أصل إسلامي عريق، وان الذي تقيان يقومان بكل الفرائض. والسلام عليكم.

بغداد - ص.ش

إلى الأستاذ ص.ش

وعليك السلام:

لقد لاحظت رسالتك الموجهة إليّ في (الهاتف) الغراء؛ فامتلكتني غبطة عظيمة؛ فيها غير اني استشعرت فيها روح البحث التي قلّ ما نجدها في رجالنا وعلى الأكثر في شبابنا! والعاطفة - قاتل الله العاطفة - هي المسيطرة على تفكير وأعمال أكثرنا.

صحيح انها - كما قلت - لا يهمني أن أعرف الى شخصيتك من الناحية التي ذكرتها، ما دامت آراؤك تسجل في صحيفة أطلعها وتفسح لي المجال للجواب ولكن لو كنا نبادل الرسائل الشخصية وبدوري أتعهد بكتمان شخصك إن أحببت ألا تظن أنا نتحدث حينئذ في جو أوسع حرية وأكثر مجالاً! وما علينا بعدئذ حينما تنضج أبحاثنا لو نشرناها ليقرأها الناس ولعلها تكون أنفع وأجدى! والمتدين - كما تعلم يحرص كل الحرص ألا تتسرب بعض الآراء الى أفكار لا تهضمها بل وكل صاحب مبدأ او دعوة حتى في الشؤون السياسية؛ والنفوس لا تتشابه أبداً ولكل عقل غذاؤه، قل كل ميسر لما خلق له! ولست أدري ماذا سيلقي منك هذا الاقتراح؟

وأخطّر جيداً أن الصدفة في العام الماضي جمعتني مع شاب من أصل نصراني مثقف وثقافة عالية كان يحمل أفكارك هذه واتسع بيننا الحديث ووعد أن يتابعه بالرسائل، لكن هو قد وفي بقليل من وعده الا انك من أصل إسلامي.

وعلى كل فليس في رسالتك هذه ما يعود الى التعليق إلا ما لاحظته علي من عبارات التشفي بالنصرانية في كلمتي "الإسلام ووسائل المستعمرين" اما ماعدا ذلك فكله تاريخ مجرد لما مر عليك من أطوار الآراء حتى صرت صوفياً مؤمناً بالله أحر من إيمانك

السابق ولكن تنكر الأديان...! ولو انك شرحت كيف سرى اليك التشكيك حتى انقلب بالأخير الحاداً، ثم بعد ذلك كيف تطور بك البحث حتى صرت مؤمناً بالله، ولماذا بعد هذا تنكر الاديان، أي لو انك عللت كل ذلك؛ لكنك فتحت باباً بمعاونتك على تفكيرك وقد تتوفق الى فكرة جديدة؛ اما وانك مؤرخ فقط لأطوار اعتقادك فما عسى ان يقول القائل؛ واذا كان الاعتراف بالخطأ في النقطة التي لاحظتها علي يجلب لك السرور - كما قلت - فاني لأسف اني لم أوفق لإدخال السرور على قلبك في هذه اللحظة إلا إذا قنعت بالاعتراف بالتشفي بالنصرانية وحده فقد أجدي حينئذ لا أبخل عليك به... ولكن يجب أن نلاحظ أن النصرانية التي اعترف بها القرآن العظيم والتي نعتقد انها من الله تعالى ولا يناهضها العلم الذي هو من الله أيضاً ليست هي النصرانية الموجودة المزيفة.. ساحمني في هذه الكلمة فاني لا أعتقد ان العاطفة قد أملتها علي فان القرآن في الوقت الذي يعترف فيه بالمسيح ﷺ وبدينه يأخذ على النصارى ثلوثهم وجملة من اعتقاداتهم التي لا تزال موجودة حتى الآن ويبرئ ساحة المسيح ودينه منها أليس كذلك أيها الاستاذ!

فلا أجد بعد هذا سبباً لإثارة الشكوك في المتفرجين المفكرين أمثالك من تهجمات المسلمين على نصرانية ليست هي التي يعترفون بها ويعترف بها قرآنهم.

وأؤكد لك أني في مقالي السابق كنت فيه مسلماً سياسياً أكثر مني مسلماً مبشراً أي أني حاولت كشف الوسائل التي يتبعها الغريون - وان كانت مكشوفة لكل مفكر - لأجل استعمار بلادنا ليس إلا من طريق هدم جامعتنا الإسلامية التي هي مصدر قوتنا؛ ولم يقصدوا وراء ذلك التبشير الى نصرانيتهم، ولذلك كان يقنعهم منا أن نترك ديننا - نحن المسلمين - ولو إلى لا دين كما صرح بذلك جملة من ساستهم (من حيث يظنون ان هذه التصريحات لاتصل الى علمنا) وقد نجحوا في مسعاهم من حيث ندرى ولا ندرى.

فهم قد شنوها حرباً سياسية أكثر منها دينية، وإذا استطردت الى مناهضة العلم للنصرانية فانما أوردتها كشاهد على صدق قضية مناهضة العلم للدين تلك القضية التي لعبت دوراً عظيماً في أوروبا وتلقيناها نحن الشرقيين بالقبول حتى في ديننا الإسلامي مع ان الإسلام أرحب صدراً، وأرجو أن تعتقد أي - وكل مسلم يشعر بحرارة الضيم والانخدال أمام جبروت الغرب المستعمر - أبعد ما يكون عن التشفي بالغالب الذي ازددناه لقمة سائغة ولم يبق فينا من بقية ولم يذر.

رسالة جوابية^(١)

إلى الأستاذ محمد رضا المظفر

سلام عليكم

وبعد فأشكرك على ما تفضلت به علي، وقد كدت أن أطوي "الهاتف" وأغلق باب المناقشة لأني لا أميل إليها لا كلامية ولا قلمية لولا اقتراحك الذي تفضلت به علي في صدر المقال، فقد دفعني الى ان أخط اليك هذه الكلمة (وللهاتف) الأغر الخيار إن شاء فليشرها إن رأى فيها نفعاً وان لم يره فليتفضل وليكن رسولي بها اليك.

إني لا اوافق على اقتراحك بشأن تبادل الرسائل الشخصية بيننا لأنني أعلم علم اليقين ان المناقشة في الآراء عقيمة، وقد تؤدي الى حرب فكرية لا يني فيها الواحد منا على الطعان لا دفاعاً عن حق أذيل ولا ذبا عن عقيدة هوجمت وانما قراعا عن الكرامة التي تعتقد بأنها تهان بإذعان اي من الطرفين لرأي الآخر وهذا ما يجري بين أصحاب الأديان في مناقشاتهم واأسفاه، يدافعون ولكن لا عن الدين بل عن الكرامة وشموخ الأنف.

وهب اننا نضونا عن نفسيتنا هذه الكرامة الكاذبة، فما عسى ان يكون جدوى مناقشتنا، ان ما قد يتمخض عنها من نتائج لا يخلو من ان يكون احدي ثلاث:

فقد أسمى بعد طول النقاش الى رأيك وقد تنزل بعد طول الجدل الى رأيي، وقد لا يكون منا لا هذا ولا ذاك، فأني مغنم روحي غير من ذلك تقدمه للناس تالله ما فيها كلها

(١) جريدة الهاتف السنة الخامسة العدد ١٩٠ في ١٣ / رمضان / ١٣٥٨ الموافق ٢٧ / تشرين الأول / ١٩٣٩.

من غناء وان لحظة تستسلم فيها لسلطان الله وتتلقى وحيه خير من لحظة نقتلها في أسئلة وأجوبة قد لا يمس بها غير القشور.

أما تأريخي لأطوار اعتقادي فما علي فيه من بأس، وما ذكرته لا أناقشك به أو لا أستشيرك فيه، وانما سقته لك دليلا على شرف غايتي ونزاهة قصدي فيما وجهت اليك من كلمة.

بقيت كلمة أخيرة أرفعها إليك لتفكر فيها ولا أطمع في رد عليها:

ان الدين في لبابه فلسفة أريد بها أن تجلو علينا ما غمض من حقائق الوجود ونحن عندما تفتق اذهاننا لتلقي هذه الحقائق لا نجبر على العكوف على تلك الفلسفة دون غيرها لأن ذلك يوهننا بأننا قد انهينا مشاكلنا الروحية مع العالم وعرفنا الله معرفة لا مطمع بعدها لطامع ولا زيادة لمستزيد: فلا نفكر في الوجود ولا نصغي لوشي ضمائرنا، فقتلنا افكارنا ولا نستشعر بروح الله في وجودنا فنضل سواء السبيل، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم.

تعال نحتكم الى المنطق في: هل ان المتدينين قد استشاروا عقولهم عندما اختاروا دينهم، أم أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، وهل هم بعد ذلك من أجل الكرامة أم من أجل الدين يتجادلون؟ وتعال نتأمل في المصلحين الدينيين السابق منهم واللاحق؛ اما من خرجوا على «عقائد» ولا أقول اديان معاصريهم فرموا بالاحاد، وأوذوا بالضرب والصلب، وهذا تأريخ سقراط وموسى وعيسى ومحمد، وغاندي ينطق بها قاسى أولئك الافذاذ من أليم العذاب وشديد العقاب.

ان الدين في نفوسنا، وقد قال محمد «التفكير عبادة» وحسبي بهذه الكلمة العظيمة مسكا للختام والسلام عليكم.

رسالة ختامية من الشيخ المظفر^(١)

إلى الأستاذ ص.ش

وعليك السلام

نعم! لا تميل إلى المناقشة! ولكن من الذي فتح بابها؟

- أنت قل!

وأنت مذ حرّرت خطابك الأول هلا كنت تفكر في أني سأسمو الى رأيك او ستنزل الى رأيي أو لا هذا ولا ذاك ويستمر الجدل، لو كان عندك ساعتك شق رابع ... لا أدري!؟

وهلا قلت (أي مغنم روعي لنا من ذلك، تالله ما فيها كلّها من عناء وان لحظة نستسلم فيها لسلطان الله ونتلقى وحيه خير من لحظات نقضيها في اسئلة واجوبة قد لا تمس فيها غير القشور).

والله وبالله تالله العظيم ان النقاش الذي يجر الى نزول أحد الخصمين الى رأي صاحبه ليرضي الله تعالى من فوق سلطان عرشه بالاستسلام لسلطان الحق، وليشبع في النفوس الايمان الصادق والعقيدة الثابتة بتلقي وحي الحقيقة، وهذا هو كل ما يتطلبه العلماء الصادقون والباحثون المنصفون.

وأني لنا بهذه المنزلة العظيمة وهي شيمة النفوس الخالدة والقلوب الطاهرة.

وأي مغنم روعي للباحثين أعم من الرضوخ الى الحق عند عرفانه؟

ثم حديث (الكرامة الشخصية) أتظن أن الدفاع عنها سيقل اذا كان النقاش علناً

(١) جريدة الهاتف العدد ١٩٢ السنة الخامسة العدد ١٩٢ في الجمعة ٢٧/ رمضان/ ١٣٥٨ الموافق

١٠/ تشرين الثاني/ ١٩٣٩.

وعلى صفحات الجرائد ولا يقل اذا كان بتبادل الرسائل الشخصية المستورة؟
لا أَرْضِي لك - أيها العزيز - أن تتمسك بأذيال هذا العذر وإن كنت لا أفرض عليك ان تجيب على اقتراحي بشأن تبادل الرسائل الشخصية ولكن أرجو ان تعتقد اني لم اقترح هذا الاقتراح الا لنبتعد معا عما نسميه الدفاع عن الكرامة ونطلب الحق لوجه الحق - كما لا أَرْضِي لك ان ترمي بالتعصب ضد أصحاب الاديان اذ تتناوشهم من دون برهان وهل هم وحدهم يدافعون عن كرامتهم لا عن عقيدتهم؟، وظني انك تعلم ان علم النفس يؤيد ان العقيدة المتمكنة هي فوق الكرامة وكم جرت العقيدة مهما كان نوعها حتى الوطنية الى التضحية بالنفس والنفيس وشاهدنا اصحاب العقائد كيف يخوضون غمار الحروب وينزلون الى سوح الموت فكيف لا تهون كرامتهم في سبيل معتقداتهم.

ثم تكلمت عن استشارة المتدينين لعقولهم واحتكمت الى المنطق، فهل يفرض المنطق على الديني ألا يكون مستشيراً لعقله الا اذا خرج على دينه الذي ورثه؟ ومن اين نعرف ان المتدين صاحب العلم والعقل لم يستشر عقله عندما لم يخرج على دينه وبقي متمسكا بأهدابه ما كنت ارجو ان يجيرنا البحث معك الى هذا النوع من النقاش، لولا انك الجأتني إليه، والذي ظننته انك ترغب في الدخول في بحوث علمية نغتنمها نحن وقارؤنا ونفتح لأنفسنا باب التفكير و(التفكير عبادة).

وما أردت نقدك في تعريضي بتاريخك لأطوار اعتقادك وانما كنت معذراً من عدم دخولي في حديث علمي حولها وانت لم تفتح بابه لأغريك على البحث واستطلع ما توصلت اليه من تفكير واذا كنت لم تطمع في الرد على خطابك هذا فاني عدت اليك لأدعوك الى البحث العلمي لتعاون على التنقيب على الحقائق والتفكير في الحق و(التفكير عبادة).

آدم وأكله للشجرة^(١)

السؤال: ومشكلة أخرى تشغل البال هي عصيان آدم ﷺ لربه في أكله الشجرة التي نهاه عنها فكيف يجوز ذلك على الأنبياء وقد رأينا ما اجاب به العلماء اذ يقولون ان هذا النهي لم يكن للتحريم فلم يمكن الأكل الا مرجوحا، وما فعل آدم إلا خلاف الأولى، ولكن النفس لا تقتنع بهذا لان فعل خلاف الأولى لا يستدعي ان يُرمى صاحبه بالعصيان والظلم والغواية، وان قلتم: ان فعل المرجوح عند الأنبياء كفعل المحرمات عندنا فيصح ان يوصف آدم بالعصيان والظلم، فلا يكون هذا حلا لهذه المشكلة لأنكم صحتم ان يكون ظالماً وغاوياً وصحتم ان لا يكون فاعلاً للحرام، وهذه هي نقطة الدائرة أفهل عندكم حل آخر لهذه المشكلة؟ بغداد ع ص

الجواب: قد صح ان آدم كان في الجنة وان منها هبط وبورقها تستر وليست الجنة دار تكليف حتى ولا بما يكون ارتكابه خلاف الاولى لا قبل هبوط آدم ولا بعده الى يوم خلود البشر فيها وقد كان في الجنة الشجرة التي آلى الله جلت حكمته على نفسه ان من يأكل منها لا يسكن الجنة. كما آلى على نفسه ان لا يسكنها الا الطيبون ولادة وإلاّ المتّقون. وإلاّ.. وإلاّ..

وكان الله يوم أسكن آدم الجنة وعلمه الأسماء عرفه الشجرة ونهاه عن أكلها نهي ارشاد لا نهي تحريم ولا تنزيه لا غيرهما ومن المناهي الموجبة لمنقصة ما في المنهي عنه أو في المنهي وما كانت حكمته النهي الا دوام بقاءه في الجنة ولما كان آدم ﷺ لا يحتمل ان

(١) نشر جواب المظفر على السؤال الموجه إلى جريدة الهاتف السنة الأولى العدد السادس الصفحة (٤٦) وقد ذيله بعنوان (لجنة الاستفتاء في إدارة منتدى النشر) ولا بد من الإشارة أن مقالات المظفر في الهاتف وهي كما استقصيناها كثيرة لكن ما باليد حيلة فلم نحصل إلا على البعض اليسير.

أحداً يكذب على الله حتى عدوه ابليس الذي عصاه من قبل في امره واغتر به وانطلى عليه غروره وإغواؤه وبهذا الاعتبار قيل انه مغوي وانه ظالم يراه بذلك ظلمه لنفسه في خروجه من دار النعيم والراحة الابدية.

ولا غرابة في ان يعد مخالفة هذا النهي عصياناً فان احدنا اذا نهى ولده الكبير العاقل عن تناول شيء كان قد آلى على نفسه ان من تناوله لا يسكن داره الخاصة، أفتراه لا يصح له ان يعاتبه ويؤنبه فيما اذا ارتكب ما نهاه عنه ارشاداً الى مصلحة؟ ولو كان ذلك منه بإغواء امثاله واعدائه!

بلى! ويصح ان يقول له: لم عصيتني وخالفت امري. انك لو لم تعصني لبقيت في داري التي جمعت كل مزية كاملة، ما لم تبق تلدد الدور شقيماً. انك تبعت عدوي ولم تطعني واطعته وعصيتني.

يقول هذا ونحوه وهو غير واجد عليه شيء ما، لأنه لم يرتكب شيئاً مبغوضاً ولا مكروهاً ولا فيه نقص ولا حزاة سوى ان مرتكبه ما عمل بصالح نفسه.

وكان السائل منذ نشأته للآن اعتاد اطلاق لفظ العصيان ومشتقاته في خصوص موارد ارتكاب المبغوضات وحتى انغرس في اعماق قلبه اختصاصه وضعاً واطلاقاً بذلك فحسب، لكنه في الحقيقة اخذ موارد استعماله بهاله من المعنى العام الشامل له لغيره نحو التواطؤ أو التشكيك حسب الاصطلاح العلمي.

إدارة منتدى النشر - لجنة الاستفتاء

مع أحد الملائكة^(١)

رأيت في عالم الاحلام كأن أحد الملائكة نزل الى الارض بصورة آدمي حسن الهيئة والهندام، نزل على حذر كأنه على استعداد للمقاومة ومداومة الطوارئ.

ولكن نزوله كان في ارض خالية الا مني وقد كنت بعيداً عنه، فارتعت بادي ذي بدء، لولا أنني تذكرت ان للملائكة من صفاء الطوية وحسن النية ثغرة من الضعف يستطيع ان يهاجمها الأدمي بما اوتي من حيلة ودهاء ومكر وخداع.

ويا سادتي أن الملائكة هم قوى الخير في الخلق او ان شئت فقل هم قوى الله خير الخلق، وجانب الخير مقهور في الارض لقوة الشر ايضاً. وما كلمة البشر الا كلمة مركبة من الشر، وما الباء الزائدة فيها الا حرف للخير لا يظهر على الأكثر في خط الكلمة الا مطموساً على انه هو مبدأ وجودها. نعم ان النفس الامارة بالسوء طاغية على ما في الإنسان من نوازع الخير.

فبدا لي ان استغل صفاء طوية هذا الملك الروحاني (لأستخلصه لي بالإطراء عليه والثناء على ما أوتي من فضل وروحانية قدسية، على ما اعرف ان في النفوس ظمأ ملتها لا ينطفئ الا ان يُخلق في صاحب النفس شعور بأنه عظيم وانه شيء لا كالأشياء والثناء احسن طريق لخلق هذا الشعور في النفس كما يبعث في صاحبها الرضا بالمطري والاطمئنان اليه والاعجاب به وان علم انه كان كاذباً او مخادعاً.

إن الغفلة والنفس الأمارة سولاً لي هذا القصد في استهواء رفيق وحدتي الجديد هذا الملك الروحاني وغلظت في قياس الملائكة على البشر، وهم لكمال وجودهم لم تخلق

(١) جريدة الهاتف السنة الثانية عشرة العدد (٤٢٦).

فيهم لا شهوة الجمال الكلي وحب الحق السرمدى. وليس هذا الظمأ الملتهب الى الشعور بالعظمة الا نتيجة لنقصان البشر وشعوره الداخلى بحطته عن درجة الكمال التى خلق لأجلها فيحاول تكميل القصة بهذا الخيال فيبالغ فيه.

وأنا الآن اذ احاول تصوير هذا الحلم لكم وتمثيل هذه الحقيقة فى الإنسان لأخرج عن طبيعتى البشرية يغمرنى هذا الظمأ فأحاول ان احسن التصوير لاستدر عطفكم بإطرائى واحملك على الثناء على من حيث تدرون او لا تدرون، وقد لا اظفر بما يسكن اللهب من هذا العطش.

على ان قولى (أنا الآن..!) كلمة توحى بها لقلمى تلك الانانية التى خلفها الظمأ الى الشعور بأنى (أنا) كأنى اريد ان اقول لكم انا شيء لا كالأدمنين اذ لست مأخوذا بهذا الظمأ البشرى مثلهم متجاهلاً الانانية او حاط من قيمتها فى نفسى، فهذه محاولة نكران الانانية هى من الانانية ايضاً وكم يتواضع الإنسان ليمدح فيرتفع بهذا التواضع، فما أعظم مغالطاتك ايها البشر وما ادق التناقض فيك وما ابعد غور مركب النقص نفسك.

لا أطيل عليكم فى الخروج عن الموضوع وأظن حتى الان لم اظفر منكم بالرضا الذى آمله لإشباع نهى فياخييتى معكم، كما خبت مع رفيقى الملك، فأنى كما قلت غلظت فى قياس الملائكة على البشر كما غلظ ابليس فى قياسه، فان هذا الملك لما سمع ثنائى عليه جاعى بكلمة الحق المرة الا فى مذاق الملائكة الكرام فقال:

لا قيمة لثنائك عندي، فان كنت صادقاً فما ثناؤك بزائدي على ما أنا فيه وان كنت كاذباً فلا يخلق فى ما لم اخلق له فأنا أنا على كل حال، وانتم يا معشر الأدمنين ألم ينهكم مصلحوكم عن المدح مواجهة لأنه نقص فى المادح وحمل على ظهور الممدوح بالنقص اما نقص فى المادح فلا أنه من الكذب ان كان باطلاً ومن الملق واللغو ان كان حقاً واما انه

حمل للممدوح على الظهور بالنقص لأنه ان اقر ك على مدحك كان كمدح نفسه ومادح نفسه يقرئك السلام وان عارضك فقد كذبك وتلك صلافة يواجه بها المادح وهو محسن بالظاهر.

والله تعالى تفضل عليكم معشر الادميين ان خلق فيكم شهوة النفوق والجوع الى الشعور بالاهمية لأنكم مخلوق ناقص وجعل فيكم قابلية الكمال فكانت هذه الشهوة ضرورة لكم وتحتاجون الى إشباعها بالعمل للكمال والرفعة ولكن من نقصكم أيضا اكتفاؤكم في اشباعها بالخيال الكاذب اذ يكتفون بالشعور بأعينكم عند الناس وان كان لا ظل لتلك الاهمية في نفوسكم ولا تسعون للعمل المثمر في تكميل نفوسكم، فانتم ابدًا تريدون ان تكمّلوا النقص ان هذا الشيء عجاب ولذلك لازال البشر ناقصا وراضخا تحت نير الاوهام والخيالات.

اما انا فقد سقط في يدي وشعرت بخيبة ممضة تكشف حقيقة ما في نفسي عند هذا الملك الروحاني الذي اردت استخلاصه، والإنسان أكثر خيبة في الحياة عندما يتكون عنده الشعور بالنقص وبالأصح عند الشعور بان نقصه الكشف للغير، لاسيما اذا كان في ساعة محاولته الى اشباع شهوة الشعور بالاهمية فيقوى فيه العطش الى ذلك الشعور، لا قيمة للمال وهو زينة الحياة الدنيا ولا لشيء آخر اذا كان هذا الشعور بالاهمية متوفرًا عند الإنسان المسكين. أما اذا فقدته فهناك طامته الكبرى وخيبته العظمى لاسيما اذا اميط الستار عن نفسيته الواطئة التي كان يظن انه قد اسدل عليها ستار الحيلة والتمويه. وبعد الشعور بالخيبة أسفت على محاولتي الباطلة ولمت نفسي على عدم تقديري الامور بحقائقها وفهمت عندئذ ان حسن الطوية وصفاء النية لا يلزمه إلا الانخداع بالباطيل والطلاء والتمويه لا سيما اذا كان ذو النفس يرى الاشياء بمنظار الحق غير مثقل بالشهوات والعواطف.

وقد أدرك الملك المقرب مني هذا العراك النفسي فقال لي: على رسلك لا تذهب بك الخيالات والاهام فتصرعك مقهوراً فانك عندي في تقديري على حد سواء ان أسأت أو احسنت لان الاحسان لك والاساءة عليك ولا ينالني منها شيء، وليس في ما يدعو إلى الغضب أو الرضى، وإن صح مني التأثير فعليك لا منك. وفي البشر منكم من تبلغ نفسه الكبيرة الى هذا الحد من التنزه عن التأثير بالعواطف والشهوات وهم القليل النادر بل أقل من القليل كالأنبياء والأوصياء فتسمو بهم نفوسهم إلى أرفع من منزلة الملائكة المقربين لأننا نحن الملائكة ليس فينا هذه العواطف والشهوات وهؤلاء لا يتأثرون بها مع وجودها فيهم فما أعظم الفرق بينهم وبيننا وما أعظم الفرق بيننا وبينكم معاشر البشر الباقين.

الإسلام ووسائل المستعمرين..^(١)

بين يدي رسالة من وراء البحار بعثها الي شاب مسلم طالب في البعثة العراقية. بعث بها الي ليخبرني مستغربا - وكأنه اكتشف شيئا جديداً لم يكن بحسابه - عن كذب الغربيين على الدين الإسلامي والمسلمين وعدائهم لصاحب الرسالة ﷺ، فحدثني عن كتاب باللغة الانكليزية؛ قرأ بعضه ثم رمى به متضجراً؛ فكان مما قرأ:

«أن محمداً اكتسب شيئاً من العقائد المسيحية وبعض النواحي من العقائد اليهودية وقليلاً من فلسفة الايرانيين وبعض الأحاديث العربية المنقولة على الألسن ورمى بنفسه بين جماعة من الذين يعتقدون بآرائه حتى كون ديناً جديداً».

«وأن العرب يعتقدون بالصحراء العربية جنة الباري ولا يعيش في هذه الصحراء عدا الباري».

«إن الحجاج حينما يدخلون بيت الله الحرام يعطون صكاً يضمن لهم الدخول الى الجنة».

ثم انفلت صاحب الرسالة يحرق الارم^(٢).

- أولاً - على رجال الدين عندنا لأنهم لا يتعلمون اللغات الاجنبية فيفوتهم الوقوف على امثال هذه الكتب المضللة والرد عليها.

و - ثانياً - على مدارس العراق الحديثة لأنها لا تسلح الطالب بسلاح المعارف

(١) نشر المقال في جريدة الهاتف لصاحبها جعفر الخليلي العدد ١٨٠ السنة الخامسة الجمعة ٢ / رجب / ١٣٥٨ الموافق ١٨ / آب / ١٩٣٩.

(٢) يحك أضراسه بعضها ببعض من الغيظ.

الإسلامية الكافي للدفاع عن هجمات أولئك الاندال (كما يصفهم).

لست أستطيع أن أصف مدى تأثيري بهذه الرسالة، ولم أتأثر لأن واحداً من الغربيين تكلم عن النبي فتناول وتحدث عن المسلمين فكذب وتناول العرب فرماهم بالخرق لأن كل ما قرأه كان كافياً وحده لتكذيب الكاذب نفسه فيغني عن دفاع المدافعين، وصدقني اذا قلت اني اتمنى على الغربيين ان يكثروا من أمثال هذا المؤلف الذي يفصح اسرارهم ويكذب أحذوشتهم ويكشف للشباب المتمسك بأذيال ادبهم ومدنيتهم أنهم ابعد ما يكونون عن الحق عندما يتحدثون عن الإسلام وأهله.

إن الجامعة الإسلامية كانت شكة^(١) في عين الغربي المستعمر، يراها قوة كبرى تقف سداً منيعاً دون استعمار بلادنا الإسلامية وكانت تتجلى له انها الصخرة التي تصطدم بها سفينة نفوذه في الشرق وقد تطلع الى استعماره ومع ذلك يخشى ان تصل شظاياها اذا اصطدم بها الى بلاده فتقهر مدنيته المزيفة وتذك حصون نصرانيته التي ناهضت العلم فناهضها حتى تغلب عليها فدبروا حملتهم الصليبية الثانية تحت الخفاء من طريق نشر مدنيتهم التي البسوها لنا لبوس المتمردين على الدين مناهضة للإسلام ويكفي الغربي أن يترك المسلم دينه ولو لم يتدين بعد ذلك بدين آخر - وبعد لأي وجهاد متواصل من جمعياتهم التبشيرية ومستشرفيهم وشركاتهم الاقتصادية نجحت خططهم الجبارة وساعدتهم الحرب العامة على اقتسام بقية البلاد الإسلامية فكان ما كان.

هذا هو خطر الغرب على الإسلام وجامعته ولا ننسى أنهم بدأوا خططهم بإشعال روح القومية التركية في نفوس شباب العثمانيين يوم كان العثمانيون هم القائمين على شؤون الخلافة الإسلامية والذين بأيديهم مقدرات الجامعة الدينية حتى حاول الاتحاديون تترك الشعوب الإسلامية الأخرى، فأثار هذا العمل حفيظة هذه الشعوب

(١) ألم حاد مفاجئ يصيب أحد أجزاء الجسم.

ومنها العرب وساعد على تغذيتها تشبع العرب بالروح القومية فكان الذي أراده الغرب وكانت الحرب العامة ايضا فقضت على آخر أمل في الجامعة الإسلامية التي كان الغرب يحسب لها حساباً.

ولا ننسى ان من خططهم نشر الروح اللادينية في مدارسهم عندنا التي على غرارها سارت مدارس المسلمين ومن طلابها كان أساتذتنا حتى في عصر العثمانيين، وفي كتبهم وصحفهم التي يدرسونها بيننا بالترجمة او عن طريق المستشرقين وبعض نصارى العرب واذناب الاستعمار منا.

وأشبعوا في أدمغة أبنائنا مناهضة الدين للعلم بصورة عامة، وصحيح ان النصرانية اصطدمت بالعلم فطاحنا زمنا حتى صرعها، ولكن الدين الإسلامي أرحب صدراً وهذا قرآنه العظيم يحث على التفكير في النفس والكون لولا ان سداجة المسلمين أغفلتهم عن اكتناه هذه الحقيقة؛ فراح يركض المتطلع منهم الى مدينة الغرب وراء مظاهر العلم الحديث باعتباره يناقض الدين الإسلامي، وكان من طبيعة الحال ان لا ترضي هذه الظاهرة رجال الدين فيتقززون؛ وتقززههم هذا بدوره يؤيد حجج من يزعم مناهضة العلم الدين...

وهكذا أخذ العلم والدين اتجاهين مختلفين في نظر أصحابهما بالرغم على تصالحهما أنفسهما.

وهذا كله من عمل الاستعمار ودسائسه التي لا يمكننا النجاة منها ونحن سائرون على ما نحن عليه من التفكير الالهوج والضعف المسيطر على جميع نواحي حياتنا وهذا هو الذي نحذره من الغربيين لا أحاديثهم المكشوفة المفسوحة واعتقد ان الزمن ينتظر مصلحاً جباراً يوقظ المسلمين من ردتهم ويكشف لهم كيف ضلوا ضلالاً بعيداً وطوحوا برسالة محمد (صلى الله عليه وآله).

أرجع الى حديثي الأول: ولم أتأثر اذ تأثرت عند قراءتي الرسالة لأن واحداً من الغربيين طعن في الإسلام والمسلمين بهذا الشكل المفضوح حتى عند هذا الشاب الذي لم يترب تربية دينية بل اتمنى عليهم - كما قلت - ان يكثروا من هذه المؤلفات ولكنني تأثرت على هذا الشاب المسكين ان يكون مخدوعاً بنتيجة تربيته فيعتقد في الغرب والغربيين اعتقاد التقديس فيستفزه ان يرى واحداً منهم يكذب من غير انصاف ويطعن في أعظم شخصية في العالم من غير برهان واذا كنا ننعى على هذا الشاب اعتقاده بهم فإننا ننعى تربية مدارسنا ومعاهدنا لأنها لا تخلق شباباً يفهمون نفسية الغربيين حول الإسلام والمسلمين وما دبروه ويدبرونه لنا تحت الستار من دسائس يندى منها جبين الإنسانية؟ ويقشعر لها العدل والحق؛ وقد نصبوا شركاً لاستعبادنا وحفروا لنا هوة من التمرد لاقتناصنا وجعلوا الإسلام عدة لاستئثارنا.

لو كشفنا لأنفسنا نياتهم لما ذهبنا نلتمس مساوئهم لنا حسنات ووحشتهم مدنية وفضائحهم مفخرة، ان الشاب فينا ليتناول ان يأخذ من الغربي مصطنعاً من ترفه وظاهرة من أرستقراطيته ونموذجاً من اخلاقه المائعة وينسى ان قوة شخصية الغرب هي سر تفوقه وارادته الصارمة هي منبع سيادته وتفانيه في مصلحة بلاده فوق الاعتبارات؛ وبعد كل ذلك - عقله الجهنمي المخترع ضمن له حياة القوة والرفعة دونك ايها المسلم المسكين؛ فمن هو المسؤول عنك؟

كيف يتدرج الغربيون في هدم المدنية والدين؟^(١)

نظرية التدرج

إن تدرج الإنسان في أعماله وأفكاره وشؤونه السياسية والاقتصادية هو اساس تطوره الحيوي وبه يستطيع ان يأخذ وسائل الفوز في معترك هذه الحياة ولا يكاد يبلغ الإنسان بسيره المرحلة الاخيرة من غايته التي يتوخاها قبل ان يقطع المراحل والحلقات التي بينه وبين المرحلة المقصودة.

ونحن نستطيع ان نطل على التدرج من نافذة الفلسفة فترى ان من أول المستحيلات ان يحصل شيء تدريجي بحسب ذاته دفعة واحدة بدون التنقل في منازل تدرجه المتربة وجودا وهذا ما يسمونه (الطفرة) كما انا إذا اشرفنا عليه من نافذة الاستقراء نعتقد انه لم يحصل شيء في العالم من اعمال الإنسان وافكاره منذ خلقه، الا وكان مبنيًا على هذا الناموس الذي يصح فيه ان يقال هو (ناموس الحياة).

وعلى الأخص ذلك في الحياة الفكرية وتوفر عقلية البشر الفردية والاجتماعية وعليه كان نزول الشرائع والاديان المقدسة فانك لترى التفاوت البين بين الشريعة المحمدية والديانة المسيحية وكذلك الاخيرة بالنسبة الى ما قبلها فلم تزل الاحكام الألهية تنتقل في نزولها على الانبياء من المنزلة الضعيفة الموافقة لعقلية المجتمع في زمانها الى منزلة اقوى الموافقة لزمانها ايضا حتى انتهت الى الحلقة الأخيرة وهي الشريعة الإسلامية المقدسة التي أصبح بها نبينا ﷺ خاتم النبيين.

كما ان نبينا محمدًا ﷺ نفسه في تبليغ احكام شريعته سار على هذه القانون حتى كان

(١) نشرت في مجلة الهدى، السنة الثانية الجزء الأول ١٩٣٠ وما بعدها.

في ابتداء البعثة يكتفي من اسلام المسلم بالشهادتين ولم تزل تتوارد منه الاحكام وقوانينه المحكمة على التدريج حتى جاء قوله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^(١).

هذا هو ناموس الدين الإسلامي وهذه هي أسسه التي قام عليها حتى انتشر في العالم هذه الانتشار الغريب وأصبح نوره يتلألأ في جميع قارات العالم وامتد رواقه من الشرق الى الغرب. ولكن بعد لأى انقلب علينا الامر وتمسك اعداؤنا بقوانينه المحكمة فاثالوا يتدرجون في هدم صراح ديننا ومدنيتنا ورحنا نلتمس الفرج لننجوا بأنفسنا (وَلَا تَحِثَّ مَنَاصِيْرُ) ^(٢) من مقابلة هذا السيل الجارف الذي تسلق علينا من قمم هذه الجبال التي نصبتها (الأجانب) فوق رؤسنا!!!!.

أقام الغربيون قيامتهم على المسلمين بحروبهم الصليبية (البربرية) فدمروا وخربوا وسفكوا الدماء وأزهقوا النفوس وهتكوا الحريم و. و. الخ. حتى إذا هدر فنيق المسلمين بعد الموت الاحمر استخلصوا البلاد من ايديهم وولوهم الدبر ناكسين وما استطاعوا بذلك (وهيهات) أن يؤثروا على الفكرة الإسلامية بل ما اشتد المسلمون الا تمسكا في دينهم وعقائدهم.

ولكن ما خمد وطيس تلك الحروب الهمجية المشؤومة الا عن خود نور الشرق الوضاء وما تغرى الليل عن صبحه الا على فوز الغرب بعلوم المسلمين وآدابهم في حين ان المسلمين قد انطفت جذوة نارهم وضعفت قواهم وتفتت شملهم حتى اصبح الغرب مهد المدنية بعد ان كانت أوربا مظلمة بجهلها وتوحشها فارتقى الجو واخذت له الارض زخرفها وظن اهلها انهم قادرون عليها.

(١) المائدة ٥: ٣.

(٢) ص ٣٨: ٣.

(فمتى يأتيها أمر ربنا؟)

وعندئذ ربض الغرب بحجرة وتنحى جانبا تغلي مراحل بغيه على الشرق التعيس غضبا ينظر اليه شزرا والشرق في آخر نفس من الحياة كحالة المنتظر ينتظرون شهقته القاضية عليه حتى طفق الغرب ثانيا شاكي السلاح يفلي طيات الوسائل لآبادة الشرق ويسعى لتدمير الإسلام (لا قدر الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره...) يجوب خلال عرصات الحيل فأفادته التجارب ان نفث ناعم سمه (على ناموس التدرج) بطرق متشعبة وسبل متفرقة فدس السم في العسل من حيث ندري ولا ندري ونحن قد توسدنا وثير الراحلة والكسل ولعلي الآن المسك شيئا منها (وإن كانت لا تعد) ثم لنرى ما حالتنا إزائها؟

المدارس

المدرسة هي الأم العطوفة التي تغذي أبناءها من لبنها صفا أو تكدر، المدرسة هي الآلة (المصورة) التي تطبع على زجاجة قلب الطفل الرقيق التي تقبل كل صورة تمر عليها، هذه هي المدرسة وما أجلها لو غدت ابناءها من لباب الاخلاق الفاضلة ورسمت على زجاجة قلبه الصور الجميلة.

أجل ما أجلها ولكن من هو المصلح يا ترى؟!!!

ومذ عرف الغربيون ما للمدرسة وتأثيرها في نفوس الناشئة اقام المبشرون منهم المدارس الابتدائية والكليات في العالم الإسلامي فاوثقوا عراها ليدسوا فيها ناعم سمهم وهذه دسيمة موبقة. فأنهم لما رأوا ان من وشجت عروقه على الإسلام ونبت لحمه وعظمه على حب محمد ﷺ كان من الصعب بل من المستحيل ان يدخلوا في ديانتهم أهواءهم ويجعلوه نصرانيا أو ملحدا فنصبوا دور مدارسهم لاجل تعليم اطفالنا كنانة لسهام ضلالهم ومضمارا لجولان خيول فسادهم وبغيهم ولكن باسم العلم والمعارف باسم الرقي والنجاح الى آخر ما هنالك من كلمات الحق التي يراد بها الباطل والقشور

الرائقة التي لبأها الفساد ليضلوا المسلمين (كما قد أضلوا!!!) باسم العلم والمعارف والنصح والارشاد لهم ونحن في سكرة لاهون.

فهل ترى أيها المسلم المستضعف ان هذا كله حب للإسلام وأهله ونصيحة للشرق وبنيه؟....

وان أنس لا أنس ما ذكرته (العرفان) الغراء في أحد اجزاء المجلد التاسع عن كتاب اسمه (مختصر تاريخ فرنسا) وجد في يد تلميذ من تلامذة احد مدارسهم يدرس فيها هذا الكتاب وقد نسب في هذا الكتاب الكذب الى نبينا ﷺ كأنهم تخيلوا هو مسيحيهم الموجود في انجيلهم وقد نسبوا اليه كل شناعة وقبح قاتلهم الله تعالى. وهذا نص بعض عبارة هذا الكتاب المترجمة وناقل الكذب..

(العرب أصلهم من البلاد العربية اعتنقوا دين محمد الكاذب «؟» الذي فرض على أتباعه واجبا مقدسا وقد نشر دينه بقوة السلاح «؟»)

لله أبوك أيها المسلم كيف حفظت دينك بتقليدك للغربيين كيف أخذت مكانتك العالية من الرقي بتخلقك بأخلاق اعداء دينك؟

وأضف على ذلك ان الإنسان بغريزته ميال لمعلمه واستاذة ويجاهد عن حقوق مربيه بلغ ما بلغ، فلقد اثر اختلاف نزعات تلك المدراس في خصوص مصر وسوريا التي منها الإفرنسية والامريكانية مثلا على فكر تلاميذها من التشاحن والتباغض مما يجعل مستقبل المجتمع الإسلامي مهددا وصرح الوحدة منقرضا فقد ترى أخوين يتباغضون كما سمعنا كثيرا ليس الا لأن احدهم في مدرسة امريكية والآخر في مدرسة فرنسية مثلا، وهلا ترى ذلك هينا؟ كلا ثم كلا، فان اختلاف هذه النزعات بمثل هذه الاختلاف مما يوجب بعد حين نقض صرح الوحدة الإسلامية بالطبع من حيث لا نعلم بعد ان كنا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

فأين هذه البنیان المرصوص أيها المسلم. الا يحق لنا ان نبكي دما وماذا يجدي! هذه هي مدارس الاجانب في العالم الإسلامي ومن نهرها اغترفت مدارسنا نحن المسلمين وعلى وتيرتها جرت هذه هي مدارس العراق هل تشك بأنها مدارس اسلامية.. كلا. لا اشك ولا نشك ولكن لماذا قد أهملت النقطة الدينية كل الاهمال. واضف على ذلك انه ربما يلقي المدرسون على تلاميذهم امورا يلقونها على بساطتها وكثيرا ما تنزل في عقائدهم وتوجب لمقاومتهم الدين واهله.

إن المدرسة لا شك بانها تحدث روح النشاط في الطفل والاعتماد على النفس وتملئ نفسيته بروح وثابة من الشجاعة الأدبية، تجعله بعيدا عن التقليد (لكن لا عن تقليد الغربيين حاشا) حتى اذا كملت تلك الروح فيه وتشبعت نفسه بالاستقلال الفكري نظرا الى ما حوله من المعتقدات الإسلامية والطقوس التي اعتادها المسلمون وهو لا شك فارغ الوطاب من معرفة الإسلام وحقيقته ضعيف في التربية الدينية وقد يكون مملوء الفكر من الشكوك في الديانة الإسلامية فيصبح (وهو يريد ان يكون بزعمه مجتهدا في اصول دينه) في ضلال وهو لا منجاة له بها فيغرق في بحار الشكوك والاوهام وتنزل قدمه عن الجادة الطريق في حين انه قد اخذت بمجامع قلبه آراء الغربيين وأعداء الإسلام. ويعتقد ان السؤال من اهل الدين منقصة له وسقوط لأنهم كما يزعم خرافيون ولأنه كما يعتقد متنور الفكر ولأنهم.. ولأنه... هكذا تكون ابناء مدارسنا اليوم. فما الحيلة..

رفقا يا والد الطفل الشفيق بولدك العزيز

رفقا أيها المدرس بمن جعلوك عليه امينا وحافظا على أخلاقه وتربيته.

رفقا يا أولياء الأمور وهؤلاء ابناء مستقبلكم رفقا ثم رفقا وما يجدي قولك رفقا.

أترى ايها الوالد الشفيق تأمن على ابنك من الغرق اذا ولج في امواج البحر المتلاطم

وهو غير عارف بصناعة السباحة في شيء. أتطمئن نفس على اقدامه هذا. كلا ثم كلا فما بالك ان تدع ابن اليوم ورجل الغد يلج هذه الغمرات والامواج المتلاطمة من الشبهات التي لا يستطيع على ولوجها الا العالم التحرير ألا تراقب حركاته واخلاقه وهو ضعيف المبادئ والمعلومات عن حقيقة دينه وشريعة نبيه قد خرج من حضن امه الحنونة وهو لا يعرف الا ان يأكل ويشرب فدخل في هذه اللهوات..

فماذا يكون مستقبل هذه الامة؟ وما بال مدارسنا لا تعلم ابناؤها الثقافة الدينية وتنهج لهم منهجا يسلكون به صراطا سويا حتى لا نخشى عليهم يومذاك من الغرق الاكبر. لا اريد ان تقيد فكره وتمنعه من الدخول في مسارح الحرية الفكرية، لا اريد ان تضغط عليه من استنشاق نسيم الحصافة لا لا. لكنني اريد ان تجعله قبل كل شيء ماهرا في فن السباحة حتى لا يخشى عليه من اقتحام المهالك والتوغل في الشبهات ليس الا. فأين هم اولياء الامور اين الحمية الإسلامية اين النعرة الدينية.

إيه أيها المدرس المسلم، رحماك فحافظ على من قد ألقوا اليك قياده وحاذر من ان تلقي عليه ما لا يتعقله عقله القاصر من المبادئ الدينية وحاسب نفسك امام وجدانك اذا وفدت على صاحب الشريعة ﷺ أما سمعت عنه ﷺ حيث رأى اصحابه يخوضون بعد ان غضب حتى احمرت وجنتاه «أفبهذا أمرتم تضربون كتاب الله بعضه ببعض انظروا الى ما امركم الله فافعلوا وما نهاكم عنه فانتهوا».

ولكن اين المسلم؟

أما اهمال النقطة الدينية في مدارسنا اليوم تعرفها من أمور:

(أ) عدم اقتناء رجال عارفين متدينين لتدريس الدين فانك ترى ان جل المدرسين للدين من اضعف المدرسين علما وعملاً.

(ب) عدم تدريسهم الامور الجوهرية التي تنمو بها اخلاقهم الدينية وانما يدرسونهم

امورا اشبه شيء ببناء الحائط بغير اساس وهناك الطامة الكبرى!.

(ج) عدم وضع كتب كافية في مهنة تدريس الدين بل يلقوا ذلك على عاتق المدرس الذي كثيرا ما لا يكون من المدرسين فربما يخطب عشواء فلا يأتي الا بالمضر في عقائدهم الدينية في حين انهم فارغو الوطاب.

(د) عدم اقتناء الوسائل المرغبة لتدريس الدين واهمال شؤونه الموجبة لسامة التلميذ وعلى اثر ذلك نقل بعض من تخرج من المدارس الابتدائية فقال انه كان الدرس الديني اثقل علينا من يذبل وأمر في افواهنا من الحنظل وما كنا نعتني اي اعتناء لا فيه ولا في مدرسة فقل ايها المنصف لماذا؟ ولم؟.

(هـ) عدم حث التلاميذ على الالتزام بالنواميس الدينية والاورام الشرعية ان لم يحثوهم على العدم كما قد يتفق. نعم في وزارة السيد عبد المهدي دخل ذلك في منهاجهم ولكن كان ذلك على الاجبار من المدرسين والتلاميذ وما كان بنافع اذا لم يكن عن داع ووجدان نفساني الى غير هذه الامور مما يزلزل وثوقنا بمستقبل شبابنا في الدين!.

وان اهمال هذه النقطة الجوهرية يا عزيزي في سعادة قطرنا المحبوب اوجب جر الولايات على امتنا العراقية وسريان اوبئة فساد الاخلاق في جسم عراقنا...كم هتاف ارتفع الى عنان السماء وشكوى ملأت الاقطار كما ضجت به بعض الصحف العراقية مما تصنعه ايدي بعض المدنسين الجانية ما يأبى القلم عن سطره وتشمئز منه النفس عند ذكره وما يبعث على اليأس من حياة قومنا الاخلاقية وان من خاض شؤون المدارس اليوم ربما يستطيع ان يطل على ما في مدارسنا من الاوبئة وامراض داخلية مما يجر الخطر العظيم على الناشئ ومستقبله ويجعلنا نصفق الراح بالراح أسفا!

وخصوصا ترى ذلك في ايام الامتحانات العمومية فكم ترى من كسول قد اخذ الدرجات الرفيعة، ونشيط قد سقط الحضيض الاسفل من درجاته ولماذا؟....

اللهم رحمتك وغفرانك..

وان ذلك مما يستلقت انظار اولياء الامور ويجعلها مهمة باصلاح هذه الامراض ولكن لا ترى الا السكوت والاعراض أليست مدارسنا اسلامية؟

بلى انها اسلامية لكن اولياء الامور شاءوا ذلك ما شاءت لهم اغراضهم، أهل تذكر كلمات مزاحم الباججي يوم خاطب احد محرري الصحف الانكليزية عن خصوص مدارس العراق كما نشرته جريدة العراق قبل سنتين تقريبا وكيف كان مناويه ينوي ان لا يعرف التلميذ من الدين شيئا الا ما تلقاه من امه ينوي وينوي: الى آخر ما هنالك من المناوي المهلكة التي تجعل العراق مستريحا عن كل ضغط ديني، نعم هكذا ينبغي ان يكون المسلمون وهذه هي الغيرة الإسلامية والحمية الدينية....

دع عنك هذه وذاك وهلم معي الى (الشعبة الدينية) من الجامعة لنرى ما حظ الدين الإسلامي من بين جذرائها وكيف تلقى التعاليم الصحيحة لتجعل التلميذ دينيا فأني لا انسى وقد سألت احد خريجي الجامعة في هذه السنة عن مقامها في الدين فقال لي: (اسم بلا مسمى..) أليس ذلك بعجيب؟ ألم يدرس فيها فلسفة الدين الإسلامي؟

العادات القديمة

ان من نظر بالنظر المجرد عن غبار الكلل ومسح عينيه عن التشكيكات يرى ان الماضي هو اساس الحاضر والقديم لحمة نسيج الجديد وعلى ذلك بنت الأمم المتمدنة حياتها المدنية حتى اصبحت بعض الامم تتحل لها ماضياً تفتخر به ولتصبح نشأتها مفطورة على حب الوطن والجهاد عنه حتى تتأسى بأجدادها فان تذكر حسنات الماضي روح النشاط في حياة الآداب القومية والدينية بل في كل شيء وعلى الاخص ذلك في امة كأمتنا التي لها ذلك الماضي النير السعيد التي بلغت في يومه تلك الحضارة التي طبقت الشرق والغرب من نهر تاج باسبانيا الى نهر الغانج في الهند ومن انوارها اضاء

هذا الكون في حين ان اوربا كانت مظلمة بجهلها وتوحشها كيف وفي مقدمتها محمد نبينا سيد البشر ﷺ.

ولكن ترى بعض المستشرقين الذين هم في همة انحطاط مدنية الشرق والإسلام ما زالوا ولن يزالوا يفوقون سهام ضلالهم ويشرعون رماح بغيتهم على ديننا المقدس ومدنيتنا (باسم العادات القديمة) في حين ان الشرقي ماثل امام الغرب رافعاً كلتا يديه تلقف كل جديد يمر عليه من الغربيين ابتدارا لبلوغ الحرية وطمعا في هنية العيش!! واستوسع رتق هذا الأمر علينا ان اظهر المبشر ان دينه على طبق المدنية والحرية في حين انه ابعد من السماء عن الارض عنها وابان الملحد ان تعطيله على ناموس النبوغ والتجدد الى ان سرى الداء الى نفوس جملة من قومنا فتمردت ارواحهم على كل قديم فانكمشوا عن الدين واهله والروحانيين واشياعهم حتى اصبح المتدين بينهم مدعواً بالتوحش والسقوط والروحاني موسوما بالجهل والخمول؟؟؟

وكاد ان يكون لفظ القديم والخرافة والتقشف والسقوط عندهم الفاظا مترادفة فعجوا من حيث يدرون ولا يدرون حبا للتجدد والحب... وكرهوا كل شيء تسمى سئمت كل قديم عرفته في حياتي

ولم يحسوا بالضرر الذي يحدث من هذه الترهات هذه الترهات الموجب لسقوط مدنيتهم ودينهم فاستسلموا لحكم الغربيين!! وما احسن ما قاله بعض المنصفين من الافرنج راجع العدد ٣٠ من جريدة (النجف) حيث يقول (ولست ارى سببا جوهريا يدعو الى تأخر المسلمين سوى تمسكهم بالحديث وتركهم القديم فانهم ركنوا الى المدنية والمدنية الحديثة قد تتفق وقد لا تتفق مع الدين الخ).

ولو كانوا متمدين كما يزعمون لاقتنوا الوسائل الكافية لترقية بلادهم ونشلها من هوة الجهل والانحطاط فما بالهم اصبحت غايتهم ملء جيوبهم من اموال الفقراء وجل

اغراضهم رفاهية احوالهم الشخصية فلا ترى في همة الطالب (الوطني) اليوم الا ان يجلس على كرسي (الوظيفة) ليقضم مال البؤساء قضم الابل (نبته الربيع) فاذا قبض على منشودته المحبوبة عض عليها بأسنانه والتحف معها بازار السكوت فينقطع عن كل ما يخص بلاده ووطنه وعن جميع ما يتعلق بقومه وامته اللهم إلا من شدّ وندروكم نرى (الشاعر) الذي مازال يطربنا بقيثارته والكاتب الذي يؤنسنا ببديع افكاره يقوم ويقعد في نصرة وطنه والجهد عن حوزته حتى اذا همست في اذنه نغمات الرواتب خمدت اصواته وخفقت حركاته كأن لم يكن... هؤلاء ابناء وطننا وهذه حضارتهم وهذا مقدار حماسهم على وطنهم (المحبوب!!) وياليتهم بلغوا من الحضارة ما بلغه الغربيون او نالوا واحدا من الف حتى يتركوا العادات القديمة الإسلامية ويتبذونها وراءهم ظهريا!!!

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتماعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل
ربما يظن القارئ بأنني واقف ثمة موقف التعصب لكل عادة قديمة على ان لا يمس
كرامتها يد التعديل والتغيير حتى العادات الخرافية لا، لا، يا ايها القارئ الكريم لا يخطر
في روعك ذلك بل انا اقول كما يقول (النقدي)^(١):

فلا أعادي قديماً ولا جديداً أوالي
أحب هذا وهذا لكن بشرط اعتدال

وانما غرضي التنديد على قوم خبطوا خبط عشواء وضربوا اخماسا في اسداس حتى
اضاعوا المشيتين فلم يميزوا بين العادات الحسنة والشوواء بعد ان اخذ بزمام آرائهم
تقليد الغربيين والتخلق بأخلاقهم وقد اجلسوا انفسهم في دست المصلحين لأمتهم في
حين انهم غارقون في الفساد حتى نالوا من قداسة الدين الإسلامي وتعاليمه وطقوسه
باسم التهذيب لأنفسهم ورفض العادات الفاسدة عنهم بما يعجز القلم عن بسطه

(١) هو العالم الأديب القاضي الشيخ جعفر نقدي رحمه الله.

ويكل اللسان عن بيانه.

بلى ربما يعرف البعض حقيقة بعض تلك التقاليد وغير هذه العادات ولكن ينال منها لحسبان انها عثرة في سبيل نهضة الامم وتجدها ولتمحضه في حب التجدد وتقليد الغربيين فيقوم يهزأ فيها ويندد على اهلها فرحمتك اللهم وغفرانك وان شئت فخذ مثالا مما تدمر منه بعض المتجددين وجعلوه موضع سخريتهم اعني به تشييد القبور حتى قال:

كم من قصور في المقابر او قبور كالقصور
هي صخرة (!؟) صماء (!؟) تكسى بالدمقس وبالحرير (!؟)

اخذوا هذا الرأي من الوهابيين مذ وقع عندهم موقع الاستحسان رغم ما ينادي به العالم الإسلامي على ضده وما جرت عليه سيرة السلف (الصالح) والخلف وما ادري ان كان تدمرهم هذه من الوجهة الدينية كما لهج به الوهابيون فهذا امر عند المسلمين ساطعة انواره بينة دلائله قد كفونا مؤونة بيانها حملة الاقلام من جهابذة علمائنا ادام الله شوكتهم وان كان من الوجهة المدنية الحاضرة الغربية فلا جواب لهم الا الغض ونبذهم في غلوائهم يخوضون على ان هؤلاء الغربيين الذين قد ألقوا زمام آرائهم وافكارهم اليهم وقلدوهم تقليد الاعمى ماثلين امامهم يشيدون الصروح لكبارهم ويزخرفون المقابر لعظمائهم اعلانا بعظمتهم وتذكارا لاعمالهم هذا تمثال (باستور) النابغة الفرنسي الذي لم تزل فرنسا تقيم له الحفلات والاعياد وتشاركها في ذلك الدول والحكومات.

ولا احيلك على امر لم تره عينك هلم الى بغداد وانظر الى تمثال (مود) ممتط جواده قائما امام الرائح والغادي وقس على ذلك واعتبر ولكن لا ارى هؤلاء يستندون على مبدأ يعتقدونه وانما ذلك اخذا بالمثل المشهور (خالف تعرف!).

التعصب العنصري والقومي

لكل فرد وحدة شخصية يمتاز بها عن شخصية مجتمعه الذي قد أصبح ذرة فيه اعني بها الوحدة الفكرية الوحدة الاخلاقية التي يصبح بها فردا منعزلا عن عقلية مجتمعه فيرى لنفسه كيانا اذ ذاك ليس للمجموع الذي حوله.

ولكن مهما بلغ هذا الفرد من هذه الوحدة الشخصية والاستقلال الفكري لا يتأتى له ان لا ينضم الى وحدة اخرى فوق وحدة تجعله ذرة من مجتمع وجزءاً من مركب فيتألف المركب الاجتماعي من افراده واجزائه بسبب وحدة مسيطرة على شخصياتهم وجامعة لقواهم هي الغاية من تأليفه حتى يصبح الفرد متفاديا عن مبدأ تلك الوحدة ومتعصبا لشخصيتها.

وكلما اتسعت تلك الوحدة وكبرت يتسع ذلك المجتمع وتتكاثر افراده مع مساعدة الظروف عليها فيقوى جانبه على حسب قوة اجزائه. في حين ان الفرد قد ينضم اولا الى وحدات اخرى اصغر واضيق مندكة في تلك الجامعة الكبيرة حتى تنتهي الى الوحدة العائلية التي هي مبدأ الجماعات. فالإنسان قبل كل شيء فرد من الوحدة العائلية ثم من وحدة قومه ثم وحدة بلاده ثم قطره ثم.. ثم.. الخ فترى تعصبه العائلي قبل تعصبه القومي والقومي قبل العنصري وهكذا.

إذا ضرك ايها (المحامي) ان تقوم جمعية مسلمة تحامي عن الإسلام دين الحق في حين انها لا تمس كرامة الاديان الاخرى بما يوجب تكدر صفو (وحدتنا القومية) التي تزعم انك تدافع عنها وانما كانت همتها مقابلة هذا السيل الجارف سيل الاستعمار ونقض دعائم الإسلام. ولو تأملت حسنا لأدركت «ان كنت منصفاً» ان بهذا ومثله تقابل مدافع الاستعباد فتسمى الروح الاجتماعية وتقوى في نفوس النشئ وتمنع من تحقيق ما تنزع اليه السلطة الاجنبية.

تقول ايها «المحامي» لا ادري كيف يتفق حب الوطن ونزعة الخضوع لعدو الوطن واقول انا لا ادري ولا المنجم يدري متى كانت النزعة الإسلامية والدفاع عن حوزة الدين الحنيف الذي بلغت به الامة الإسلامية ارقى مدارج العمران تعد نزعة اجنبية وخضوعا لعدو الوطن؟؟؟؟.

قاتل الله الاغراض وساحك ايها الكاتب ولا اقول اكثر من ذلك.

هكذا يذر الرماد في العيون ويستر وجه الحقيقة وهكذا اصبح المسلمون مستضعفين في عقر دارهم مأخوذا على ايديهم حتى عن الدفاع، ليت الكاتب تأمل وارعى ونظر الى جنبه مثلا «جمعية الشبيبة الارمنية» في بغداد أفهل كان الارمن اولى من المسلمين في انشاء مثل هذه الجمعيات في بلادنا؟

فيالعار ويالللشمار ويالسوء طالعنا غدا اذا كثر منا «المجاهدون عن الوطن»!.. مثل هذا المحامي وليته وقف على هذا الحد ولم يسترسل بكلامه فيمتدح جمعيات غير المسلمين ويقدح في هذه الجمعية المسلمة بزعم ان تلك الجمعيات غير الإسلامية لم تمنع المسلمين من الدخول وياليت شعري ما كان معنى لفظ الارمنية في هذه الجمعية فهلا يتملكه الاسى عند ذكرها؟؟

بمثل ذلك بذر الغربيون في نفوس المسلمين هذه الروح وعلى هذا المنوال جرت ناشأتنا وما هذا المحامي الا سنبله من تلك المزرعة وعساني الآن المسك ما اثره (التعصب العنصري والقومي) على بلادنا الإسلامية وكيف اصبحنا ازاء هذا الداء القاتل؟

بلى لقد اثمرت تلك البذور واعشبت في وادينا ان جعلتنا هباء منثورا شعوبا وقبائل وامما وعشائر ولكن بذلك اللباس القشيب والحلة الخلابة باسم الوطنية الصادقة واستقلال الشعب المفدي وباسم الالفة والاجتماع وما اصبحوا الا في ضلال بعيد وتشتت وشقاق فكيف ترى اوضحت العناصر الإسلامية وعلى الاخص العربية

والتركية والفارسية على طرفي نقيض وتضارب وجدال واضغان واحقاد بل الامة العربية (المظلومة) كيف اصبحت شيعا وابدديد سر معي من العراق الى سوريا الى مصر الى الحجاز الى. الى. الى ان ينقطع النفس وتمل من التعداد لنرى حالة امتنا الإسلامية ولنبك بسواد العيون دما وكيف عادت الوحدة العربية فضلا عن الوحدة الإسلامية من اول المستحيلات بل الوحدة السورية التي لم تكن سوريا إلا ذرة من تلك الجامعة القويمة كيف اصبحت من الاحلام والتمنيات وهي رأس مال المفلس.

نعم هكذا هبت تلك العاصفة وجرى ذلك الذعاف الممقر في نفوس المسلمين من حيث ندري ولا ندري ونسميه باسم الاجتماع والاتفاق وهو عين الشقاق والخلاف.

اني لا أكتب كلماتي هذه ولا اكتبها الا بمداد دموعي على اندراس معالم ديننا ومدنيتنا وأفول شمس عزنا ولا أسطرها الا بأحرف من قطعات نار قلبي الواجد يثيرها بركان مما اذكركه من اتحاد عالمنا الإسلامي في القرون الاولى حيث كان يرف عليه لواء النصر والعز تحوط بست جوانبه المنعة والدعة ومما اراه الان من اندكائك صرح مجده وتزعزع عرش وحدته.

أقول فأبكي وانعى على قومنا الذين قد اخذهم ذلك السيل بجميع جوانبهم ولم يتفطنوا الى ما حولهم فملك حواسهم ومشاعرهم ذلك (التعصب العنصري والقومي) الذي قد أفنى حياتهم واتى على روح مدنيتهم حتى اصبحت المشاحنة والبغضاء بين العناصر الإسلامية تتجلى بأجلى مظاهرها خصوصا بين العربي والفارسي والتركي على ما نسمع ونشاهد في بلادنا فعلى اي؟ ألم تكن تجمعنا الجامعة الإسلامية؟ التي لم تفرق بين العربي والفارسي والتركي والهندي والزنجي فلم اضعناها....!

هلم ايها المسلمون ما لنا لا نفتفي آثار ابائنا الكرام ونتبع ديننا القويم ما لنا لا نعمل لدستوره الاجتماعي وقوانينه الصادعة بخير المجتمع الإنساني؟

ألم ينهنا الله عن المنازعة باللقاب رافة بوحدتنا!

ألم يزر المسلم عن اكل لحم اخيه ميتا ابقاء لتحابنا!

ألم يردعنا عن ان نتنازع فنفسل فيذهب ريحنا!

ألم يامرنا بالاعتصام بحبل الله جميعا!

أليس قرآننا هو الناطق بهذه الآية الذهبية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ التي هي المسك...! أليس هو الناهي عن التفاخر بالانساب بهذه السبيكة المتلاثة ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ﴾ كما قال نبينا ﷺ نبي الرحمة «إنما أنتم من رجل و امرأة كجمام الصاع ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى» وقال ﷺ «لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى» وقال وقال الى ما لا يحصى ويعد....

أين انتم ايها المسلمون عن هذه السبائك الذهبية والقوانين الاجتماعية والتعاليم الدستورية ما لنا لا نسمع منكم إلا التشاحن والحسد والضغن والاحقاد والمنازعة والمهاترة... و. الى ما يضيق عنه النفس وتزهق عنده الروح.

رفقا بأنفسكم ايها المسلمون رافة بدينكم رحمة بجامعتكم حنانا على بلادكم ما لنا وفي كل يوم نسمع ونقرأ من السباب والمشادة بين المسلمين ما يقرح القلوب ويهمل الدموع وقد اصبحنا قاب قوسين او ادنى من السقوط والهلاك لا قدر الله واني لأعجب ممن يحمل على غير العرب المسلمين في بلادنا كما اتفق ذلك لبعض اهل الاقلام من المتشدين فطعن فيها باسم الانتصار للغة العربية ما ادري ماذا يحاسبون انفسهم اذا وقفوا امام نبيهم الذي صدح بقوله ﷺ (لا جنسية في الإسلام) حتى ملأ الاسماع والاصقاع.

أنا لا انكر على مثل هؤلاء (غيرتهم العربية) كلا. ولكن يجب ان لا يكون ذلك طعنا في الوحدة الإسلامية ونقضا لصروح الجامعة الدينية يجب علينا ان نجاهد عن لغة ابائنا لغة القرآن المجيد وديننا القويم ولكن لا يجب علينا ان نحط من كرامة باقي العناصر الإسلامية ونوقع البغضاء بيننا وبينهم فان لنا لغتنا ولهم لغتهم ولنا عنصرنا ولهم عنصرهم وللجميع وحدتنا الإسلامية التي تلم شعتنا وترأب صدعنا وديننا اول ما اشرق نوره علينا نحن العرب اكان من الحنكة والانصاف ان نساعد غيرنا في تهديمه؟ ونسعى في نقض دعامه؟ ألم يكن من الشيمة العربية رعي الذمام وحفظ العهد فهلا رعيننا ذمام نبينا العربي ﷺ في امته ودينه.

ولو كان همٌ مثل هؤلاء هو الانتصار للغة العربية فما بهم لو تكرموا بكلمة واحدة في شأن مدارس العالم العربي اليوم التي قد اصبحت ارقى دروسها واكثرها اعتناء هو درس اللغات الاجنبية حتى على درس اللغة العربية وقواعدها كما نشاهده في المدارس. لا اريد بكلمتي هذه ان اشنع على تدريس اللغات الاجنبية في مدارسنا كلا فان نفع تدريسها اليوم لا ينكره الا مكابر فانه قد اصبحت اكبر مدرجة لارتقاء قمة الرقي لما فيه من الاقتدار على تبادل الشرق مع البلاد المتقدمة في سياساته واقتصادياته. بيد اني اريد ان اظهر مقدار نصح هؤلاء وجهادهم عن اللغة العربية.

ولو تقول قائل واراد ان ينال من تدريس هذه اللغات انتصارا للغة العربية لا ينبغي ان يُصغى اليه متى ما كانت المدارس مهتمة في شؤون لغتنا اكثر من غيرها فان العربي لو اتقن لغته ولم يهملها فمن المحال ان يؤثر على لغته الاحتكاك مع اي لغة اخرى.

وان رأيي ان فساد اللغة العربية وهبوطها الى هذه الدرجة لم يكن لاحتكاك مع اي لغة كانت. بلى وما كان العامل الاساسي فيها الا تساهل العرب انفسهم وتسامحهم في لغة ابائنا الا ترى ان العرب في الجزيرة مع بعدهم عن الاحتكاك في اللغات الاخرى

كيف اكل الدهر على لغتهم وشرب؟ وزبدة المخض ان الاحتكاك ليس له ذلك التأثير في لغتنا لكن اهواء هؤلاء تصور لهم النملة بعيرا والذرة طودا فمتى ياترى ننبد هذا التعصب الذميم فتمسك بوحدةنا الإسلامية؟ الجواب يوم لا ينفع مال ولا بنون.

هؤلاء ابناء (يعرب) وآباؤهم اولئك الكرام الذين قام بسيوفهم الدين وبذلوا دونه النفس والنفيس وهكذا اصبحت هذه الاوبئة سارية في جسم مجتمعهم وغرتهم تلك الاوهام والفساسف فأضاعوا عزهم التليد ومجدهم الخالد فما ظنك بباقي العناصر الإسلامية وكيف لا يضربون على تلك الاوتار ويزيدون في الطنبور نغمة وفي المريض علة.

نعم، لا ان كان العرب قد نعموا على غيرهم فان عدااء هؤلاء غير العرب من المسلمين للعرب اشد وأعظم وما ذلك الا من نماء بذور التفرقة التي بذرها الغريبيون بين المسلمين لتفكيك عرى روابطهم الإسلامية التي كانت كلما تصوروها تهزم هذا وتلك الروح عمت المسلمين أعني التعصب الذميم.

فمتى يرعوي الغافلون ويتراجع المتشدقون؟ وانا لله وانا اليه راجعون؟

الختامة

لقد سمعت ايها القارئ الكريم في العدد السابق ما للتعصب العنصري والقومي، الذي نسليه بالغيرة الوطنية او الحمية القومية من الاثر على حياتنا الاجتماعية والسياسية ولعلي لم اوف الموضوع حقه او لم استطع تعبيراً عن المقصود من بعض الجهات.^(١)

وعلى كل فالنقطة التي يهمننا ذكرها هي الجواب عن الاسئلة الاتية:

(١) مع أن فضيلة صاحب الهدى الغراء قد أهمل من مقالنا بعض النقاط لفوات وقتها أو لأنه متمسك بقوله.. في فمي.... (المظفر).

ما كان أثر التعصب العنصري على حالتنا السياسية؟

أليس ان الدفاع عن حقوق العرب من اكبر المكارم للعربي؟

أليس ان النهضة العربية هي التي ايقظت قومنا من السبات العميق؟

أليس أليس؟... الخ

ولكن الجواب: -

(في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء)

على ان لا بد للمجيب مثلي ان يخرج عن حده ويدخل في مضيق دامس يعسر التفاهم فيه مع الغير وبطبيعة الحال نقع في مغالطة ومشادة لأن ابن الساعة لا يرى أمامه الا النهضة بعد الخمول ولا يسمع الا ضجة الاستحسان فلا يقابلنا إلا بالهزاء والاستخفاف - صبعا - ولأني من يؤيد هذه الفكرة من بعض الجهات فيما اعتقد بل من كثيرها قطعاً بل وكل عربي غيور.

فالحقيق بنا اليوم حيث دخلنا في هذا المأزق الحرج كرها واختياراً ان ننظر ماذا يجب ان نعمل ازاء ديننا وعربيتنا. ولا شك انه يعسر عليّ الآن ان اقوم بواجب الاحاطة بالموضوع حيث انه واسع الاطراف غير اني اقول كلمتي الموجزة وارجو بها السداد:

لنعلم (نحن العرب) بعد ان نجرد انفسنا عن كوننا مسلمين ان لغتنا وان بلغت ما بلغت اليوم من الانحطاط فلا ينكر ان للإسلام اليد البيضاء في حفظ كيائها وبقائها بما لها من هذه البقية الى اليوم وحتى قيام الساعة بل ولا ينكر ان تطور آدابها ورواج أسواقها فوق ما هي فيه انها كان بالإسلام وبتطور أهليه وان كانت لغة السواد الدارجة تقهقرت حتى انقلبت على الاعقاب واصبحت ضدًا للغتنا الاصلية بتمام معنى الكلمة بأي سبب كان. وقد تكلمنا عنه في العدد السابق اجمالاً ولكن بطون المجاميع والمؤلفات

- التي كان السبب الوحيد في جمعها وتأليفها هو اهتمام المسلمين بأمر الكتاب والسنة
- حافلة بجميع ما حواه لسان الضاد وما اودع فيه من نكات وبلاغة فلم تكن لغتنا
شاردة او واردة الا احتفظت بها هاتيك الكتب والتقطتها علماء الإسلام. فلو تصورنا
اليوم عود لغة ابائنا الينا والذوق العربي لما كان حلما من الاحلام كما ظنه البعض (وان
تعسر) بعد ان كانت المؤلفات وافية كافية بما نحتاج اليه في اعتناق لغتنا.

ولكن يا ترى انا نستطيع بعد ذلك ان نرفعها الى اوج الرقى او ان نحفظها على
سيرتها الاولى بدون الاحتفاظ على الإسلام ومبادئه. كلا ثم كلا بعد ان امتزجا فكان
الإسلام من العربية والعربية من الإسلام كيف نستطيع التفكيك الا ان نكون من
الممارين. فنحن من الوجهة العربية يجب علينا ان نقوم بالدفاع عن الدين الإسلامي
وتعزيز جانبه حفظا لعربيتنا التي قوامها بقوام ديننا القويم ومن الوجهة الدينية يجب ان
نحتفظ على عربيتنا دفاعا عن الإسلام فان بناءه الرفيع انما قام على دعامة اللغة العربية
الفصحى.

ولقد عرف بعض المتشدين^(١) هذه الحقيقة الراهنة وما للإسلام من
التوقف على اللغة العربية فحبذوا اقتناء اللغة العامية لكل قطر بقطره بدلا عن
لغتنا الفصحى فتكون لغة الصحف والمؤلفات وليس غرضهم الا هدم ديننا
- لا قدر الله - القائم على اساس لغتنا المحبوبة.

بلى.. ولكن انى لهم بذاك وانها لكلمة تضحك لها الصبيان فتعسا وترحا لعقول
خوت فلان تغاضى العرب عن دينهم اليوم وتناسوا ما لذلك من التأثير على الإسلام
فليس يخفى على عقول البسطاء منا فضلا عن أهل الرأي والعلماء ما في ذلك من تناسي
مجد ابائنا التليد وما يحدثه من تل صرح عزنا المشيد واللغة مرآة الامة تتجلى فيها نزعاتها

(١) كما نسب إلى سلامة موسى والخورى غصن وغيرهما.

وتطوراتها فكيف نضيع بيتا بنته لنا عشرات القرون بدموع آبائنا الكرام.

دع عنك هذا وذاك. ولكن هلمّ معي الى حالتنا الاجتماعية الحاضرة كيف تصبح فانه لو استبدل اللغة الفصحى - لا سمح الله - كيف تبقى الاقطار العربية ومواصلاتها وكيف تنحل الجامعة العربية وهل تستطيع ان تتعارف على اختلاف لهجاتها؟ وان في نهضة قومنا لكفاية وحجة بالغة في ردع مثل هذه الاباطيل والاساطير^(١) وما اشبه سخافة هذه النظرية بنظرية استبدال الحروف العربية باللاتينية.

كل هذا لا يهمننا الآن أمره فانه زقزقة عصفور أو طنين ذباب وانما الذي يهمننا ان نرى نهضتنا العربية مقرونة بالاهتمام لديننا المقدس والنهضة لرفع اعلامه وعندئذ نعتقد اننا قد خطونا خطوة نضاهي بها الامم الراقية ولكن نبصر بأمر رؤوسنا ان قومنا لا يزدادون يوما فيوما إلا تساهلاً في جامعتنا الإسلامية ومظاهر ديننا الشريف وكفاك دليلا ان اعوزك الدليل مظهر واحد من مظاهر عواصم بلادنا الإسلامية كعاصمة الرشيد! التي اصبحت كقطعة من البلاد الغربية في خلاعتها وفجورها وهي عاصمة اسلامية!! وجملة من ادبائنا قد اصابوا بداء الانتفاخ العقلي فتنورت افكارهم الى حد اصبحت بلادنا عليهم ليلا مظلمة فلا يلمون الا بتجلي صبح المدنية الغربية اي صبح الخلاعة والفجور ليس الا وحاشا ان يرون (طيفا) من صناعاتهم ومخترعاتهم ولو (كاذبا) فسئموا بلادا فيها اسم القيد الإسلامي وان كان بلا مسمى.

(١) غير أن بعض من قتلته نفسه حبّذت له أن يخرج إلى العالم الجديد بصفة كونه فيلسوفا - حيث إنه في هذا العصر يدعي بالفلسفة كل من أصبح في كلماته إيهام في الطعن في الديانات وطقوسها أو صراحة في ذاك كالمعري والحيايم وإن كنا ننزه المعري - فأصبح بعض (يزهد في القشور) أي في نقد الألفاظ فبودان ينقد نقداً جوهرياً حتى يجلس على منصة الفلسفة ولا يبالي في الغلط والخروج عن القواعد العربية وهدم أساسها وآخر امتلكته الحرية فيأمل نصبح أحراراً في كل شيء حتى في لغتنا وقواعدها فنطلق الألفاظ (المسكينة) من هذا الأسر والخناق.... فلله أبوهم على هذه الفلسفة..

وما أشد خجلنا معاشر المسلمين امام الاغيار وفي ملء بلادنا ترتكب محظورات شرعنا وتستباح حرمان ديننا بدعوى الحرية في الافعال والافكار وغيرنا يأنف عن ارتكاب مثل هذه الجرائم ولم يخف على احد ما لأمریکا من تحريم الخمر وغيره وما عليه من الاحتفاظ على المظاهر الدينية والالتزام بالنواميس الالهية ولا انسى ما وقع فيها قبل سنوات من سجن مدير مدرسة او جامعة على ما اتخطر المسمى ب (جون سكويس) حيث انه اقيمت عليه الدعوى بأنه يدرس في مدرسته مذهب النشوء والارتقاء. فهل كان هذا من التحجير على الافكار والعقول فما بالنا تستخف بأحلامنا خداع الاعداء واوهام المتهوسين فلئن اقتدت امريكا في بعض احكامها بديننا فهلا نفتدي بها؟

ألم نخجل وسوف لا ينفخ الخجل....!

واني ليمتلكني الخجل والاسف حينما اقرأ كلمة احد الافرنج في الإسلام (كما اشرنا اليه في مقالنا آنفاً) وقد نشرت في جريدة النجف المحتجة معربة عن الانجليزية ولا بأس ان اختتم المقال بذكر جملة منها فإنها لا تخلو عن عبرة قال بعد جملة كلام له في ترجمة حاله في الإسلام:

«ولما عزمت على اعتناقه - أي الإسلام - قطعياً، عن لبالي ان ادرس حالة الشعوب الإسلامية وأخلاقها وعاداتها فماذا رأيت؟؟ رأيت ديناً قوياً يهدي الى الصراط السوي قد تركه أهله وفشى الجهل بينهم وكثرت البدع وفتحت المدنية ابوابها الجهنمية فولوجوها غير هيّابين فنفرت من الجماعة ولما ضممني مجلس بادرنى احد الذين حاجوني فقال لماذا لم تعتنق الإسلام فاجبته مبتسماً خير لي ان لا اعتنق ديناً ضيعه أهله واذن لست اريد ان اعتنق ديناً اسير فيه وحدي وخير لي ان ابقى ببلادين!!^(١)

(١) وليت شعري ما كان ضره لو سلكه وحده وهل ترك أهله له عيب فيه ولو دخل هذا الرجل مثل النجف الأشرف لما كان منه ما كان ولكن لا يدخل الأمثل العواصم البعيدة عن الإسلام.

إن «الإسلام» دين الفطرة وهو أمر واضح وليس به عوج ولكنني أرى المسلمين يكتفون بأن يقال لهم (مسلمون) فقط فالنواهي التي نهى عنها الدين شائعة بينهم هم يملكون موبقات المدنية لقد نهى الإسلام عن الخمر وها هي أميركا تحرمه أجل ان أميركا بلاد الحضارة والمدنية الحديثة والديموقراطية البحتة تحرم الخمر وها نحن كذلك في أوروبا نرى الجمعيات تؤسس لمحاربة الخمر فلماذا يتشبه الغربيون بالمسلمين لا شك انهم يرجعون الى تعاليم الإسلام بعد طول السنين لأنها التعاليم الصحيحة.

نهى الإسلام عن التبرج والزينة للنساء الا لأزواجهن ونرى الغرب يحرمون دخول المتبرجات للكنائس، نهى الإسلام عن اختلاط المرأة بالرجل وليس يعقب هذا الاختلاط سوى ما نراه ونحسه من نتائج قذرة يمجها الشرف وتأبأها العفة... إلى آخر ما قال».

السواك^(١)

السواك من اهم ما كشف عن ضرورته العصر الحديث ودلنا على اسرار احكام شريعة الإسلام التي يعجز عن ادراكها البشر، وأنى لرجل قبل اربعة عشر قرناً وهو ابن الجزيرة العربية القاحلة الجاهلة ان يتوصل الى معرفة اسرار تنظيف الاسنان وفائدته لو لم يكن نبياً ولم تكتشف هذه الاسرار الا بعد تقدم الطب هذا التقدم الهائل في هذا العصر.

ومن يدقق الأحاديث الواردة في السواك يعرف كيف تنطبق على آخر ما توصل اليه العلم الحديث في فائدة السواك وفي كلفيته.

لقد استفاضت الأحاديث في ان السواك طهور للفم ويزيد في الحفظ والعقل والفهم والفصاحة ويذهب بالسقم وحفر الاسنان وبالنسيان ووسوسة الصدر ويبيض الاسنان وينقيها ويذهب بأوجاعها ويشد اللثة ويطيب الفم ويقلل البلغم أو يقطعه ويجلو البصر ويذهب غشاوته ودمعته وينبت الشعر ويشهي الطعام ويصلح المعدة الى غير ذلك من الفوائد غير الفوائد الالهية اذ به رضى الرب وثواب الآخرة.

وهذه الفوائد الكثيرة والعظيمة في وقت واحد قد نصت عليها الاحاديث بنفس هذه العبارات وقد يستكثرها الرجل الابتدائي على السواك ولذلك نجد جملة من البلهاء يستهينون باستعماله ولا يعيرون له اهتمامهم فيقعون بكثير من الامراض المزمنة، ولكن الاكتشافات الحديثة اثبتت هذه الفوائد والطب اليوم يعلق أهمية كبرى على السواك في

(١) جواب السؤال الذي وجهته نشرة البذرة لساحة الشيخ وهو: ما رأي الشرع والطب الحديث في السواك؟ السنة الأولى العدد الثالث بتاريخ الأحد ١/ جمادى الثانية/ ١٣٦٧ الموافق ١١/ نيسان/ ١٩٤٨ الصفحة ١٣٠ - ١٣٣.

حفظ الصحة حتى ان اكثر الامراض ينسبها الاطباء الى الاسنان من جراء اهمالها، وقد قال امامنا ابو جعفر الباقر (عليه السلام) (لو يعلم الناس ما في السواك لا باتوه معهم في لحاف) وهذا يدل على مبلغ جهل الناس يومئذ بفوائده وان علمه يختص بهم.

والنبي ﷺ كان يقول (لولا ان اشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند وضوء كل صلاة) وهو كان يستاك ثلاث مرات في الليل قبل النوم وبعده وقبل خروجه الى صلاة الصبح وهذا ينطبق تماماً على وصايا الطب الحديث في اختيار وقت السواك قبل النوم وبعده.

كما ان الوارد في وصف السواك ان يلين طرف عمود الأراك قبل السواك وتلين طرف عمود الأراك خاصة يجعله كفرشة الاسنان الغربية الحديثة، ونعرف من هذا سر تفضيل عود الأراك على غيره لأنه ليس كل عود يعطي هذه الصفة اذا لين، فان عمود الأراك الواحد يتألف من مجموعة عيدان دقيقة لا تتحطم عند الاستياك كشعرات الفرشاة وان كان السواك الشرعي يحصل بكل عود بل حتى بالأصبع والخرقة عند الحاجة ولكن الأراك هو المفضل عند تيسره لتلك الغاية وربما لغايات اخرى نجهلها. فلذلك يكون الاستياك في الفرشاة أيضاً من السواك الشرعي ولكن اعتقد ان عود الأراك افضل منها للأسنان بالتجربة لاسيما ان المعروف في الفرشاة انها مأخوذة من شعر الخنزير الابيض والخنزير في الشرع الإسلامي نجس العين وشعره كذلك لا يطهر بالماء ولا بغيره فلا يصح استعمالها والحال هذه لنا بالأراك غنى.

والوارد في كيفية الاستياك شرعاً يوافقه الطب الحديث ايضاً فان الاستياك الشرعي الوارد هو الاستياك عرضاً لا كما يستاك بعض الناس طولاً بزعم انه الاستياك الشرعي، والطب الحديث يوصي بالاستياك عرضاً حفظاً للأسنان من جهة، ومبالغة في تنظيفها وتنظيف اللثة من جهة أخرى.

كما ان الشرع يوصي بالمضمضة بالماء بعد السواك والطب ايضاً يوصي بها وكأنها من مكملاته ومما يلفت النظر في الأحاديث عن النبي والائمة عليه وعليهم الصلاة والسلام استعمالهم مختلف الاساليب في حمل الناس على اتخاذ عادة السواك فلم يرخصوا بتركه اكثر من ثلاثة ايام وحثوا على استعماله عند كل وضوء وكل صلاة وعند النوم وعند قراءة القرآن.

ولو احصينا الاوقات التي ورد فيها الحث عليه في كل يوم لها لنا العدد ولظننا ان ذلك ما ينهك الاسنان ولكن من العجيب ان الطب اثبت (ودلت عليه التجربة) انه كلما استاك الإنسان قويت لثته واشتدت وصحت اسنانه وان استعمل القوة في الاستياك على غير المألوف فما اعظم ما جاء به الشرع الإسلامي لو انا اتبعنا سبيله.

رسالة الحج^(١)

لمؤلفها الأستاذ ح. ع (دبلوماسي)

ناولني البريد بهذا الاسم رسالة صغيرة الحجم في فلسفة الحجّ وأسراره مطبوعة بمصر طبعاً متقناً، هدية من مؤلفها الأستاذ، فشاقتني موضوعها العالي لمطالعتها بانعام، وراق لي أسلوبها الفذ ومقصدتها السامي، وحملني هذا الزمن المناسب لغاية الرسالة أن أكتب عنها كلمة النقد، تقديرًا لجهود صاحبها وإعلاناً بغايته الكبيرة التي يتوخاها:

تعرف من الرسالة أنّ الرجل متأثر بمبادئ فلسفيّة روحية وبأخلاق إسلاميّة عالية، فينقلب بك من أطمار المادة البالية، إلى روحانية الإنسانيّة المجردة التي لا تبلى على ممر الدهور، يرتفع بك من حضيض دنيا الإنسان إلى مرتفعات قدسيّة الروح، ليوصلك إلى شهود المقام القدسي العالي، ويخرجك إلى الله متجرداً من شغل كلّ شاغل وحجاب كلّ حاجب.

كلّ هذا يريده أن يكون في الحجّ الإسلامي فيكون « هو انتزاع الإنسان نفسه من إقليمه وتجرده للحركة العليا ومجاهدته لما يمسكه في أرضه وخروجه إلى الله » ويوفق إلى ما يريده بمنطق هادئ صحيح وبيان واضح محكم، وساعده على ذلك أنّه أدى فريضة الحج ثلاث مرّات - كما يحدثنا في مقدمته - عن تدبر وتفكير فيدرس بفكره وعينه وقلبه، وبعد هذا تقرأه في الرسالة فيلسوفاً وأديباً كبيراً ومسلماً متفانياً في إسلامه وفوق ذلك دبلوماسياً يتحرى الاستفادة من الحجّ لمسلكه أو من مسلكه للحجّ.

ثمّ يستدرك للاعتقاد بأنّ المساواة العمليّة الصحيحة إنّما هي في الإسلام وفي الحجّ،

(١) جريدة الهاتف، السنة الأولى، العدد ٢٠، ١٩٣٦.

وبأنّ في الحجّ نظام جمعيّة الأمم الحقيقية القائمة على قانون الحرب... وفيه النظام الأعظم للكشفة الحديثة المصغرة عنه والمقتبسة منه في نظامها عند الأمم المتحضرة، وهو بنظامه جهاد للنفس و«مناورات حربيّة رويّة توجب على الجميع زياً واحداً وحركة واحدة وكلمة واحدة وطاعة واحدة، وتقرّ في أنفسهم فكرة التضحية حتّى بالأهل والمال في سبيل غاية عليا...»؛ وهو أعظم طريق لنشر الثقافة؛ واجتماع أساسه شهوداً لمنافع على عمومها، إذ يقول الله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾.

كلّ هذا تشرحه لك الرسالة تحت عناوين بارزة فتوفيقها حقّها بإيجاز وأسلوب فنيّ متقن، وعند هذا لا يسعك دون أن تشاطر صاحبها الأسف الممض على ضياع هذه الجامعة الأُمّية الكبرى من أيدينا التي ما حلم بها الزمن ولن يحلم بها لغير الأُمّة الإسلاميّة الغافلة أو المتغافلة - وأسفاه! - فلا تستغل منها منافعها الاجتماعيّة التي وضعت لها «والحجيج إنّما يؤدّون عملاً فرديّاً محضاً، ولا يعرفون إلّا ظاهراً من الأمر، فيذهبون إلى الحجّ ويعودون منه كذهابهم وعودتهم من أي سفر إلى أي مكان»، «وبهذا ضعف أثر الحجّ في الإصلاح الاجتماعي وتجرد هذا العمل السامي العظيم من أكثر مميزاته السياسيّة والاجتماعيّة».

والحقّ أنّ الحجّ عمل فردي رويّ وعمل سياسي في وقت واحد: عمل فردي، لأنّه يقصد به تصفية النفس وانقطاعها إلى روحانيّتها لما فيه من التنزه عن الشهوات والكف عن اللذائذ الحيوانيّة والانقطاع عن بهرجات الدنيا بالانقطاع عن الأهل والأوطان والآمال وتوطين النفس على الأعمال الشاقّة متوجّهاً في ذلك كلّ إلى المعبود الخالق؛ فهو رهبانية موقّعة أبدل بها رهبانية النصارى - كما ورد في الأثر، ورجوع بالإنسان إلى طهارة الطبيعة بطريقة عمليّة منظّمة - كما يقول مؤلف الرسالة - وبه تتحقّق دعوة (روسو) إلى الرجوع إلى الطبيعة وأكثر، لأنّه يدعو إلى الطبيعة نفسها والحجّ يدعو إلى طهارة الطبيعة،

ودعوة روسو مستحيلة لأنّ العالم ما زال يتطور ويتنازع البقاء وأسباب الحياة، ودعوة الإسلام دعوة عمليّة واقعة واجبارية.

وكّل ما في الحجّ من أعمال فهو رموز إلى تجرد النفس وقطعها عن علائق دنياها وتوجهها إلى خالقها، وهنا نرى صادق آل البيت عليه السلام يقول - من حديث يوجهه لمن يريد الحج -: « ثمّ اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك، والبس كسوة الصدق والصفاء والخضوع والخشوع، وأحرم من كلّ شيء يمنعك عن ذكر الله ويحبّجك عن طاعته، ولب بمعنى إجابة صادقة صافية خالصة زاكية لله تعالى في دعوتك متمسكاً بالعروة الوثقى، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت... » إلى آخر الحديث، وفيه الكثير من أسرار الحجّ وأفعاله الروحيّة، وهذا الحديث يدلنا على أنّ ليس المقصود من هذه الأفعال ظواهر، المجردة، التي يفعلها سائر الناس من غير تذوق لأسرارها الروحيّة وعمل اجتماعي سياسي، لأنّه يحشر المسلمين إخواناً في صعيد واحد يتلقون وحي الوحدة الإنسانيّة في كلّ شيء من أعمالهم ومناسكهم ويتحدثون ويتعارفون ويتشاورون منقطعين عن كلّ مميزاتهم القوميّة وخصائصهم الشخصية إلاّ عن شخصية وميزة واحدة هو الإسلام الذي ينضوون تحت لوائه المرفرف عليه بأدقّ معاني الإنسانيّة الصحيحة وهو لباسهم الديني الواحد الذي يشترك فيه الملك والضعفوك.

فتمثل الأخوة الإسلاميّة الحقيقيّة لا تدليس فيها ولا تدجيل، وتتجلى الوحدة الإنسانيّة من جميع أنحائها في شخصية الإسلام الذي شرح للإنسان المجرد عن كلّ ميزة باطلة؛ فهذا الاجتماع وهذه التلبية وهذا الطواف وهذا السعي وهذا الوقوف وهذا الرمي... كلّها تسبك لك الإسلام مجرداً في قلبها وتسبك لك الإنسانيّة مجردة في قالب الإسلام.

ثمّ بعد ذلك هو مؤتمر عام لجميع المسلمين ودولاتهم المتباعدة يتناشدون فيه مصالحهم العامّة - لو صنعوا.

ويملك المؤلف أسراراً في مناسكه في الإحرام والطواف والسعي والوقوف في عرفات والرمي والضحية واستلام الحجر الأسود والتبّية، فيأتي لك بطريق من بعض أسرارها يساعده على ذلك علمه وأدبه الجم.

ففي الاحرام تظهر حكمته في تغطية جسم المحرم بملاءتين غير مخيطتين، لأنّ بهذا يتقلص التفاوت بين الناس؛ «فتحقق المساواة من أساسها الطبيعي... وتظهر الإنسانيّة في الحجّ ببساطتها الطبيعيّة وتسقط الدنيا الصناعية الكاذبة التي هي منار الأحقاد... والإحرام على هذا الوجه... من طرق التربية الرياضية يثبت الطب منفعتها...».

ولكن الاحرام كما فيه تغطية الجسم بثوبين غير مخيطين، ففيه أيضاً كشف الرأس، وحرمة الطيب والصيد وقطع الشجر والاستمتاع والفسوق والجدال... وكلّه انقطاع عن لذائذ الدنيا وزخارفها وابتعاد عن أهواء النفس ونزعاتها ممّا يزيد في المساواة والاتجاه نحو مقام الشهود، والاعتقاد على شظف العيش والتربية العسكريّة.

وفي الطواف: يفصح المحب لله عن حب، بأحد طريقتين لا يخلو منهما موقف الإنسان المتسع العقل حيال فكرة من الأفكار، إمّا فكر مقرون بالسكون والهدوء، أو فكر مقرون بالحركة والعمل؛ فيعتمد الحاج إلى الطواف حول البيت بالطريقة الثانية، وما هو إلّا مظهر خارجي لنار الحب المشتعلة - ولكن هل لنا أن نتساءل عن السر في جعل الطواف على الجانب الأيسر؟

لعلّك على ضوء كلمة الإمام الصادق (عليه السلام) (وظف بقلبك...) تجيب على ذلك والقلب يميل إلى الجانب الأيسر من الإنسان فيطابق الظاهر الباطن في الاتجاه، ويرمز

المحسوس للمعقول في طوافه وما أكبرها من حكمة؟

وفي السعي بين الصفا والمروة: « اتصال بين نفس الحاج وبين النفوس العظيمة التي عرف بها الصفا والمروة »، وعبر تأريخيّة - ذكرها المؤلف - يتمثلها الساعي، ووحى المكان هنا وهناك درس فلسفي عظيم فصله المؤلف - ولكن لم لا تكون هرولة الساعي أيضاً كهرولة المتردد بفناء دار ملك كبير، يقصد أجره ويخاف قوته ويرجو ملاحظته بعين رحمته؟!، وفي السعي أيضاً نزول عن كبرياء النفس الشامخة بطغيانها وإرغامها على العمل بالواجب مهما كان لا يتفق مع أهوائها وكبريائها، ولعلّ في الهرولة ما يلفظ من كبرياء النفوس أكثر من كلّ عمل في الحجّ!

وفي المواقف والرمي والضحية: نظم وعادات حربية، وتربية عسكرية بما فيها من أسرار أشار إليها المؤلف.

وفي الحجر الأسود: « رمز لهد الكرة الأرضية كلّها يلمسها الحجاج جميعاً كأنّهم يشيرون إلى توحيد بلادهم المختلفة تحقيقاً للمساواة في الإسلام، حتّى في الجنسيات الأرضيّة... وبمصافحة هذا الرمز يكون كلّ مسلم كأنّها صافح بيده وطن الآخر مصافحة الأخوة... ».

ولكن لم أستطع أن أتكهّن في تعليل هذا الرمز للكرة الأرضية إلّا من وجهة التحديب الذي في الحجر، وفي عقيدتي أنّ هذا غير كاف لأن يجعله رمزاً لهذه الحكمة البالغة يمكن أن يتفهّمه النار من دون التدليل على أنّ الرامز قصد هذه الدقيقة في رمزه، ولعلّ ما نقله صاحب الرسالة عن الفقهاء - والحديث وارد فيه - هو الأصوب في سرّ استلام الحجر، ويتفق ذلك مع نزعة المؤلف في فلسفته الروحية إلّا أنّه يخرج بذلك عن مصلحته الاجتماعيّة السياسيّة التي أرادها مصلحة فرديّة، ولكن مصلحة الفرد في تهذيبه مصلحة للمجتمع، وعلى كل فال المؤلف مشكور على مجهوده في استخراج هذه

الحكمة البالغة التي تجاري العلم والفن وتؤيدها المدنية الصحيحة، وعقيدتي أنّ الحجّ بجميع أفعاله يقوم على غايتين كبيرتين: فردية روحية، واجتماعية سياسية، كما تقدم البحث عنهما وأشبعهما المؤلف بحثاً في غضون رسالته، والمسلمون مرغمون على القيام بهذا العمل الكبير ما داموا مسلمين مهما كان يقام على غير وجهه، حتّى يصفله الزمن - متى تحسّسوا - فينعقد لهم أكبر مؤتمر عالمي تعجز عنه الدول المتمدنة؛ ولا تستهين بمنافعه للمسلمين اليوم وأمس وإن كنّا نحب أن نتحقق كما يجب، وكما أريدت لها.

يضع المؤلف - بالأخير - مقترحاته العملية العشرة - أو متمنياته على الأصح - التي تسهل على الكاتب أن يضعها على الورق، وهو منكمش في مكتبه، وإنّما الشأن في تحقيقها في مثل هذا العصر الذي تلعب فيه أيدي الاستعمار بمقدرات المسلمين ونفوسهم وجامعتهم؛ وما أكبر الجامعة الإسلامية رزية على المستعمر أن تتجه نحو الالتئام، وتسير للحياة بعد موتتها الأولى، وقد كفتها ودفنتها بيده في حفرة اختارها لها وأحسن الاختيار، خوفاً من أن تتسم الحياة.

ولكن الاقتراح من مثل المؤلف السياسي الكبير - وإن اختفى تحت امضائه الرمزي - يرجى أن يلاقي أذاناً صاغية وقلوباً واعية، وما أجدر حكومة العراق أن تبادر للعمل بإحياء أكبر مؤسسة إسلامية عالمية بعد هذا التقارب الذي حصل اليوم، فتقوم بقسطها من الواجب في تنظيم الحج، لتكون قدوة لباقي الأمم الإسلامية!

مع الحجاج^(١)

يتوجه المسلم في رحلته للحج الى الله تعالى، ليؤدي الواجب الإلهي المفروض على عباده، ويتجرد عن نفسه وعن كل ما يتعلق بها من أوصار المادة، وأوشاب الدنيا، وبهرجة الحياة الدنيئة، وأوساخ الذنوب، وشبهات الظنون، ووساوس الشبهات.

إن أداء أعمال الحج التي هي فوق مستوى ما يدركه الإنسان العادي من أسرار العبادة يحقق في نفس المؤمن معنى الانصياع والطاعة لله والانقطاع الى الإخلاص له والاصحار اليه، مجرداً عن كل اعتبارات الدنيا وعننة النفس الأمارة وأوهام الأنانية الإنسانية.

كل هذا لعل بعض فوائد الحج المقصودة من فرضه على البشر، ليجتمعوا اليه منضمين بعضهم الى بعض، وفي عين الوقت ليفترقوا مجردين بعضهم عن بعض، وفي عين الوقت ليفترقوا مجردين بعضهم عن بعض إلا عن الشعور بالاشتراك في مظاهر العبودية لله سبحانه والخضوع الى ارادته والتذلل في حضرته والانقطاع الى قدرته.

إن من يتوفق لأداء هذه الفريضة المقدسة يستطيع بنفسه أن يحقق هذه المعاني السامية في نفسه وفي غيره، عند الطواف والسعي والوقوف ورمي الجمرات وما إليها. ولقد بهرتني - أنا شخصياً - عظمة الإنسان المتجبر في كبريائه عند انصياعه طيعاً، وقدرته على التخلي عن نفسه وكبريائها في تلك البلاد القاحلة الجافة.

يدخل (المؤمن) المدينة المنورة، وكل همهم أن يتلمس عظمة الإسلام ومجده الخالد في مشاهد هذه المدينة المنورة والمعطرة بذكريات النبي الأعظم ﷺ لاسيما في مسجده

(١) مجلة النجف السنة الأولى العدد ١٣ في ١٩/ صفر/ ١٣٧٦ الموافق ١٦/ أيلول/ ١٩٥٧.

المقدس وقبره الكريم، وليشاهد مهبط الوحي، وليتمثل مؤتمر المسلمين ومنبع انوارهم التي شملت العالم كله من هذه الكوة القدسية.

وقبل كل شيء وبعد كل شيء يتلمس البركة بين منبره وقبره ﷺ، ويفرغ حبه المتعطش في تلك الساحة الروحانية وعلى تلك الأعتاب، محاولاً أن يملأ عينه وسمعه وقلبه من تلك الآثار والذكريات، ويكاد أن يثب قلبه من بين جوائحه ليقبل تلك الأركان قبل يده وفمه.

ولكن المؤمن بينا هو في هذا الخيال عند دخول المسجد حول القبر والمنبر ويكاد لا يبصر من نفسه إلا هذه الأخيصة الطائفة في لبه يكاد أن يخرجها عما هو فيه منظر تلك (الزبانية) الضواري عابسي الوجوه الذين ينظرون الى الحجاج نظر العدو الى عدوه الذين يسمونهم ظلماً وعدواناً (الأميرين بالمعروف) يقفون هناك، وقد أطلقت أيديهم لإهانة المسلمين بغير حساب، وبأيديهم السياط يلهبون بها رؤوس الحجاج المؤمنين وظهورهم بل وجوههم ظلماً وعدواناً بلا رحمة وشفقة ولا انسانية تقتضيها على الأقل مجاملة الوافد الغريب. وليس من ذنب إلا أنه يريد أن يشبع نهم حبه وشغف قلبه العاشق للنبي الأكرم.

والأنكى انهم ينادونهم بعبارة هم أحق بها من هؤلاء المسلمين المدلهين المشتهرين بحب نبيهم: (يا كافر! يا مشرك!) وكأن الوهابية احتكرت لنفسها الإسلام، فكل المسلمين مشركون كافرون من يوم الإسلام الأول الى ظهورهم (مصلحهم) محمد عبد الوهاب.

فبدل أن يشيع في هذا الجو المعطر بذكريات النبي الكريم أريج الأخوة الإسلامية وتناسي الفروق الاقليمية واللغوية والمذهبية ينتشر الحقد والبغضاء والشعور بالكراهية لهذه الفئة التي كأنها تريد بعنجهيتها أن تسكت انفاس المسلمين ولا تشتفي ومن ورائها

من نصبها أمرة بالمعروف (أستغفر الله: بالمنكر) ويكاد لا يصدق الإنسان ان هؤلاء موظفو حكومة تدعي انها اسلامية وترعى مصالح المسلمين. ويكاد يظن أن من وراءهم لا يعلمون بما يجري من اذلال للمسلمين بالحرم النبوي لولا انه يتكرر كل يوم بل كل ساعة بل كل دقيقة.

واذا ذهب بك المطاف - لأذهب - إلى مقبرة البقيع لتزور مراقد الأئمة الأطهار الميامين من آل بيت المصطفى ﷺ وغيرهم من أمجاد المسلمين الأولين - نجد ما يدمي الحشا إذ جدت يد العبث الحاقداً أن تمحو كل اثر أو ما يشبه الأثر لاحترام من كانوا شرف الإنسانية دنيا وآخرة، وهم علماء آل البيت الذين بأنوارهم أشرقت الارض بمعارفها.

نعم جدت يد العدوان وأبت إلا أن يبدو مكان تلك المراقد الشريفة موحشاً والقبور دوارساً. هذه فلسفة الوهابية في قبور آل البيت وآثارهم، وقد نصبوا زبانية جافة في لهجتها قاسية في تحكمها، تكاد أن تمنع بقسوة حتى استنشاق الحجاج هواء البقيع أو تمتع أحدهم بنظرة الى قبور أئمة البقيع الاربعة خاصة. أما اذا عرفوا عراقيا او ايرانيا من بينهم فذلك هو (الأعكمي المشرك الكافر).

واذا كان هناك من عجب فعجب تغاضي الحكومتين العراقية والایرانية عن هذا الضيم الذي يلحق رعاياهم في تلك البقاع وكيف تضام وتستذل، والأعجب أن تسمح لهم بالذهاب الى هناك مذللين مضطهدين ولا تنصب من يدافع عن كرامتهم ويرعى عزهم. يالعار ويالشنار!

ان حديث اذلال الحجاج واضطهادهم في تلك البقاع المفروض فيها أن ينال المسلمون فيها كرامتهم وعزهم وسعادتهم، حديث ذو شجون.

صحيح أن الحكومة أمنت الطرق وعبدتها ومنعت قطاع الطريق الذين اعتادوا في

العهود السالفة أن يغيروا على الحجاج ويسلبوهم باسم (الخاوة)، ولكن تأمين الطرق بفضل المكتشفات الحديثة من سيارات وطائرات وسلاح أصبح مضموناً في كل بقاع العالم وليس في الحجاز وجده.

وهي إن أمنت الطرق ومنعت (الخاوة) ان يأخذها اولئك القطاع فانها حولت هذه (الخاوة) أن يأخذها اولئك القطاع فانها حولت هذه الخاوة الى نفس وجيوب أتباعها باسم آخر. ولم يتورع موظفوها أن يعمدوا الى إذلال الحجاج وإهانتهم في سبيل ابتزاز اموالهم باسم الأنظمة الموضوعة له. ولأضرب لك أمثالا تعجب فيها كيف يصبح الناس هناك اسارى كالعبيد أو مسيرين كالأغنام.

ان الحاج يطير من بلاده وقد يتخيل أنه سيصل الى الحجاز فيتلقى نفس العزة والراحة التي كانت له في بلاده ثم طائرته التي أقلته ولكن حينما يجد نفسه في قبضة الحجاز او حكومته يجد نفسه كيف يتغير به الشعور الجائر.

حينما تصل به الطائرة الى جدة ليأخذ مكانه في احدى سيارات الشركات السعودية (التي هي شركات ترجع الى بعض المسؤولين كما يقولون) بعد اللتيّ والتي وربما أياما يقضيها في جدة في مدينة الحاج أو في أحد الفنادق حتى تصل اليه النوبة - فلا يسمح له إلا في سيارات هذه الشركات ليذهب الى مكة أو المدينة في حين ان اجرتها أضعاف أجرة السيارات الحرة، واذا أبى إلا أن يستأجر سيارة حرة مريحة فقد يسمحون له بعد أن يدفع أجرة سيارة الشركات.

والذهاب الى المدينة لابد أن يدفع اجرة الذهاب والإياب مقدماً، وبعد وصوله الى المدينة فلا بد ان يبقى بها اياما معدودة لا يتجاوزها وإلا فعليه أن يدفع عن كل ليلة بيئتها ريالاً واحداً وكأن هذا اجرة استنشاق الهواء هناك والحاج الصحيح الجسم لا يسوّغ له الشرع الإسلامي أن يرجع الى مكة بسيارة مسقوفة لحرمة التظليل للمحرم حين السير،

فيلتجئ الى ركوب سيارة مكشوفة من نوع سيارة الحمل إذ ليس لدى الشركات غيرها. وبدل ان تتنازل له الشركة عن بعض الأجرة يجب عليه أن يدفع اجرة اضافية قدرها (٢٠ ريالاً). ولا يسمح للسيارة أن تسير حتى تملأ ظهرها على الأقل بثلاثين حاجاً، وان كان ظهرها يمتلئ الى القمة بأمتعة الحجاج (عفشهم) فيجب أن يجلسوا القرفصاء كتفا لكتف وظهراً لبطن معرضين لزوبعة الهواء حينما تطلق السيارة محركاتها للريح، ويحشرون ساعتئذ كالاغنام مكشوفي الرؤوس محرمين، ومحرومين من الراحة والعزة والكرامة مدة السفر من المدينة الى مكة التي قد تستغرق ٢٤ ساعة.

فاذا اراد الحاج أن يستأجر لنفسه سيارة حرة فقد يسمحون له بعد اللتيا والتي بعد أن يدفع تلك الأجرة الاضافية. واذا كان مثلنا قد دفع أجرة الطائرة الى جدة مقدما فعليه أن يتنازل عنها ثم يدفع اجرة سيارة الشركة ويدفع اجرة السيارة الحرة. فكم أجرة يدفعها ليصل الى مكة المكرمة وكلها الى جيوب (الشركات السعودية).

وليس هذا كل ما في الأمر، فان الشركة اذا لم تستلم اجرة ٣٠ ركباً ولم يدفع الحاج ٧٤ للمطوف و ١٠ ريالاً للمرور فان للسيارة لا تتحرك أبداً من مكانها، ولكن لا مانع لديهم أن يضيفوا عليهم واحداً أو أكثر. ثم انهم كيف يتأكدون ان السيارة قد اكتمل ركبها؟ لا بد أن يحسبوهم ويحسبوا جوازاتهم والوصلات في نقاط متعددة من أشخاص مختلفين، فيقف الحاسب بعجرفة وعنجهية الأمر المتحكم فيعدهم كالأغنام المجلوبة مرة بعد أخرى، فيشعر الإنسان حينئذ كيف تهدر كرامته عند هؤلاء الذين لا يرون من الحجاج إلا مغنا وسلعة يتجرون بها... الى أن يصلوا الى مكة المكرمة في هذا الحال المهين، وهم إنما يساقون بدافع أداء الفرض الإلهي الذي ليس لهم عن تركه من محيص.

وعند الوصول الى مكة المعظمة تبتدئ سلسلة اخرى من المضايقات والمزعجات:

ان المفروض في سائق السيارة كان قد أخذ من الحجاج جوازاتهم ليعرضها مرة بعد اخرى على نقاط الشرطة والشركات المنبثة في الطريق. وعند الوصول الى مكة يتسلمها المطوف ليكون الحجاج تحت قبضته ورحمته حتى يخرجواوا فيتسلموها عند الوداع.

ولا تدري بعد هذا لماذا دفعت للمطوف ٧٤ ريالاً؟ أفلاًجل ان يوضع الحبل الذي يربطك بعجلة الحجاج في يده ليقودهم مسيرين، كالمزور في المدينة المنورة. وهذا كل ما تحسه من الفائدة من المطوف - ومن قبله المزور - لقاء ما دفعت لهما مضطراً من ضريبة (هي الخاوة بعينها) اما الحاج المسكين فعليه بنفسه أن يستأجر له مكاناً لمقره، وعليه وحده أن يهئ من يعلمه الطواف والسعي.

نعم لا تجد بعد هذا من فائدة للمطوف - اذا صح هذا التعبير - إلا أن تلتحق بركابه ليحشرك في مخيماته التي أعدها لحججه في عرفات ومنى. ولكن بأجرة ٢٠٠ ريال لكل خيمة، ولا أظن قيمة الخيمة الشرائية تزيد على هذا المقدار. والخيمة صغيرة لا تسع برفاهية لغير ٤ أشخاص وقد يكسب فيها ١٥ حاجاً.

ثم ماذا؟ لابد أن تدفع أجرة سيارة كبيرة الى عرفات ومنى ذهاباً وإياباً مقدماً وهي ٣٧ ريالاً، في حين أن اجرة السيارة الحرة الصغيرة من منى الى مكة وبالعكس ريال واحد وان زادت فريالان.

وفي هذه المرة لابد أن يحشروا في سيارة الحمل المكشوفة ممن يتورع من الركوب في المسقوفة أربعين راكباً - نعم اربعين لا تسعهم إلا وقوفا متماسكين كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وهم مكشوفو الرؤوس محرمون. ولو قدر لك أن تسأل: لماذا وجب في هذه السفرة أن يكسوا أربعين ومن المدينة الى مكة كانوا ثلاثين؟ فقد تحصل على مجيب - وطبعاً ليس من المطوفين ولا من أهل مكة فان أوقاتهم أعز من أن يصغوا الى سؤال - فيقول: إن أمتعة الحجاج هذه المرة قليلة إذ تركوا أكثرها في مكة فوجب أن

يضعوا بدلها بشراً سوياً ثم ان المسافة قريبة واذا استغرقت ست ساعات أو النهار كله فلازدحام السيارات ليس إلا.

فإذا رجعت إلى مكة تبدأ بك مشكلة الخروج من مكة وكيف يسمح لك بالخروج والجواز بيد المطوف، وكل شيء بيده، ثم من شرطة الحجاز ومديرية شؤون الحج. وكل شيء يجب أن يتهيأ من وصولات ضريبة المطوف وأجرة الخيمة وأجرة السيارات، وإلا فأنت محجور عليك حتى تثبت أنك دفعت كل هذه الضرائب التي يسمونها اجوراً ثم لابد ان تدفع اجرة السيارة الباهضة الى جدة، وحتى يكتمل عدد ما في السيارات التي لا تنقص عن ثلاثين على أقل تقدير، وقد تبقى محجوراً في السيارة للساعات الطوال انتظاراً لإكمال العدد وأنت لم تفهم قبل ذلك ان العدد لم يكمل وانه متى كان يجب الحضور.

هذه شدائد نحن - العراقيين ومثلنا الإيرانيون - نجربها قاسية جائرة، أما غيرنا من المصريين ونحوه، فقد يكون لهم مطوفون شأنهم غير شأن مطوفينا، وشدائدهم لا تشبه شدائدنا. وما ندرى لعل لهم ميزات وكرامات تخصهم ويكفي من رعاية الصحة في العراق لنا أن بعثتنا الطبية اتخذت لها من مكة زاوية لا يهتدي إليها حتى (أهل مكة) وهم (أعرف بشعابها). ولا تكاد ترى لها مقراً في منى وعرفات، ولا تشاهد لها سيارة للاسعاف كباقي البعثات الطبية الأخرى حتى البعثة الطبية الإيرانية. وأنا شخصياً مرضت فذهب بعض جماعتنا مساء الى رئيس البعثة العراقية ليحضر، وكانت الحالة فيما يعتقدون تستدعي الاستنجاد بالبعثة بهذه السرعة، فما كان من سعادة الرئيس الطبيب إلا ان يكون (خطيباً) فيستمهلم الى الصباح لأنه مدعو الى أمسية أو عشاء. وكان المريض من طاقته ان ينتظر في مرضه فراغ الطبيب. فأعانا الله تعالى به عمن سواه ولم يجعل لنا عند (بعثة) حاجة.

وفي عقيدتي ان الطريقة الصحيحة لإنقاذ الحجاج العراقيين من تلك المضايقات والاذلال والاضطهاد ان تعتمد حكومتنا العراقية بسرعة الى أن تفتتح طريق السيارات البري على النجف الأشرف بضمان شركات معتبرة فانه أضمن شيء لسلامة الحجاج وراحتهم ليذهبوا مرفوعي الرأس محفوظي الكرامة، ويرجعوا آمنين سالمين.

الفضيلة^(١)

كثيرا مما يطرق سمعنا رنين كلمة (الفضيلة) وكثير ما نوردها متبجحين ولا أحسب أن أحداً من الناس - إلا من قل - لا يدعيها لنفسه، بل لا يدعي انه صاحبها دون سواء من زملائه في العمل، بل لا يدعي انه صاحبها دون سواء من زملائه في العمل، أو رفاقه في الدين، أو لداته في التربية، أو مواطنيه في البلد.

والادعاء الأول أي ادعاء الناس إياها لأنفسهم إن دلنا على شيء فانه يدلنا على ان الفضيلة مما تطابقت آراء الناس على حسننها على مدح صاحبها وكرامته كما يدلنا على حاجة البشر لهذه الخلقة في أعمالهم ومعاملاتهم فيما بينهم.

وليس الذي يلفت النظر ذلك. انما الذي يستوقف النظر بل يدهش الفكر ذلك الادعاء الثاني من الاكثر الناس - ان لم نقل جميعهم - فهلا يدل ذلك على ان الفضيلة لا وجود لها في الأرض باعتراف الجميع.

تصوّر لو جاءك عشرة أشخاص وادعى كل منهم انه صاحب الفضيلة دون سواء من أصحابه التسعة فان ذلك منه في حقه دعوى وفي حق غيره شهادة: فلو جمعت هذه الشهادات بعضها مع بعض لحصل لديك تسع شهادات على حرمان كل واحد من العشرة من الفضيلة في قبال دعواه بها.

ودعوى الفضيلة وحدها مجردة لا قيمة لها في الحجم فكيف اذا اجتمعت ضدها تسع شهادات.

هذا اذا كان المدعون عشرة فلو كانوا بالمئات فكم من شهادات تجتمع على حرمان

(١) مجلة النجف السنة الأولى العدد ١٢ في ٢٠/ محرم/ ١٣٧٦ - ١٨/ آب/ ١٩٥٧.

كل واحد منا؟ ومع ذلك كلنا ندعيها ولا نقيم وزناً لتلك الشهادات الهائلة التي تناقضنا.
الله أكبر: أجميع الناس كذابون لو كان الحساب دقيقاً وصحيحاً كما صورناه لوقعت
السماء على الأرض.

ولكن هذا صحيح الى درجة ما وله فلسفة غير بعيدة عنا ولا ينبغي أن نشاءم
الى هذا الحد الذي وصل اليه حسابنا. ان للإنسان غريزة حب الذات، طبع عليه وهي
منة كنفسه بل هي نفسه وحقيقته وهذا الحب ان كان يقوى ويضعف تبعاً لقوة النفس
وضعفها فانه حب على كل حال يعمي ويصم فيدفع النفس عند مقارنتها بغيرها من
نفوس أقرانه ومعارفه الى ان يرى من نفسه الفضيلة في جهة من الجهات ولا بد انها واقعاً
موجودة بقدر ما لكنه يراها بمنظار الحب المكبر لصور المراثيات وهذا المكبر قد يكون
قويا وحساساً الى درجة يكبر الواحد بألف فأكثر وقد يكون ضعيفاً لا يكبر الشيء اكبر
من عشر مرات وعلى كل حال لا بد من وجود هذا المكبر عند الإنسان يستعمله دائماً في
النظر الى محاسنه ولهذا كان التواضع من أفضل الفضائل التي دعى اليها الدين الإسلامي
لان به قهراً للنفس ومخالفة لعقيدتها في ذلها وسمي تواضعاً نظراً الى اعتقاد المتواضع في
نفسه انه أعلى مما يضع فيه نفسه في معاملاته مع الناس، وقد يكن انها يضع نفسه في
موضعها الحقيقي فيما يصنع من تواضع ويصطلح عليه انه تواضع ونعما هذه التربية
الإسلامية ليقدر فيها الإنسان - قدر الامكان - منزلته الحقيقية بين الناس والمقصود
من التواضع الذي تدعو اليه تعاليم الإسلام هو التواضع النفسي الذي يعبر عنه علماء
الأخلاق بكسر النفس، لا التظاهر بالتواضع والتنازل وان كان هذا ايضا فضيلة دعت
اليها التعاليم الإسلامية.

قلنا ان الإنسان ينظر الى محاسن نفسه بذلك المكبر الذي يختلف عند الناس، وهو
بنفس هذا المنظار يرى عيوب نفسه ومحاسن اقرانه من الناس ولكن ينظر به مقلوباً

فيصغر هذه المرة المنظورات الى واحد من الف فأكثر او الى واحد من عشرة والرجل كل الرجل من استطاع ان ينظر الى نفسه الى غيره بجهة واحدة من منظاره ذلك حقاً هو نكران الذات، والإسلام حرصنا على ذلك بما أمرنا في تعاليمه لتهديب الاخلاق التي منها انصاف المرء في نفسه ولذا ورد عن النبي ﷺ «سيد الأعمال انصاف الناس من نفسك».

وقال ابو عبد الله الصادق عليه السلام لأحد أصحابه: «ألا أخبرك بأشد ما فرض الله على خلقه؟ فقال: بلى، قال: انصاف الناس من نفسك ومواساتك أخيك» وحقاً ان ذلك من أشد ما يتبلى به الإنسان فان الانصاف من النفس ان يقول الإنسان الحق فيما له وما عليه وان يرضى لغيره ما يرضى لنفسه ويكره له ما يكره لها وهذه الفاظ ننطق بها ونستسهلها، وقد يحسب الرجل الغافل عن نفسه ان بمقدوره ان يصنع ذلك وقد يدعي ان ذلك من خصاله الحميدة على الأساس المتقدم من حب الذات والنظر الى محاسن الناس بذلك المكبر ولكن عندما يدقق الإنسان في نفسه وينصفها يرى ان ذلك المنظار المكبر هو الذي يحول بينه وبين هذه الفضيلة بل يجرمه من كثير الفضائل ويجعله متصفاً بكثير من الرذائل في حين انه يزعم انه يحسن صنعاً، لأن الرضا عن النفس والعجب بها يحمل الإنسان على الكبرياء والغضب والطعن في الناس والتحامل عليهم ثم القعود عن العمل الصالح والكسل عن الفضائل قال الرضا عليه السلام: «العجب درجات منها ان يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجب ويحسب انه يحسن صنعاً» فاذا سيد الأعمال وأساس الفضائل بل الفضيلة نفسها انكار الفضيلة من النفس وانصاف المرء من نفسه. وهذا ما يتطلب من النفس جهاداً عظيماً لا يناله إلا ذو حظ عظيم لا يتوقف على ان يتخلى الإنسان عن حبه لنفسه بقدر ما لو بالأصح يتخلى عن مغالاته في ذلك الحب ولعله بذلك يستطيع ان يقارن بين نفسه وبين غيره في النظر إليها وقد تظافرت تعاليم

الإسلام الأخلاقية لتحقيق هذه الغاية من الإنسان لو انه يبصر بعين الحقيقة فيكافح
هوئ نفسه الجموح.

وزبدة المخض ان الفضيلة بكاملها عزيزة المنال قليلة الوجود بين البشر ﴿وَمَا
أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(١) ولكن أكثر الناس لابد أن يتحلوا بقسط منها
وإن اختلفت حظوظهم في هذا القسط وينقص ما يجدون من قسط كبير او صغير انهم
يبالغون فيما يجدون منها ويغبطون حق ما يجده غيرهم ظلماً وعدواناً «والظلم من شيم
النفوس».

(١) يوسف ١٢: ١٠٣.

مستوى الأدب العراقي بين القوة والضعف^(١)

جواب الاستفتاء الأدبي

الرد الأول

بودي أن نتفق قبل السؤال والرد على تحديد معنى كلمة (الأدب) فإنها من الكلمات المحاطة بالشكوك والتعاريف المتضاربة قديماً وحديثاً، وبعد هذا الأصح قياسه بمستوى النهضة الثقافية العامة؛ وللكاتب هنا أن يقرر أن مستوى الادب متأخر عن هذه النهضة؛ أما النهضة الاجتماعية عندنا فمن الأسف أن النظرة الواحدة الى حالتنا الاجتماعية تكفي في أن تبعث في نفوس المخلصين القنوط واليأس من تقدم مستواها حتى على الأدب، وقد أكون محقاً عند القارئ في قولي هذا اذا انظر الى ان الحركات الاصلاحية لم تتناول حالتنا الاجتماعية كما تناولت الحالة السياسية والثقافية العامة.

وعلى كل حال اذا قصدنا بالأدب ما يعبر عن شعور الفرد أو الأمة تعبيراً صادقاً ويرتبط بالمحيط ارتباطاً وثيقاً فيكون للمحيط عليه اثر واضح وله في قلم الاديب حكم ظاهر، فأظن ان المطالع لصحفنا التي هي مثال نهضتنا الأدبية وكتبنا الادبية لا يحتاج الى الكثير من سعة الادراك ليحكم ان الادب عندنا على الاكثر محاكاة متذبذبة للأدب المصري ذلك الأدب الذي لايزال يكافح وينافح لأجل التخلص من هيمنة الأدب

(١) وجّهت جريدة الهاتف أسئلة لرجال العلم والفكر فكان هذا الجواب والاسئلة هي:

١. أصبح أن مستوى الأدب العراقي متأخر بالنسبة لمستوى نهضته الاجتماعية؟
 ٢. إذا صح ما تقدّم فما هي الأسباب الموجبة لتأخر الحركة الأدبية وضعف الإنتاج الأدبي عندنا؟
 ٣. ما هي الوسائل الفعالة التي ترون وجوب الأخذ بها لرفع شأن الأدب العراقي إلى المقام اللائق؟
- السنة الخامسة العدد ١٦٧ الصادر في ٦ / ربيع الثاني / ١٣٥٨ الموافق ٢٩ / مايس / ١٣٥٨.

الغربي عليه مع أنه في بدو تكوينه باعتراف أهله، وإذا كان هناك من نادر فالنادر لا يحكم به ولا عليه وأتحاشا ان اتهم بالتملق اذا سجلت الآن اعجابي بأدب الأخ الأستاذ صاحب الهاتف من هذه الناحية لأنني أكتب هذه الكلمة الصحفية جوابا عن سؤال مكتبها.

ويعجبني هذا الأدب في اللغة الدارجة عندنا وخصوصا ما ينظم للتسلية فأنيك أباهي به شعراء الفصحى أن يحيئوا بمثله أدبا يمتزج بالنفس امتزاج اللذة بالحس ويرتبط بالبيئة ارتباط لغتنا العامية بحياتنا اليومية وهل يستطيع شاعر في لغته الفصحى أن يأتي بمثل قصيدة الشاعر الشعبي (حسين قسام) المشهورة عن لسان الميت الذي تذر من موته المنكودة «هيهات».

ويعزى هذا على الأكثر الى ان اللغة الفصحى لا تزال لغة القلم فقط لا لغة اللسان فلم تمتزج بالنفس امتزاج العامية حتى تستطيع ان تمثل احساسات النفس وعواطفها كما هي؛ وهذا مع الأسف لا يختص بالعراق وحده فالكاتب والشاعر عندنا لا يزال يتعلم ادب اللغة الفصحى خارجا عن محيطه الذي يعيش فيه فيخضع لحكم المحيط الذي استقى منه أدبه، ويفقد استقلاله الذاتي ولا يعرف كيف يعبر عن خلجات نفسه ونبرات حسه الا بالأساليب التي يعرفه لأدباء قد لا يرتبطون بمحيطه بكثير ولا بقليل تلك الاساليب التي خلقت للتعبير عن عواطف نفسية اخرى قد لا يجدها في نفسه وعلى العكس من أمتنا العربية الحاضرة العرب الأولون والأمم الأخرى فان لغة القلم عندهم عينا لغة اللسان.

وإذا قصدنا بالأدب الاسلوب الانشائي والبلاغة اللفظية ورصانة التعبير وما الى ذلك مما لا يمت بصلة الا الى محاكاة الادب العربي القديم وان فقد بميزات شخصية الأديب وبيئته، فهو هم أدبائنا بصورة عامة، ولكن لا يزال حتى هذا الأدب متأخرا

والانتاج فيه ضعيفا عندنا ولقد سبقت اليه مصر فأوغلت ونبغ فيها ادباء للأنشاء من الطراز الأول لكل واحد منهم مذهب خاص له أنصاره ودعاته.

واذا كان للنجف خاصة والعراق عامة ماض مجيد وتراث خالد من هذا النوع من الأدب فان هذا التحول الجديد لجعل أقلام المتأدين منا في حيرة وارتباك لم يتخذ واحد منهم خطة واضحة ومذهباً معروفاً، وهذا شأن التحول الذي يحتاج الى زمن طويل حتى يأخذ نصيبه من التقدم أو الاستقرار.

ومع ذلك فشان الأدب التغير المستمر وفقدان ميزة الاستقرار، وانما ننعي على انفسنا فقداننا للاستقلال الادبي حتى في هذا النوع وهذه الأغلاط العربية المشوهة لصحفنا وكتبنا دليل آخر على تأخر هذا النوع من الادب عندنا.

الرد الثاني والثالث

لعلي فيما تقدم ألمعت الى أسباب تأخر الأدب، أما الأدب بالمعنى الأول فلم يكن عندنا موجوداً حتى نصفه بالتأخر ولا ينكر انه وليد لا يزال في دور الطفولة تتعده أحضان المتأدين ويرجى له التدرج في الحياة وان كان بطيئاً؛ وأهم الاسباب الفعالة لرفعه الى المقام اللائق تعميم اللغة الفصيحة ليكون لغة اللسان الدارج والوسائل المتخذة لتعميمها ما فتئت ضعيفة لا تؤدي بعض النتيجة.

وأما الأدب بالمعنى الثاني فأهم أسباب تأخره فقدان المعاهد اللغوية الكبيرة والمؤسسات الأدبية كما هي الحال في مصر وضعف روح النقد الأدبي، أضف اليه قلة القراء في العراق وعلى الأخص النتاج العراقي، واذا كانت النجف تعد معهداً كبيراً للغة العربية، فان عدم تنظيم دراستها مما جعل الاستفادة منها قليلة لا تؤدي الغاية ومع ان الاشتغال بالعلوم العربية حرفة الناشئة المبتدئين على الأكثر، وليس من عادة علمائها وأدبائها أن يبرزوا ثمرات أقلامهم وجهودهم فيذهب أكثرها ضياعاً، فما أخرج

العراق الى معاهد لغوية عالية ومؤسسات كبيرة للنشر والتأليف ولا يمكن أن نجني من المدارس الحديثة الموجودة أي فائدة تذكر في هذا السبيل ما دامت مناهجها منصرفة الى نواح اخرى ولا تأخذ من الأدب العربي الا بمقدار ما يجعل الطالب ملما ببعض المبادئ التي يحتاجها لضرورياته.

حرية الفكر والإسلام^(١)

كلمة (الحرية) من أروع الكلمات الأخاذة التي لعبت دوراً كبيراً في تاريخ حياة الإنسان الحديث، والسر أن الحرية من أهم ما شغف بحبه الإنسان، وكل قيد يجد من حرية تصرفاته يعده كابوساً ثقيلاً على كاهله ينوء بحمله بل يفقده لذة من أهم لذاته هي لذة الحرية نفسها بل لذة الحياة نفسها لأن حب الحرية من جملة غرائزه المخلوقة في طبيعته.

غير أن إطلاق عنان الحرية لكل فرد من الناس في كل تصرفاته معناه فتح الباب واسعاً للظلم والعدوان والوحشية الكاسرة والهمجية العاتية، وبالأخير يفقد كل فرد ولاسيما الضعيف كثيراً من حريته إذ لا بد أن يغتصبها منه الأفراد الآخرون الذين مثله أيضاً يشدون الحرية، وحينئذ لا تبقى للإنسان دولة ولا بلد ولا مجتمع ولا أسرة ولأجل هذا اضطر الإنسان إلى الخضوع لسلطان النظام والقانون من دين أو دولة فضحى بقسم من حريته ليحتفظ بالباقي في ظل النظام وليحتفظ بكثير من ملذاته ومقاصده، وعليه فكل نظام معناه تقييد الحريات من جهة للاحتفاظ بها من جهة أخرى على اختلاف النظم التي نزلت بها الأديان أو التي وضعها البشر اختلافاً من جهات كثيرة أهمها جهة مراعاة مقدار الحرية المقيدة ومقدار الحرية المطلقة والموازنة بينها، بل كل نظام إنما هو أفيون للشعوب لتخديرها لا فرق بين نظام ونظام لأنه إنما يوضع ليحد من حرية الأفراد فيما يضر في مصالحهم أو مصالح الآخرين على قدر ما يعلمه واضع النظام.

(١) مجلة النجف السنة الأولى العدد الأول في ٢٧/ربيع الأول/١٣٧٦ - ١/تشرين الثاني/

ولا بد للواضع هذا من ان يخفف عن كاهل اتباعه ثقل تقييد حرياتهم بإقناعهم بضرورته وبما يعدهم من خير وسعادة على حسب اختلاف الواضعين فيخدرهم بالوعود الصادقة او الكاذبة، وقيمة كل نظام انما هي في تقدير مدى تلك المصالح ومدى الاصابة في معرفتها وتقديرها.

وهذا العصر سمي (عصر الحرية)، ومن السخف - بل من الفشل الذريع للنظم والشعوب - ان يراد من الحرية الحرية المطلقة للأفراد كما يريد ان يفهمها عشاق الشهوة، او كما يريد السياسيون ودعاة الحروب ان يخذعوا بها جنودهم وشعوبهم ولا يزال معنى الحرية يتأرجح في هذا العصر تأرجحاً تلاقى به الامم العنت والشدائد وتضطرب بها سفينة الحياة في خضم من الحروب والفتن وبلبله الافكار والاحوال حتى ترسو - ان شاء الله - على ساحل السلامة والاستقرار للمعنى الصحيح من الحرية، ولكن بعد لأي وغرلة منهكة للبشر لا يعلم الا الله تعالى مداها.

هذه الحرية التي تكلمنا منها الحرية في تصرفات الإنسان اما الحرية الفكرية فهي اسمى من حرية العمل وأبعد منالاً عن تقييدها بل هي حق طبيعي لا يمكن ان يحده نظم او اي شيء آخر سوى التربية والتوجيه والتلقين من عهد الطفولة ولا شك ان كل انسان مأخوذ بهذا التوجيه مهما بالغ في التخلص منه، والمدنية الحديثة فيما ادعته من اطلاق الحريات دعت الى اطلاق الحرية الفكرية ايضاً من اثقالتها ولكن - في الحقيقة - لتكبل الحرية بقيود اثقل، ولا يهمننا الآن البحث من هذه الناحية وهو موضوع شائك، وانما سقنا هذ البحث مقدمة لفهم مدى صلة الدين الإسلامي بالحرية الفكرية وموقفه منها فنقول:

ان من المقررات عند فريق من المسلمين - وخاصة الامامية - انه لا يجوز التقليد في اصول العقائد كالتوحيد والنبوة وغيرهما بل انما يجب على المكلف ان يحصل بنفسه

هذه الاعتقادات اجتهاداً بلا تقليد لأحد، ومعنى هذا هو الاعتراف بالحرية الفكرية في الدين، فيفتح لنا السبيل للاستقلال في الرأي في هذه الموضوعات التي هي اساس الدين واركانه فلا يتبع الإنسان فيها غيره مهما كانت قيمة ذلك الغير حتى النبي نفسه، لان اتباعه وتقليده في هذه الامور يتفرع على الاعتراف بنبوته والمفروض انه بعد لم يحصل له هذا الاعتراف به فكيف يجب اتباعه؟

وعليه فليس من حق اي دين ولا اي تبي ان يحد من هذه الحرية او يسلبها كما انه ليس من سلطانه ان يمنحها لأحد بل هي - كما قلنا - حق طبيعي منحه له سلطان العقل الذي يجب ان يسبق سلطان الدين، ويستدل على هذا الامر بالآيات القرآنية من نحو ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١) ومن نحو ما جاء في ذم تقليد الآباء وما جاء في الحث على التفكير في الخلق والمخلوقات، وانما يستدل بها لبيان اعتراف الدين الإسلامي بهذا الحق الطبيعي ولتقرير هذه الحرية لا لتجعل ادلة على اصل هذا الحق وبالتعبير العلمي ان هذه الآيات للإرشاد الى حكم العقل لا لتشريع حكم شرعي.

وهنا يطفر الى أذهاننا سؤال عويص: وهو انه يلزم من تقرير الدين لهذه الحرية الفكرية في اصول العقائد ان الإنسان لو فكر ولم ينته بتفكيره الى الاعتقاد بالعقيدة الصحيحة فانه لا ينبغي ان يفرض عليه من ناحية شرعية اي عقاب او ذم مع انه ورد في الشريعة الإسلامية ان الكافر بالتوحيد او بالنبوة محكوم عليه بوجوب قتله اذا كان مرتدّاً ولم يتب بعد الاستتابة، وأما اذا كان مرتدّاً عن فطرة اي انه شك في العقيدة أو انكرها بعد أن نشأ من اول بلوغه على الإسلام فانه تحرم عليه زوجته، ويقتل ولا تقبل له توبة وتسلب امواله وتوزع على ورثته، وهذه الاجراءات من السلطة الدينية لا تتفق في بادئ الامر مع اعتراف الدين بالحرية الفكرية.

(١) البقرة ٢: ٢٥٦.

وعليه فأما ان نقول - كما قاله الاشعريون - ان المعرفة واجبة شرعاً لا عقلاً وليس للإنسان في هذا الحق في التفكير بل يجب ان يذعن مختاراً او مكرهاً للاعتقاد بالتوحيد والنبوة، واما ان نقول ان هذه الاجراءات ليست مما جاء به الدين الإسلامي وانما تخيلها او شرّعها المتدينون تحصيناً للعقيدة الإسلامية وكلا الامرين لا سبيل لنا الى القول بهما:-

اما الاول فهو يصطدم بالبديهة العقلية التي اشرنا اليها فيما سبق، على ان الاكراه في كل شيء يمكن ان يقع الا في العقيدة فانها من الامور النفسية التي ليست مما يقبل الاكراه وكل ما يمكن ان يصنع الاكراه ان يهيمن على الإنسان فيمنعه من التظاهر والتصريح بها، ثم ان هذه الآية المدوية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١) يتلاشى معها كل احتمال بأن الدين الإسلامي يناصر الاكراه على العقيدة.

واما الاحتمال الثاني فلا مجال له ايضاً اذ ليس مجال للشك في صحة هذه الاجراءات الشرعية وورودها في القانون الإسلامي.

والجواب عن هذا السؤال واضح اذا ادركنا جيداً ان هذه الاجراءات الشرعية للمنحرفين انما هي مفروضة على من يتظاهر بالكفر ويعلن عن عقيدته، فلا تجري فيمن يبطن الكفر ويعلن الايمان، بل المتظاهرون بالإسلام تجري عليهم احكام المسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم كالمنافقين الذين كانوا على عهد صاحب الرسالة، وأما القلوب فبيد الله تعالى والحساب على العقائد يرجع اليه وحده، فتكون تلك الاجراءات حداً لحرية الاعلان عن الكفر لاحداً لحرية الفكر كما تعاقب اليوم الحكومات على اختلاف اشكالها ومبادئها على اعلان الآراء التي تصطدم مع مبادئها وسياساتها، وفرق بين حرية الفكر وحرية الاعلان عن الفكرة فالتى هي من حقوق الإنسان الطبيعية

(١) البقرة ٢: ٢٥٦.

التي يحكم العقل بها ويعترف بها الدين هي الحرية الاولى، وليس للمشرع كما قدمنا أن يتحكم بها فيحدها او يسلبها ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١). واما حرية الاعلان عن الفكرة فهي نفس حرية التصرف التي بحثنا عنها في صدر البحث وهي لا ترتبط بعلاقة الإنسان مع نفسه وعقيدته الشخصية بل هي ترتبط بالمجتمع ومصالحه فلا مانع عقلي من ان يتحكم المشرع بها فيحدها او يسلبها حرصاً على سلامة المجموع من نشر الافكار المعتدة له.

واذا اردنا ان ندقق في الموضوع اكثر فأنا قد نجد المبررات لغرض تلکم الاجراءات العقابية على المنحرفين من ناحية نفسية فأنا ندعي:-

أولاً أن المشرع للدين الإسلامي لعله واجد - وهو واجد فعلاً - ان عقيدة التوحيد والنبوة لها من الدلائل الواضحة البينة ما يتقبلها الإنسان إذا فكر فيها تفكيراً حراً غير متحيز ولا متعصب لرأي آخر.

ثم نقول - ثانياً - ان من استجاب الى داعية التفكير وفكر فلم يصل به تفكيره الى الاعتقاد الصحيح فلا بد ان يكون انحرافه عن مرض نفساني من عناد أو تعصب أو استهتار بالقيم والحقائق.

فمشرع الإسلام وان قرر الإنسان حرية التفكير وأقر حكم العقل لكنه عالم ان التفكير السليم لا بد ان ينتهي به الى الاعتقاد الصحيح وإذا انحرف فانحرافه لا ينشأ الا من مرض نفسي يستحق معه الدواء فالإسلام في الوقت الذي قرر فيه حرية التفكير لم يقرر حرية العناد للحق والجحود له والتمرد عليه وهذا هو المذموم الذي لا يرضاه العقل ولا المشرع.

وليس بمستغرب على الإنسان ان يبلغ به المرض النفساني الى حد ينكر فيه ويحدد

الحقيقة التي يستيقنها بالدليل عناداً واستكباراً أو استهتاراً وهذا من جملة مفارقات الإنسان العجيبة وقد اشارت الى ذلك الآية الكريمة ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾^(١) ومثل هذا يستحق اللوم والذم بل العقاب انه المرض النفساني الذي ينبغي ان يعالج بالعدواء الذي يليق به.

ونحن لا نعدم شاهداً من النصوص على ان مشرع الإسلام واجد ان العقيدة الصحيحة لا بد ان ينتهي اليها التفكير السليم وكفى الآية الكريمة ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(٢) وقوله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه» فالتوحيد هو دين الفطرة وهو العقيدة الصحيحة المطابقة للواقع التي عليها الأدلة الواضحة الكافية عند كل مفكر سليم الفكرة لم تشب بعناد أو مرض آخر، وهي فطرة الله التي فطر عليها الإنسان في تكوينه النوعي.

وعلى هذا لا منافاة بين حرية التفكير التي يدعو اليها الإسلام وبين تلك الاجراءات من السلطة الدينية على من يخرج على العقيدة الإسلامية لأن هذه الاجراءات في الحقيقة على من يخرج عن الحرية الفكرية ويبلغ به المرض النفساني الى نكران الحق وجحوده وليس ذلك حداً من الحرية الفكرية ولا سلباً لها ان لم يكن تأييداً لها وانما هو علاج للعناد والجحود والاستهتار بالقيم الإنسانية.

ولأجل هذا يختلف العلاج باختلاف هذا المرض وهو على ثلاث مراتب هنا:

١. فيمن نشأ على غير دين الإسلام من الأديان الأخرى ولم يسلم فانه لو فكر فلم يهتد الى العقيدة الصحيحة ربما يكون عدم طوعيته واعتناقه للدين الصحيح من تأثير وطأة العقيدة القديمة التي تعميمه وتؤثر على استقامته تفكيره وحريته، وليس من

(١) النمل ٢٧: ١٤.

(٢) البقرة ٢: ٢٥٦.

السهل على الإنسان أن يفكر تفكيراً حراً ويتخلص من عقيدته التي نشأ عليها، ومثل هذا لا يستحق العقاب الشديد والاجراء الصارم ويكفي لردعه اذا لم ينفع معه الارشاد والتوجيه ان لا يعامل معاملة المسلمين تلك معاملة اهل الذمة المعروفة وما جاء في القرآن الكريم من ذم تقليد الآباء والاخذ بالظن والتخمين في العقائد انها هو موجه الى هذا النوع.

٢. فيمن نشأ على غير دين الإسلام ايضاً ثم اهتدى ثم ارتد ورجع إلى دينه الاول فان مثل هذا قد تبين له الرشد من الغي واستطاع ان يخرج على عقيدته الاولى وليس هو كالنوع الاول فهو كمن اغمض عينيه بعد رؤيته لنور الشمس في رأد الضحى فيكون مصراً على العمى عناداً وجهلاً، فيجب أن يداوى باستئصال شأفته بالقتل غير انه لما كان في السابق على غير دين الإسلام يمهل ويستتاب لأن الإنسان مهما تبدلت عقيدته فان عقيدته الاولى تكون عادة متركزة في نفسه تنبعث عند اثارها من مكنها وعندما يضعف تشبهه بالعقيدة الجديدة، وهذا من ناحية نفسية صحيح فيكون له شيء من العذر فيستصلح مرضه بالارشاد ويستتاب فان تاب قبلت توبته والا يعد مرضه مستعصياً لا يداوى الا بالاستئصال خشية ان تسري عدواه الى غيره.

٣. فيمن نشأ وتربى على دين الإسلام فارتد عن دينه الى دين آخر فان هذا مستحكم فيه المرض ولا مجال لعذره كالنوع الثاني فانه لا يستتاب ويقتل.

ولكن هذا العصر (عصر الحرية...؟) لعب الاستعمار لعبته الكبرى فبذر روح الالحاد في مدارسه التي أنشأها في بعض البلاد الإسلامية تحطيماً لعقيدة المسلمين لينشأ الطفل على روح التمرد والشك في عقيدة الدين الإسلامي فأزاح بذلك القوى الهائلة التي كانت امامه للجامعة الإسلامية، وليس لدينا من سلطة دينية نافذة تحاسب هؤلاء

الحساب العسير: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾^(١).^(٢)

(١) إبراهيم ١٤: ٤٢.

(٢) نود الإشارة إلى أن هناك مداخلات أثارتها مقالة الشيخ عن حرية الفكر منها ما كتبه الأستاذ مزاحم الطائي بعنوان (دفاع عن حرية الفكر) استحسن فيها ما أفاض به الشيخ المظفر من أفكار ورؤى ونشرت في مجلة النجف بعدها الثاني من السنة الأولى، وهناك مقال آخر للسيد عبد المحسن الحكيم.



هوية النجف العلمية

جامعة النجف الأشرف صنو جامعة القرويين

سادتي:

كان في الدعوة الموجهة اليّ من قبل وزارة التربية المغربية الجليلة اقتراح بأن اكتب عن صدى جامعة القرويين عندنا وكان هذا الاقتراح الوجيه المناسب مثار حيرة عندي اذ حاولت ان اصغي الى رجوع الصدى في نفسي عندما اخذت اتساءل من كثير ممن اعرف من رجالات النجف الاشرف بل العراق عن علمهم بهذه الجامعة الجليلة فما وجدت لصداها رنة عند الكثير الا مجملات مما قرأه بعضهم في بعض الصحف السيارة او الكتب النادرة، ومن العجيب ان بعضهم لم يسمع حتى باسمها او لا يعرف موقعها. ولقد كان من الصعب جدا أن أصارحكم بهذه الحقيقة المرة في موقعي هذا وانتم فرحون ونحن معكم لنحتفل بمرور احد عشر قرنا على تأسيس هذه الجامعة التي تعتززون بها وحق لكم ولنا ان نعتز بها وهي مفخرة من مفاخر العرب والمسلمين حقا. ولا شك في ان هذا شيء مؤلم جدا ولكنني مضطر الى التصريح به وهو في الحقيقة نتيجة القطيعة التي عزلتنا عن المغرب العربي المسلم وعزلته عنا هذه المدة الطويل، ولا أظنه يعزب عن بال احد من الناس سر هذه القطيعة مع توفر وسائل تبادل المعرفة في هذا العصر بنشر الكتب والصحف بل الاذاعة فان المستعمرين جميع المستعمرين - اخزاهم الله تعالى بما جنوه في حقنا - ارادوا لبلادنا ان تتفكك او اصرها وتفرق كلمتها ويجهل بعضها بعضا حتى لا يبقى سبيل الى تجاوزها في آمالها وآلامها وتوحيد شعورها وبالأخير لينسد الطريق على تعاونها فيما بينها لرد كيد المستعمرين. وقد خاب فالهم بحمد الله تعالى.

وما أظن جامعة النجف الاشرف اكثر حظا من اختها جامعة القرويين في هذه الناحية فلو اردت ان افتش عن سر ما تنطوي عليه نفوس اخواننا المغاربة لما وجدتهم اكثر علما بجامعتنا منا بجامعتهم، والسبب هو السبب، فنحن شركاء في هذا الداء الدوي الذي مني به العالم الإسلامي اجمع من قرون مظلمة طويلة الامد حجبت عنه كل نور للتعارف. ولم تكن إلا هذه الزوايا في النجف الاشرف والازهر الشريف وجامع القرويين وأمثالها وفيها خبايا من رجال انقطعوا عن الدنيا زاهدين وانصرفوا في عزلتهم الى العلوم الدينية لا يريمون عنها ولم يخطر ببالهم ان يفكروا في ان ينهضوا بأمتهم من كبوات الدهر وعاديات الجهل. واني لهم ان يفكروا وهم عزل من سلاح القوة والسلطان!

ونحن في الوقت الذي تكبر هذه الجامعة فيما ادت للمسلمين ولعامة البشر من رسالة ثقافية قيمة وفيما احتفظت به من التراث الإسلامي والعربي عبر تلك القرون المظلمة بما انجبت من علماء اعلام وانتجت من آثار علمية وادبية نافعة لا نستطيع ان ندفع عنها اللوم اللاذع على انكماشها على نفسها وتضييق دائرة تثقيفها للمسلمين وقلة وسائل دعاياتها ولم تخط - مع الأسف الشديد - في سبيل الخروج عن عزلتها خطوة ذات فائدة تناسب هذا العصر الذي تنكر لها بما بشر به المستعمرون الصليبيون ضد الدين الإسلامي.

وما اكثر شكرنا للحكومة المغربية الجلييلة اذ تنبعت لهذه الناحية فأتاحت لنا - نحن المسلمين في الشرق - هذه الفرصة السعيدة وفتحت بها لنا المجال لتبادل التعارف بين اكبر هذه الجامعات الإسلامية القديمة الذي كان يجهل بعضها بعضا وعسى ان يتاح لنا بعد ذلك التبادل الثقافي فننهض بهذه الجامعات الى المستوى اللائق بها في هذا العصر. واني لأتعهد لكم ان انقل الى جامعة النجف ما احصل عليه من معلومات مفيدة

عن جامعتكم في مقابل ما تحدث به لكم بإيجاز عن جامعة النجف التي افخر بتمثيلها في هذه المهرجان واعتز بأن أكون احد ابنائها الذين انبتتهم تربتها وتغذوا من درها بالقدر الذي يسعه انائي الممنوح لي من الباري تعالى.

واعتقد ان هذا الحديث افيد ما استطيع التحدث به لكم بهذه المناسبة الجليلة بالذات.

سادتي:

ان جامعة النجف الاشرف صنو جامعة القرويين في قدم عهدها فقد تأسست اول بناية لها في القرن الثاني الهجري وهي بناية القبر المطهر قبر سيدنا امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بأمر الخليفة العباسي هارون الرشيد. ويظهر ان هذه البناية ما أسرع ان اجتذبت اليها قلوب المؤمنين من زائرين ومجاورين - الذين يتعطشون الى الانتهاال من نمير روحية صاحب هذا القبر والاستلهم من عقيدته الإسلامية العالية و قدسية نفسه الجبارة برغم جفاف هذه البقعة وبعدها عن العمران وهي تقع في صحراء مرتفعة قاحلة محرقة لا ماء فيها ولا كلاً الا ما كانوا يستنبطونه من ماء اجاج في آبار عميقة الغور.

ولم نتحقق الى الان متى كان ابتداء اتخاذها معهداً للدراسات الإسلامية ولكن اذا علمنا انها تقع في ظهر الكوفة والكوفة كانت مركزاً علمياً مشهوداً في تلك القرون يقرب الينا ان النجف لم تعدم في مجاوريتها من يشتغل بالعلوم الإسلامية يومئذ ولم نعدم الشواهد التاريخية على ذلك مثل بعض الاجازات العلمية التي صدرت من مدينة النجف في ذلك العهد، ومثل رواية كتاب فرحة الغري عن عضد الدولة البويهى انه لما زار النجف سنة ٣٧١ هـ وزع مالا على الفقهاء والفقراء فذكر الفقهاء المجاورين يعطينا نصاً على وجود الحركة العلمية ولكن الحقيقة التي يجب ان يقال انه لم يكن لها ذلك الشأن الذي يذكر في مركزها العلمي المرموق ومرجعيتها للتقليد الا في اواسط

القرن الخامس الهجري وذلك بعد ما هاجر اليها من بغداد حوالي سنة ٤٤٨ هـ الشيخ ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي العظيم المعروف بشيخ الطائفة صاحب الموسوعات والمؤلفات الخالدة في الحديث والتفسير والفقه وغيرها.

ان هذا الرجل من عظماء التاريخ فيما ألف وأسس وكفى ان يكون له اطلاق كبيران من الاصول الاربعة هما كتاب التهذيب وكتاب الاستبصار، وقد ارسلت فيما ارسلت من كتب الى خزانة جامعة القرويين هذا الكتاب، أعني كتاب الاستبصار في ثلاثة مجلدات وكفى ايضا يكون لهذا الشيخ تأسيس المركز العلمي للنجف.

أعود فأقول ان تاريخ النجف العلمي ومركزها الحساس عند الامامية يتدنى من ذلك العهد واستمر معهدا للدراسات الإسلامية بين مد وجزر حتى اوائل القرن الثالث عشر الهجري حيث القت المرجعية العامة للتقليد عصا ترحالها في النجف وذلك بنبوغ المجتهدين الكبيرين السيد محمد مهدي بحر العلوم والشيخ جعفر كاشف الغطاء بعد ان جابت عدة بلاد في فترات متباعدة كبغداد والحلة وكربلاء واصفهان.

ومن هذا العهد الاخير كثرت البنايات لسكنى الطلاب المهاجرين اليها من مختلف البلاد النائية وهذه البنايات هي التي تسمى بالمدارس وهي اشبه ما تكون بالأقسام الداخلية، وهي عندكم في القرويين، يبلغ الوجود منها الان قرابة ٣٠ مدرسة كبيرة وصغيرة بعد ان كانت بناية صحن الحرم العلوي هي المأوى الكبير لهم من ابعد العهود وبعض المدارس التي اندثرت.

وفي النجف اليوم حوالي خمسة آلاف طالب من مختلف الاقطار الإسلامية، كاهند وايران وافغانستان وباكستان والتبت وما اليها، وتقوم المرجعية العامة بتعيين جريات شهرية لكل طالب وتعتمد في مواردها المالية على الحقوق الشرعية التي يدفعها المؤمنون في مختلف الاقطار وبعض التبرعات من المحسنين وليس للمرجعية اي مورد حكومي

ولا علاقة لها بالحكومات على اختلافها في شؤونها الخاصة والعامة مادية أو غيرها. وأهم شيء يحسن ذكره بهذه المناسبة بعد الإشارة الى تأسيس النجف هو نوع دراستها واسلوبها لتسهيل المقارنة عندكم بجامعة القرويين الجلييلة. فإنها لا تختلف كثيراً عن سائر الجامعات الإسلامية القديمة في نوعية التدريس للعلوم العربية وما إليها في كونها دراسة خصوصية لا صفية وكذلك في اختيار الكتب ولا تزال على الاسلوب القديم في ذلك. وانما تمتاز جامعة النجف بطريقة تحصيل الاجتهاد في الفقه الذي تخصص بفتح بابه الامامية. وغاية الطالب الديني القصوى ان يبلغ هذه الدرجة العليا التي لا ينالها الا ذو حظ عظيم.

ولذلك تمر على الطالب ثلاث مراحل تدريسية لبلوغ هذه الغاية:

المرحلة الأولى: مرحلة دراسة (المقدمات) كما يسمونها، والمقصود بالمقدمات، النحو والصرف وعلوم البلاغة والمنطق وهي تقرأ في كتب لا يتجاوزونها الا نادراً كشرح قطر الندى وشروح الفية ابن مالك ومغني اللبيب في النحو والشمسية وغيرها في المنطق وهذه الكتب التي ذكرناها هي نفسها التي تدرس في جامع الازهر وجامعة القرويين - فيما نظن - وتختص النجف بكتب اخرى في بعض هذه العلوم لا سيما المتون الفقهية كالشرايع للمحقق الحلي وشروح هذا الكتاب كثيرة.

وقد وضع محدثكم كتاباً في المنطق بثلاثة اجزاء بدلا من الكتب القديمة بأسلوب سهل جديد وعبارة واضحة وضعته لكلية منتدى النشر قبل أكثر من عشرين عاماً وكاد ان يعمم تدريسه الان في معاهد النجف.

ونوعية الدراسة في هذه المرحلة دراسة فردية على الأكثر وربما اشترك فيها أكثر من طالب واحد فيشكلون حلقة صغيرة، وللطالب الحرية في اختيار المدرس، بل الكتاب وليس عليه رقيب الا نفسه او ولي امره كما ان في هذه المرحلة كسائر المرحلتين الاليتين

للطالب والمدرس حرية النقد والمناقشة وطبعاً تكون الحرية في هذه المرحلة محدودة بالقدر الذي يسعه افق الطالب وتفكيره والغرض منها التوجيه والتمارين على قوة الملاحظة.

وكثيراً ما ينضم إلى هذه المرحلة دراسة علم الكلام والعلوم الرياضية وبعض العلوم العربية الأخرى كعلوم العروض والقافية والبديع والنصوص الأدبية. وهذا كله حسب رغبة الطالب واستعداده في المشاركة بهذه المعارف ونحوها.

المرحلة الثانية: مرحلة دراسة (السطوح) كنا نسميها وهي دراسة متن الكتب الموضوعية في الفقه الاستدلالي وأصول الفقه ويتبع فيها محاكمة الآراء ومناقشتها بحرية كاملة. وعلى الأكثر تجري هذه المرحلة على أسلوب الحلقات حيث يجتمع أكثر من طالب واحد في مجلس أحد المدرسين المعروفين ويختلف عدد الطلاب في كل حلقة حسب اختلاف شهرة المدرس في تفوقه في أسلوب التدريس وسعة اطلاعه.

كما أن الحرية مطلقة للطلاب في اختيار الكتاب والمدرس والكتب التي يرجع إليها للمطالعة في حدود جرت عليه. وأهم الكتب المعروفة كتاب معالم الأصول وقوانين الأصول ووسائل الشيخ الأنصاري وكفاية الأصول هذه في أصول الفقه. وقد وضعت كتاباً في الأصول على نمط كتابي في المنطق يدرس الآن في كلية الفقه عندنا. وقدمت نسخاً من الأجزاء المطبوع إلى خزانة جامعة القرويين. أما الكتب الاستدلالية في الفقه فاشهرها شرح اللمعة الدمشقية الذي هو كتاب ابتدائي في الاستدلال وبعده كتاب رياض العلماء والمسالك ثم المكاسب للشيخ الأنصاري وهناك مراجع أخرى كثيرة أوسع دائرة وبحث لا يستغني عنها الطالب الباحث.

وإذا انتهى الطالب من هذه المرحلة بإتقان استحق أن يسمى (مراهقاً) أي مقارباً لدرجة الاجتهاد وقد ينضم إلى هذه المرحلة دراسة علم الكلام والحكمة والفلسفة

الالهية والتفسير والحديث واصول الحديث وعلم الرجال.

وهذه المرحلة ما قبلها قد يجتازها الطالب في عشر سنين فاكثر في جد متواصل مضمّن وهي مرحلة شاقة يضلّع فيها كثير من الطلاب فيتوقف عن الركب المغذ وبالأخير لا يلحق بالطليعة الداخلة الى باب الاجتهاد الذي لا يتوفّق له الا اسعد الناس.

وقد لمس كثير من المفكرين صعوبة هذه المرحلة فوجدنا ان من الجدير بنا ان نسعى الى فتح كلية منظمة لتتلافى بها كثيرا من النواقص التي يتشكّى منها وذلك بتبسيط بعض الكتب وتنظيم المناهج والدروس والامتحانات وهكذا تم لجمعية منتدى النشر ان تفتح (كلية الفقه) لتخرج طلاب لهم الاستعداد الكافي لحضور مجالس دروس كبار المجتهدين بالإضافة الى القيام بواجب الدعوة الى الدين الإسلامي وتبليغ مبادئه بمنابرهم واقلامهم وقد اضيف الى دروس المعارف الإسلامية المعروفة دروس في الاجتماع وعلم النفس والتربية والفلسفة الحديثة والتاريخ الحديث والفقه. وفرضت المعارف العراقية بنظام هذه الكلية ودرجتها العلمية الى لغة اجنبية واحدة ومن سنتين تم اعتراف وزارة المعارف العراقية بنظام هذه الكلية ودرجتها العلمية بدرجة ليسانس. وهذه الكلية لا يدرس فيها الا حملة اجازات الاجتهاد من كبار المجتهدين او حملة الشهادات الجامعية من الجامعات المعترف بها.

المرحلة الثانية: مرحلة (بحث الخارج) وهي حضور مجالس دروس كبار المجتهدين في الفقه واصوله. وهذه هي آخر مراحل الدراسة التي بها قد يبلغ الطالب درجة الاجتهاد وهي اعلى ما في النجف من دراسات عالية وبها امتياز هذه الجامعة عن جامعات العالم الإسلامية في اسلوب التدريس وفي حرية المناقشة والرأي وفي درجتها العلمية العالية.

تكون هذه المرحلة عادة في دورات يتولاها كبار المجتهدين وبيئدئ المدرس منهم

دورة اصولية او فقهية يلقيها بشكل محاضرات يومية فيشرح المسألة شرحا وافيا يعرض الاقوال من مختلف المذاهب الإسلامية ومناقشة الآراء فيها وادلتها ويختار ما ينتهي اليه رأيه مع الدليل. ولكل مدرس طريقته الخاصة في اسلوب البحث وسعة المنهج والاسس العلمية التي يعتمدها.

وهذه الدورات لا تكون الإجماعية يحضر فيها عدد كبير من الطلاب قد يزيد في بعض الظروف على الف طالب وذلك تبعا لشهرة المدرس في تفوقه العلمي ودقة منهجه واسلوب تدريسه.

وسميت بـ(بحث الخارج) نظرا الى ان التدريس فيها لا يعتمد على رأي خاص ولا عبارة كتاب معين الا ما قد يتخذ منها للبحث لتسهيل على الطلاب المراجعة للتحضير قبل الدرس.

والطلاب في هذه الدورات لهم كامل الحرية في المناقشة والرأي اثناء المحاضرة وبعدها وكثير من طلابها يكونون مجتهدين في انفسهم حتى قيل ان المجاهد الاكبر استاذ اساتذة هذا الجيل الشيخ محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية المتوفى سن ١٣٢٩ هـ كان يحضر درسه من المجتهدين حوالي ثلثائة طالب مجتهد.

وعلى كل حال فأن ميزة هذه الدورات عمق البحث ودقته وسعة افقه والحرية الكاملة في نقد الآراء ومناقشتها مهما كان صاحبها. وبهذا الاسلوب يغذي الطلاب ليتمكنوا من الاعتماد على آرائهم والثقة بنفوسهم ليصبحوا مجتهدين يرجع اليهم الناس وتقلدهم الامة في امورها ويقودونها الى الخير والسعادة.

وإلى هذا النهج الدراسي يعزى السر في تطور الدراسات الفقهية والاصولية في هذه الجامعة عبر القرون. ومن يقرأ كتابا في الفقه واصوله لأحد اعلام القرن الرابع والخامس مثلا ثم يقرأ كتابا فيها لأحد اعلام هذا القرن يلمس مدى التطور الذي بلغه

البحث في دقته واسلوبه.

ولإيضاح هذه الجهة قدمت نماذج من الكتب التي تدرس وتقرأ في هذه الجامعة اضعها بين ايدي السادة العلماء في جامعة القرويين ليطلعوا عليها ولتعكس لديهم المراحل التطورية لهذين العلمين.

وسأحمل معي - ان اذنتم - بعض الكتب التي تدرس في جامعتكم المحترمة لأضعها بين ايدي العلماء من موجهي جامعة النجف كوسيلة من اهم وسائل التعارف والتعاون بين الجامعتين وارجو ان نجد في هذه الانواع من الكتب مواضع للالتقاء تقتضيها جهات التشابه بينهما في وحدة الهدف بنشر الثقافة الإسلامية في اوسع مجالاتها وفي قدمها ونوع دراستها.

وحسبنا في ختام هذه الكلمة ان نسجل لجامعة القرويين واخواتها الجامعات الإسلامية نضالها في الحفاظ على لغة القرآن الكريم وادبياته وعلومه بعد ان مرت البلاد الإسلامية بقرون مظلمة كادت تقضي على الإسلام واللغة العربية من الاساس.

واني لمتفائل جدا بهذا الوعي الإسلامي العام في هذا الظرف بالذات وهذا التجاوب بالشعور بالحاجة الى التآخي والاتفاق والنهوض بأمتنا الى المستوى اللائق بها في هذه الارض التي اخذت علينا من اطرافها.

﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

والسلام عليكم.

توحيد الهلال بين الدول الإسلامية^(١)

إن الهدف الذي يرمي اليه التقرير هدف جليل له الأثر البالغ في حياة المسلمين وتوحيد كلمتهم ولا يزال المخلصون ينعون على الأمة الإسلامية اختلافها حتى في مظاهر اعيادها ذلك الاختلاف الذي هو على الأكثر نتيجة التواكل والتحلل وعدم العناية الجدية المخلصة بلمّ الشعث ورأب الصدع.

ويا حبذا ان تتعاون المؤتمرات الإسلامية في توجيه امتنا الى ما يجمع شملهم ويوحد كلمتهم تعاوننا يستهدف خدمة الدين الإسلامي والأمة خدمة صادقة خالصة.

وفي سبيل تحقيق هذا التعاون نعلق بما يعن لنا على ما جاء في تقرير الجامعة العربية في خصوص توحيد التواريخ الإسلامية ومواعيد العبادة فنقول:

إننا - المكلفين بالواجبات الإلهية - لأجل ان نخرج عن عهدة تلك الواجبات لابد لنا من ان نؤديها كما وردت في الشريعة بجميع ما لها من قيود وشروط، والا كنا عابثين مستهينين بها.

ولا شك في أن الوقت المحدد للعبادة كالصوم والصلاة من جملة القيود التي يجب مراعاتها والمحافظة عليها بدقة متناهية.

وفيما يتعلق بموضوع وقت الصوم بالخصوص الذي تناوله التقرير جاء في الحديث

(١) عثر في أوراق المرحوم الدكتور السيد محمد بحر العلوم على مسودة هذه المذكرة بخط الشيخ المظفر وهي تتضمن ملاحظات للمناقشة والحوار بها ورد بتقرير الجامعة العربية - آن إذ - بخصوص توحيد التواريخ الإسلامية ومواعيد العبادة والذي يبدو أن التقرير لتنتج جلسة حوار ربما كان منعقدًا في مجلس (برّاني المرحوم السيد علي بحر العلوم) ثم احتفظ بالمسودة عند السيد بحر العلوم وربما حصلت هذه الجلسة بتوجيه من المرجعية العليا.

النبوي الصحيح ما يؤكد عدم جواز الاستباق به عن وقته ابدا كالحديث الشريف «لا تصوموا قبل رمضان وصوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته» والحديث الآخر «لا تقدموا الشهر بصيام يوم ولا يومين إلا أن يكون شيء يصوم أحدكم لا تصوموا حتى تروه ثم صوموا حتى تروه» إلى غيرهما (راجع كنز العمال ج ٤ ص ٣٠٢ رقم الحديث ٦٠٧١ فما بعده).

وبعد هذا نقول: ان الشريعة الإسلامية اعتبرت ميقات الصوم بالشهر الهلالي (الشهر العربي) الذي عدته بالأيام الهلالية. واليوم الهلالي (وهو اليوم العربي) يتدئ من أول الليل بينما ان اليوم الشمسي يتدئ من نصف الليل. ولذا كانت العرب حينها تؤرخ ايام الشهر تقول: ”ثلاث مضيّن. لأربع مضيّن... وهكذا. ولثلاث بقيّن ولأربع بقيّن.. وهكذا“. فاعتبرت حساب أيام الشهر بالليالي لا بالنهار بدليل تذكير العدد فالمعدود مؤنث هو الليلة.

وعليه إذا تولد الهلال في اثناء الليل او في النهار فلا يدخل هذا اليوم في حساب الشهر - كما اراد التقرير ان يفرضه - لأنه لم يكن من اول الليل قد تولد الهلال. فإذا صمناه فقد قدمنا الشهر بصيام يوم وهذا ما لا تجوزه الاحاديث الشريفة المتقدمة وهي احاديث صريحة متواترة.

والنتيجة التي نستخدمها ان توحيد جميع الأقطار الإسلامية او الارضية على اعتبار يوم معين اول شهرهم الصيامي او يوم عيدهم لمجرد ان الهلال تولد اول الليل في مكة المكرمة لا يمكن ان ينطبق على ما جاء في الشريعة الإسلامية من توقيت الصيام والاعیاد وبالشهر الهلالي الذي يتدئ حساب أيامه من اول الليل.

ولأجل هذا حكم كثير من الفقهاء بأن ثبوت الهلال في بلد لا يكون حجة على البلدان الاخرى كما هو مذهب آل البيت عليهم السلام.

والتقرير أشار إلى اختلاف البلدان في تقدير الزوال والغروب للصلاة فتكون البلدان مختلفة ايضاً في تقدير يوم صومها وعيدها لاختلافها في تولد الهلال من اول الليل فيها. أي أنه لابد ان يمر غروب الليلة الاولى من الشهر وقد تولد الهلال فيه وكل بلدة على حدة.

ومع اعتبار ذلك لابد ان تختلف البلدان المتباعدة في تأريخ اول الشهر. وهذا الاختلاف لا يتجاوز - على كل حال - يوماً واحداً.

وقياس توقيت الشهر على توقيت الزوال بقرينة (جرتيش) - كما حاول التقرير - قياس لا يستقيم لأن هذا التوقيت بتعيين خطوط طول البلدان انها يضبط توقيتها الزوال، لا انه يوحد زوالها وتاريخه والتقرير يريد بهذا القياس ان يوحد التاريخ، لشهور البلدان المتباعدة واين هذا من ذلك نعم يستقيم هذا القياس اذا جعلت مكة المكرمة مركز انطلاق لتوقيت اوقات الشهور في البلدان الاخرى بأن تحتفظ لكل بلدة بوقتها الخاص بها نستطيع ان نعرف بالضبط لكل بلد اول شهرها كما نعرف في معرفة خطوط الطول لكل بلدة اول زوالها، وفائدة هذا هو ضبط اوائل الشهور في البلدان لا توحيد تواريخها كما يريد ان يستنتجه التقرير ويحصل عليه.

وهذا فرض معقول لا يتعارض مع القواعد الإسلامية وضبطه يحتاج الى دقة بالغة في الحساب وثقة كاملة بثبوت الهلال في مكة المكرمة ولابد ان يتفق جميع المسلمين على طريقة ثبوت الهلال.

هذا كله اذا صح لنا الاجتهاد بأن نعتبر الهلال يتولد النور به، اما اذا جمدنا على التعبير في الحديث النبوي بقوله ﷺ: «صم للرؤية وأفطر للرؤية» واستنتجنا منه ان ثبوت الهلال لا يكون الا بالرؤية ولا غيره بالحساب والآلات الرصدية فأن المسألة تكون اشكل. ولا يصبح في ذلك الغرض الذي ذكرناه بشرنا الا بالرؤية لكل بلد اسلامي باستقلاله والبلدان المجاورة له التي تتحد معه في افق الرؤية.

العلم والسعادة الأبدية

تمهيد

أحاول ان اثبت لك (ما استطعت) بالبرهان الذي لا محيد لك عن الايمان به والرضوخ له ان الاهتمام بالعلم المثمر للسعادة الأخروية اجدر عند العقل من الاهتمام بالعلم المنتج للسعادة الدنيوية وليس النقل متفردا في تلك الدعوى ليتسع لك المجال بدفعه زعما انه غير مدعوم بالعقل بل انما جاء النقل وفقا لما أوحى به العقل ودعا اليه فكلمتي التي رجوت ان تنظرها نظر تدبر وامعان لانظر سبر واستطراد تقع في ضمن نظرات:

النظرة الأولى

لا يرتاب ذو شعور حساس بأن سعادة الإنسان - بالعلم - وان حظه من السعادة على قدر ما اكتسبه بجده من العلم وانك لترى تفاوت مراتب ورواتب العلماء وما ذاك إلا لأن الأسمى رتبة وراتبا كان نصيبه من العلم اوفر.

وليست هذه النظرة نظرية لتطالبني بالبرهان على صدقها بل هي اليوم من اول الضروريات المحسوسة لكل ذي ادراك وحس وان ابنت الا ان ادعم تلك الدعوى بالدليل بالوجدان اقنع شاهداً واقطع برهاناً فهذه (امام باصرتك) الأمم التي حلقت فاخترقت السحاب اوليس العامل الوحيد الذي اوجد لها قوادم تحلق بها في الفضاء كيفما تشاء - هو العلم - ولا اراك تغالطني زاعما ان (بالمال) رقي الأمم بعد ان عرفت ان المال رائده (العلم) وان (العلم) هو ينبوع فيضه ووابل روضه وهو الذي ألان لهم الحديد وسخر لهم البخار فصيرهما طيارة أو سيارة.. او.. او تستنزف ما نجد من حمراء

وبيضاء. وهذه النظرة يتفق عليها ويتحد في تصديقها ذوي البصائر والابصار من البشر سواء كانوا معترفين بالمعاد او منكرين له.

النظرة الثانية

يتسنى لي ان ادعي ان العلم علمان والسعادة سعادتان علم يثمر سعادة الآخرة وعلم يجلب سعادة الدنيا وعند هذه النظرة يودع الجاحد بالمعاد المؤمن به ويتفارقان ولا يسايران كتفا لكتف إلا أهل التوحيد بكافة شيعهم وجميع نحلهم بأن أساس البناء على السعادة الأخروية والاهتمام للفوز بها هو الاعتراف بالعود الى الوجود بعد العدم وان هاتيك الحياة الثانية فيها سعادة وشقاء ونعيم وعذاب وهذا لا يؤمن به إلا أرباب الكتب السماوية الخاضعين للصانع القدير فالقسمة الثانية اذا لا ينكرها المعترف بواجب الوجود لنتحتاج الى إقامة البرهان عليها ولسنا بصدد اثبات وجوده الواجب (جلت ذاته وتقدس صفاته) وما يلزم ذلك من معاد وحساب وثواب وعقاب فأن البحث عن ذلك مستوفى في كتب الكلام فنكون ما نحاول إلفاتك اليه مقصورا على اشيع التوحيد وفرق الايمان وحسبنا هؤلاء اذا وقعت ابصارهم على هذه السطور واعطوها حقها من النظر والانصاف وان كنا نود توجيه النصيح لعامة إخواننا من البشر غير ان ذلك يستدعي توسعة نطاق البحث والخروج عن الخطة المبحوث عنها في هذه الكلمة.

النظرة الثالثة

ان الموحّد في حين اعترافه بعودة هذا العالم البشري الى الحياة مرة أخرى يعترف ببقاء تلك الحياة وان الإنسان فيها إما في عذاب وإما في نعيم كما يعترف بفناء هذه الحياة وما فيها من تعاسة وشقاء وسعادة وهناء وفي حين اعتقاده بأن الإنسان صائر إما إلى جنة وإما إلى نار ويعتقد بدوام تلك السعادة أو الشقاء وأن ليس هناك واسطة بين الحالتين.

النظرة الرابعة

وإن من الضروري عند أرباب الشرائع أن الله تعالى لا يخلق تلك الدار التي نصير إليها بما فيها من سعادة وشقاء عبثاً وإنما خلقها ليجازي بها المطيعين والعاصين من عباده كل بما عمله في هذه الحياة إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرّاً أنه لا يُنعم فيها قومٌ ويُعذب آخرون جزافاً من دون أن يعمل المنعمون ما به يستحقّون السعادة والمعدّبون ما به يستحقّون الشقاء ولو أنه يعذب من يستحق النعيم لكان ذلك منه ظلماً (تعالى عنه) والظلم قبيح بضرورة العقل وارتكاب القبيح نقص في الكامل الغني عن ارتكاب ذلك القبيح. وإذا اتصف بالنقص كان ممكناً لا واجب الوجود لأن الواجب وجوده ينافيه النقص الذي هو من صفات الممكنات.

النظرة الخامسة

فقد تحصل لديك من هذه النظرات هو أن (العلم) رائد السعادة وأن السعادة سعادتان دنيوية وأخروية وأن العلم الذي يجلب لنا السعادة الدنيوية هو علم الدنيا والذي يجلب لنا السعادة الأخروية هو علم الآخرة وأن سعادة الأخرى باقية لا فناء لها وسعادة الدنيا فانية لا بقاء لها وأن الفوز بهاتيك السعادة الخالدة إنما يكون بالأسباب التي أباها (جل وعلا) على ألسنة رسله الكرام.

فإذا كانت سلسلة هذه النظرات محكمة العرى عندك فلا أنصب لك حكماً تخضع لحكمه وتؤمن بصدقه غير عقلك فهل يا ترى كيف تجده إذا أبصر بعين بصيرته تلك السلسلة الذهبية أفلا يحكم بأن نيل السعادة الأبدية أهم وأجدر من نيل هذه السعادة الزائلة على ما بين السعادتين من البون الشاسع من حيث النعيم والدعة واللذات وأن مراتب الأهمية بين السعادتين على حسب مما بينهما من التفاوت من حيث البقاء والفناء والحبور والسرور.

ومن العجب أنك على قدر ما يوحيه إليك عقلك من الجدّ والطلب للحصول على تلك السعادة الباقية نجدك صافحاً عنها ومتنكراً منها ومن العلوم الشريفة التي إذا تعلمتها وعملت على وفقها تحظى بهاتيك الزلفى مقبلاً على هذه الدار الزائل عنها والزائلة عنك على علومها التي لا تبلغك لو توفقت لتعلمها والعمل بها إلاّ سعادة مؤقتة على ما حفت بها من المكاره والأخطار و.و.و.الخ. فكأنما الدنيا خلودك وسعادتك والآخرة دار فنائك وشقائك.

ولا تحسب أنّي أريد أن أثنيك عن الأخذ بحظك من سعادة هذه الحياة الزائلة فإن الهيئة الاجتماعية والنظام البشري مفتقران إلى زراعة وصناعة وتجارة و.و.و.الخ. وكل من هذه الأعمال له علم يكشف لك عن حقيقته وينيبك عن غامض سرّه وأن تعلمك لأحد هذه العلوم لتتنظم في سلك العاملين في معترك هذه الحياة لمن ضروريات البشر غير أنّي أحاول إلفاتك إلى ما يدعوك إليه عقلك من التفكّر دائماً فيما يعقب الموت من البقاء والخلود لا إلى أمد لتزوّد من هذه الحياة على حسب ما يريده الله منك حتى إذا ارتحلت إلى تلك الدار الخالدة تسكنها سعيداً فائزاً بهنائها الأبدية ولا أراك إذا راجعت عقلك النبیه وقبلت نصحه تبقى فانياً في سبيل هذه الحياة الفانية معرضاً عمّا يزودك لسعادة تلك الحياة الدائمة ولا أخالك بعد التبصّر تهتم بعلم الدنيا أكثر من اهتمامك بعلم الأخرى.

وأرجو أنّي وافيتك بما تقنع به من أن العقل يرى أن العلم المثمر للسعادة الأبدية أهم من العلم المنتج للسعادة المؤقتة كما أرجو منه تعالى التوفيق لي ولك لنيل السعادتین إنه خير موفق ومعين.

توصيات الى طلبة كلية الفقه^(١)

على طالب كلية الفقه:

١. أن يتحلّى بالروح الإسلامية العالية التي تتمثل في سلوكه مع الناس من الصدق والامانة والتواضع وحب الخير والايثار والعطف على الفقير وقضاء حاجة الناس واحترام اخوانه المؤمنين والابتعاد عن كل ما يتجافى مع التعاليم الإسلامية.
٢. أن يشعر بأنه يتحمل رسالة الإسلام في هذا العصر المنجرف بتيار اللادينية، فيجعل من نفسه نموذجاً صالحاً للمسلم الغيور على دينه وامته، ولا يسلك داخل المدرسة وخارجها سلوكاً يتنافى مع هذه الرسالة حتى يمثل الانتساب الى الاحزاب السياسية التي تتنافى منهاهجها مع تعاليم الإسلام.
٣. أن يتحلّى بالروح العلمية الممتازة التي تتمثل في حب البحث والمعرفة، والحرص على الاستفادة من اساتذته، والمواظبة على حضور محاضراتهم ودروسهم.
٤. أن يتحلّى بالروح الطلابية الرفيعة من الشعور بالمسؤولية تجاه مدرسته ومنتسبيها من طلاب واساتذة ومدرسين وموظفين، فيحرص على امتثال تعليمات المدرسة وانظمتها وتأدية واجباته المدرسية، ويحرص ايضاً على الابتعاد عن العنف والقول الجارح.
٥. أن يتفهم رسالة الجمعية وكليتها حق الفهم، فيوجه نفسه ويعدها الى القيام بأعظم واجب اسلامي وهو الارشاد وتبليغ تعاليم الإسلام واشاعتها في أكبر عدد ممكن من المواطنين بجميع الوسائل الخيرة الممكنة.

(١) مجلة النجف السنة الخامسة العدد الأول جمادى الثاني / ١٣٨٢ - تشرين الأول / ١٩٦٢.

رجل الدين^(١)

يا رجل الدين

إنك لتكذب في ادعائك الإيمان، إذا كنت يائساً في إصلاح البشر، أو من قوّتك على العمل للإصلاح ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

فإن الله تعالى أودع في كل إنسان حياة متدفقة، ومواهب فياضة، ونفساً جياشة، وضميراً حياً، لو استعملها كلها وهو مؤمن بنفسه مخلص للحق، لبلغ الكمال اللاتق به في هذه الحياة، ولكان شيئاً مذكوراً.

ففيك القوّة، وفي الناس العدة، والله تعالى من وراء القصد، فلا وجه للقنوط، ولا معنى للاستخذاء والضعف فتقعد ملوماً مدحوراً والإنسان مخلوق يفيض ينبوعه بالحياة.

وما عليك إلا أن تستغل هذه الحيوية لنشر الفضيلة فأنتك - يومئذ - الرجل.

(١) مجلة النجف السنة الثانية العدد الرابع عشر ١٩٥٨.

(٢) يوسف ٨٧: ١٢.

عصر الإفلاس الروحي^(١)

أيها الإخوان:

لم يبلغ عصر من عصور التاريخ - ولو في خيال اهلها - ما بلغه العصر الحاضر عصر الكهرباء والذرة من التقدم في العلم والحضارة، ومن نافلة القول ان نقول ايضاً، ان تلك العصور الخوالي لم تتأخر كما تأخر عصرنا في الأخذ بالمثل العليا والاخلاق الفاضلة، فهو بمقدار غناء الثري في الماديات اصبح فقره المدقع في الروحيات وهو كما يسمى بحق عصر النور يستحق ان يسمى أيضاً (عصر الإفلاس الروحي).

وهذا الافلاس في الروحيات ليست تهمة تكال جزافاً وامراً يحتاج الى تدليل بل هو الواقع الذي لا مفر من الاعتراف به، ولا سبيل للهروب من مواجهته فمن كان يهيمه حقاً اصلاح هذا الطيش المادي والابتعاد عن الدين والخلق العالي، فلا بد له من مقابلة هذه الحقيقة وجهاً لوجه والتسليم بها ثم البحث عن أسبابها قبل التفكير بالعلاج شأن كل مرض لا غنى للطبيب في علاجه من معرفة أسبابه.

إنه لأمر يكبر عن ان تتناوله اقلامنا بالبحث او يصل اليه تفكيرنا بالحل وهو مرض مزمن عالمي قد شمل الأرض كلها على تعدد بيئاتها واديانها وجرف الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم الا افراداً معدودين وهم في تناقض مستمر ولقد صار هذا المرض سمة النهضة الحديثة لا تفارقها كما لا تفارق الابتسامة ثغر الفتاة اللعوب المرححة لتغري عشاقها وتوقع في الشرك فتيانها.

كما اني اعترف بالعجز عن التأثير على واحد من مائة من السامعين او قراء كلمتي

(١) مجلة الدليل العدد العاشر السنة الأولى النجف، شعبان/١٣٦٦هـ تموز/ ١٩٤٧،

في هذا الشأن فضلاً في ان اطمع في التأثير على العالم الإسلامي فكيف بالعالم كله، ولكن الحقيقة يجب ان تقال وتبحث ما وجد سبيل للبحث ولو ليتأثر بها واحد من ذوي العقول الراجحة، وبه الكفاية لو قدر له ان يكون من القادة المصلحين.

أيها الإخوان:

ولا اكتمكم اني لأتوسم في واحد منكم على الاقل من اعضاء المنتدى او اساتذته او طلابه ان سيكون من قادة الرأي الجبارين للنهضة الدينية المنتظرة وان كنت لا اثبت بهينه، واذا كنت لست اهلاً لهذه القيادة فان شرفي ان اكون قد لفت نظر هذا الجندي المجهول قائد النهضة الدينية في المستقبل الى بعض ما ينبغي ان يعلمه الآن.

على ان الذي يطمع مثلي في تناول هذا الموضوع العالمي الخطير أمران:

(الأول) جزع الناس من ويلات الحرب العالمية الثانية التي هي نتيجة النهضة الحديثة فبدت حسرتهم على ان يتشبثوا ولو بغصن من شجرة الروح عسى ان ينقذهم من موج بحر المادة الطاغي.

(والثاني) تحول الناس من عصر الكهرباء الى عصر الذرة هذا العصر الذي فضح تهويل الماديين في ادعاء خلود المادة وبقائها فانفلتت ذرة مادتهم وانطلقت في الفضاء طاقة قوتها الكامنة ساحرة بتخمينهم فانهار اعظم اساس بنى عليه المنكرون لوجود الخالق تعالى صرح ادعائهم بعدم فناء المادة.

وعلى كل حال إذا أردنا البحث عن اسباب تضعضع الروح الدينية في البشر فلعل أهم اسبابه الحرب الدائمة بين العلم والدين، وهذا ما يجب ان نعترف به بصراحة فكلما اخذ احدهما مكانه في النفوس انزاح خصمه وابتعد مغلوباً. وهذه الحرب ليست وليدة هذا العصر او الذي قبله بل تمتد الى ابعد العصور ففي صدر عصور الإسلام لما انفتح باب العلم من اليونان وغيره شعر الدين في اهله نزول خصم له في الميدان فأراد الاتفاق

والتصالح فانقلب الى الكلام والجدل فنشأ ما سموه (علم الكلام) علما يعلن بالمخاصمة والنزاع بدل ان يتوصل الى الصلح والاتفاق فلذلك عندما ينتصر العلم يتضاءل أمامه هذا المعنى للتصالح وقد وجدنا كيف عاد بالخبية علم الكلام لما نضجت الفلسفة في العصور الإسلامية الوسطى... ومع ذلك فلم يخل حتى هذا العصر ممن يحاول التوفيق بين الخصمين وينشد الصلح بين المتحاربين من دون ان يكون له اثر محسوس يذكر.

أما لماذا هذه الحرب؟

وهل هذه الحرب حقيقة؟ اي ان الدين والعلم خصمان حقيقيان أم ان التخاصم انما هو بين اهليهما خداعاً وجدلاً للوصول الى مآرب اخرى من اخضاع العامة لأحد الطرفين؟

فإن هذا هو الذي يستحق البحث وعدم انكشاف هذه الناحية الخطيرة لعامة البشر هو الذي اوقعهم في هذا التبلبل والحيرة، وهو علة العلل في هذا الداء الويلب العالمي اليوم والذي يجبر الى الابتعاد عن الدين عندما يشعرون ان الأخذ بأسباب العلم ومقتضياته ضرورة اجتماعية لا مفر منها، ولا سيما ان العلم يطلب الحق للحق وحده، وهذه ظاهرة امتاز بها هذا العصر خاصة بقوة لا مثيل لها في جميع العصور فكان للعلم - على ما هو عليه السلطان المطلق على الناس.

ولعل من حسن الحظ ان رجال الدين يتحمسون لدينهم فينكرون ان يكون للعلم الحقيقي اية مخاصمة مع الدين ليقبلوا من غلواء حضورهم ويحاولون التوفيق بينهما جهد الامكان، وكذلك رجال العلم لا يزالون عندما تشتد ظاهرة الخصومة. ويخشون التأثير على حريتهم في البحث يسالمون الدين ويبرهنون على ان الدين الحقيقي لا يعارض العلم.

فيمكن للباحث حينئذ ان يستنتج من دعوى الطرفين واعترافهما ايضا ان الدين

الحقيقي لا يخاصم العلم الحقيقي وانما الدين بما يصبغ به من ظاهرة بسبب بعض رجاله بما يدخلون عليه او بسبب العادات الموروثة خارج الدين هو الذي يخاصمه العلم او ان العلم المبني على التخمين والحدس والظنون الذي ليس له حقيقة مطلقة هو الذي يعارضه الدين.

والحق انه لم يثبت للعلم الى الآن حقيقة مطلقة لا تقبل التعديل والتبديل تصلح لان تكون مناهضة للدين ولم يعرف الى اليوم ان حقيقة دينية ثابتة لاسيما في الدين الإسلامي عارضت بالصرامة حقيقة علمية مطلقة.

نعم ان النظريات العلمية مهما كانت قيمتها عند حدوثها اذا كانت تخالف المؤلف او المعروف عند الناس تأخذ موجة من المعارضة، ولأجل ان تكون هذه المعارضة قوية فعالة تصطبغ باسم الدين.

واذا استطاعت تلك النظريات ان تثبت للنقد والخصومة - وان كانت على خطأ - تصبح مألوفة عند الناس من جديد وتحل محل النظريات او الآراء السابقة فتستخفها، والعجيب انها حينئذ يلتمس لها التأويلات من النصوص الدينية يصبغونها باسم الدين بعد ان كانت تعارض باسمه كما حدث ذلك فعلاً في نظريات الفلسفة اليونانية التي هجمت على المسلمين في العصور الاولى، ثم هذه النظريات التي تألفها الناس لو هاجمتها ايضاً نظريات جديدة ومكتشفات غير مألوفة هبت لها نبرة المعارضة متذرعة بسلطان الدين، كأن الاولى المتألفة هي التي جاء بها الدين إذا استقر التأويل عليها إلا ان هذه النظريات الجديدة لو ثبتت ايضاً للخصومة لابد ان تصطاح مع الدين إذ تصبح من المؤلفات فيلتمس لها التأويلات من جديد... وهكذا دواليك ما ثبت الدين قائماً.

أيها الإخوان:

وكل هذا يدلنا على ان الدين الحق شيء فوق مستوى العلم ولا يمس الا موضع

العقيدة من الإنسان لتربيته على المثل العليا وطلب الخير المطلق والسعادة الدائمة، ومن الخطأ ان نظن انه يجب ان يساير العلم عند الناس الذي لا تثبت له حقيقة مطلقة وهو عرضة في نظرياته وآرائه للتبدل والتعديل سواء في علوم الطبيعة أم علوم الحياة والاجتماع ونحوها، ومن الخطأ ايضاً ان نلتمس التأويل في النصوص الدينية لتطبيقها على ما يتجدد من العلوم، وقد ينكشف بعد حين فسادها، ولذلك نهانا ائمتنا عليه السلام عن علم الكلام وشددوا النكير على المتكلمين وقالوا ايضاً: «إن دين الله لا يصاب بالعقول». كما يجب في ناحية العلم ان تتخذ آلة فقط للترفيه عن الحياة الاجتماعية وخادماً لمصالح البشر وانما هداهم الله تعالى اليه لهذه الغاية لا يتجاوزها الى موضع العقيدة من الإنسان وما يتخذ الدين له من مثل عليا واخلاق فاضلة فللعلم ميدان يحول به وللدين ميدان آخر، وليس هذا لقصور الدين الحقيقي عن مسيرة العلم بل لقصور الإنسان في علمه أن يحول في ميدان الدين فيكشف عن الحقيقة المطلقة في هذا الميدان فاذا اهتدى الى شيء من اسرار الشرايع السماوية فبفضل الله تعالى والدين خلق للحق المطلق واذا لم يهتد الى السر فليودع علم ذلك اليه تعالى.

وبهذا يقع التصالح بين ما نسميه العلم عندنا وبين الدين الحقيقي ولكن غيبة هذه الحقيقة عن اكثر الناس لاسيما الذين بهرهم تقدم العلم في هذا العصر من دون ان يكونوا من اهله سببت ان يعلن في نفوسهم الخصام بين العلم والدين، وقد قهرهم الاول بسلطانه فابتعدوا عن الثاني سافرين؟ على ما في ذلك من افلات من القيود واتباع للهوى والشهوات فضعف عندهم الوازع الديني وساد الافلاس الروحي.

ولا أشك ان علماء الغرب الراسخين يدركون منزلة العلم الحقيقية بل يدركون جهلهم بأسرار الكون، وانهم لم يصلوا الى الآن حتى الى شاطئ المعرفة ولم يتكهنوا حتى اسرار الطبيعة باعترافهم، وهم علماءؤها، فلذلك هم اقرب الى معرفة خالق الكائنات

من اتباعهم المتمسكين بأذيال علومهم.

ألا ترى إلى (ملكن) الشهير الذي قاس مقدار الشحنة الكهربائية على الكهيرب الذي هو جزء من مئات الاجزاء الموجود في الذرة التي هي جزء من الجزء الذي يعجز عن رؤيته الجهر كيف يقول: (عرفوا المادة وانا اتكفل بتعريف الروح) على ان كفالته لم تخل من مبالغة بل فيها كل المبالغة، ولكنه يريد ان يقول أنا لسنا في تعريف الروح اكثر عجزاً من تعريف المادة التي ندعي معرفتها فهو منه اعتراف بالعجز عن معرفة اسرار الطبيعة فضلاً عما وراءها.

أيها الجندي المجهول:

لقد فرضتك موجوداً بين الاخوان الحاضرين فيحلولي ان اخصك بالخطاب وأرمز لك رمزاً الى ما استهدفه من مغزى، ان من الحقائق النفسية الثابتة التي ايدتها التجارب في مختلف العصور والعهود ما تضمنته كلمة خالدة لإمامنا الحسين عليه السلام: «الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على الستهم يحوطونه ما درّت معاشهم فاذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون» وهكذا قل في كل عقيدة حتى هذه العقائد التي خلقها العصر الحاضر كالعقيدة الوطنية والقومية وليس هذا ما يبعثك على اليأس من النهضة والاصلاح بل هي الحقيقة التي يجب ان نسكن اليها وان تبني عليها النهضة سلباً وإيجاباً فاذا فهمنا كيف تربي العقائد وتغذى من هذا الطريق المرموز اليه وكيف تبطل وتتضاءل من هذا التمحيص وعلمنا ان هذا أمر طبيعي في نفوس البشر نستريح من الالم النفسي المضني عندما نشاهد نقائص البشر ونقائصهم ويزيد أملنا في الاصلاح الممكن الذي لا يطلب اكثر منه في الشرايع السماوية أو المذاهب الاخلاقية وبهذا نكتفي في الاشارة خوف ان يجرنا الكلام الى تفاصيل ليس من حقها ان تذاع.

كيف نربي المواهب النفسية^(١)

أودع الله في النفس الإنسانية قوة كامنة طبيعية يستطيع بها ان يفعل الاعاجيب ويأتي بخوارق العادات ووهبه من كنوز هذه الفعالية ما تكفيه لأن يسمو بنفسه الى الكمال ويعلو بها الى أعلى ما يطمح اليه من درجات التقدم والعلم.

ولكن من المؤسف جداً أننا نحن البشر لم نستخدم من هذه القوة الخارقة الا أقل القليل ولم نفتح حتى الآن من كنوزها التي لاتحد الا الشيء النادر وما زالت عندنا هناك كنوز وقوى كثيرة اخرى مغمورة تحت انقاض الاهمال مطمورة بالتهاون والكسل وللعادات الخبيثة التي تركزت في نفوسنا الاثر في تأخرنا من اقتناص الفرص التي تمكننا من فض اختام تلك الكنوز من القوى الطبيعية فينا، والسر كل السر في تفوق النوايع من البشر الذين استطاعوا ان يأتوا بما يميزهم عن سائر الناس انهم وقفوا الى اكتشاف كنوزهم اكثر من غيرهم واستغلوا قواهم الطبيعية بدرجة اكبر.

فليس هناك في الحقيقة رجال ناجحون متفوقون ممتازون لأن طبيعتهم ومواهبهم متفوقة فقط وليس الخمول والاختفاق في الناس على الغالب لأنهم لم يوهبوا ما وهب اولئك من قوى ومواهب وإنما أولئك استطاعوا ان يثقوا بأنفسهم فوقفوا الى استخدام قواهم ومواهبهم وهؤلاء فقدوا الثقة بأنفسهم فلم يستطيعوا ان يستخدموا من قواهم وملكاتهم إلا الأقل التافه.

(١) اعتاد فضيلة الأستاذ المظفر أن يحدث قسماً من طلابه في اجتماعات خاصة أحاديث أخلاقية وقد استطاع الطالب النابه عبد الحليم البغدادي من طلاب الصف الأول من الكلية أن يلخص بعض تلكم الأحاديث بقلمه وإلى قرأنا الكرام الحديث الأول منها.
أنظر نشرة البذرة السنة الأولى العدد الأول ص ٧ - ٩.

أما في نفس تلك القوى العجيبة الكامنة فالناس على الأكثر فيها متقاربون فليس للمرء ان يستحقر نفسه مهما كان خاملاً ضعيفاً، ولا ينبغي ان يقف امام اولئك المتفوقين في الانتاج والناجحين في الحياة موقف العاجز مبهوراً فيخيل الى نفسه ان الدرجة التي توصل اليها ذلك العبقري الناجح لا يستطيع ان يناها ويتوصل لأنها في مناط الثريا، في حين انه قد يكون في استطاعته ان يصل الى ارقى من تلك الدرجة العالية، وهو قد يملك اكثر من القوة التي يملكها ذلك الناجح، وما عليه الا ان يبذل جهداً أوسع وتضحية اكبر من نفسه فيمرنها على العمل والجهاد في سبيل استغلال مواهبها الكامنة واقتناص الفرص التي تمكنه من فض اختام تلك الكنوز، فيبلغ درجة من الكمال والقوة التي لم يحلم بها.

نعم كذلك كل انسان يستطيع ان يبلغ المنزلة الكمالية التي يتوق اليها إن هو لم يحتقر نفسه ولم يستخف بها ويأس منها وصبر كثيراً على تمرينها وتعويدها.

ولا عجب فان الإنسان (خليفة الله في أرضه) ليستخدم موارد الطبيعة ويتحكم في اسرارها ويستغل خيراتها فهو ملك المخلوقات وسيدها لم تخلق في الارض الا له ولمنافعه.

وهل تدري لماذا كان سيد المخلوقات وامتاز على سائرهما وكان خليفة الله على مخلوقاته لا بشيء سوى ما وهبه الله من قوة عاقلة مفكرة يستطيع بها ان ينظم اموره ويدبر حياته ويعلو على الطبيعة فيستحصل خيراتها ويستغلها لخدمته ومنفعته، فالقوة العاقلة في الإنسان هي الفاصل بينه وبين سائر المخلوقات وبها امتاز على غيره من البهائم فليس الإنسان في الحقيقة بهجة راقية بعض الحيوانات على البعض كما يدعي البعض الذي قصر عن ادراك هذه الناحية في الإنسان، بل قصر عن ادراك قيمته الحقيقية، وانما الإنسان نوع اسمي يبعد كثيراً عن المخلوقات حتى استحق ان تسجد له الملائكة تعظيماً

اذ قد تميز بقوته العاقلة المفكرة التي لها كل الفضل في توجيه قواه ومواهبه الاخرى وترويضها وجعلها قوة عامة لا تجارى.

ولو تدبر الإنسان في نفسه وما فيها من هبات الله من تلك القوى والمواهب لأحس بعظمته وسمو منزلته ومكانته بين المخلوقات ولو عرف ذلك لما استصغر نفسه ولما داخله اليأس ونالته الصفة وكان شيئاً مذكوراً وحصل على قسطه الذي يستحقه من الحياة ولعرف خالقه الذي أودع فيه هذه القوى العجيبة، نعم «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

فالنقص الحقيقي فينا هو جهلنا بقيمة انفسنا واستهانتنا بمواهبنا الطبيعية فنذهب حياتنا سدى في التوافه التي لم نخلق لأجلها وتضيع ساعاتنا التي هي أثمن من كل شيء عندنا فيما لا يعنيننا فنخسر قوانا الكامنة بل نخسر نفوسنا وأخلاقنا.

ومهمّة (علم الأخلاق) إزالة ذلك النقص الحقيقي وتربية النفس الإنسانية على استغلال قواها وتركيتها وتهذيبها مما يفسدها ويميتها ويجعلها في صفوف البهائم الخاملة التي ليس همها الا علفها واشباع شهوتها فعلم الاخلاق هو مفتاح كنوز النفس الذي يلهم النفس صلاحها وتقواها وقوتها وسيطرتها على مواهبها واهوائها ويعلمها معنى الفضيلة وقيمتها ويعطيها لذة التضحية في سبيلها، وحاشا علم الاخلاق مما ألصق به الصاقاً من الدعوة الى الخمول والخنوع وقتل مواهب النفس وتحبيذ الذل والمسكنة والضعف والضعفة...

مشكلة الدراسة الدينية^(١)

وجهت سؤالاً لطلاب «منتدى النشر» في أسبوع أسبق ليكتبوا عنه - بحكم المنهاج المقرر لكل أسبوع - عن مشكلة الدراسة الدينية هنا، وبالأحرى عن سبب تأخر حركة النجف العلمية التي كانت دائبة صباح مساء، والتي كنت تلمستها في النوادي العامة والخاصة، في الجوامع، في المدارس، في صحن الحرم العلوي، في البيوت، في كل مكان تجتمع فيه رجال الدين حتى في الطرقات وهم ذاهبون من ناد لآخر أو من درس لدرس.

يستطيع الملاحظ الذي شاهد النجف قبل عشرة أعوام - على الأقل - ويشاهدها اليوم، ان يدرك ظاهرة هذا البون الشاسع بين الأمس واليوم؛ وكيف كانت النجف كلها حركة علمية كأن ليس فيها الا دروس ومحاضرات ومذكرات، وكيف هي اليوم لا تحس منها بالحركة الا في بعض الجوامع والمدارس من نفر محدودين هم تراث العهد السابق.

ومن هذا المجهر يستطيع ان ينظر المرء الى الغد القريب كيف سيخدم فيه نبراس هذا الزيت - لا سمح الله - إذا لم يصمد المصلحون للخطر صمود الأبطال. وبودي إلا يذهب فكر القارئ الى أبعد حد من معنى كلمة (التأخر)، فأن النجف لاتزال - بحكم قوة الاستمرار - تضم بين جوانحها عددا غير يسير من علماء مجتهدين ومن طلاب لا هم لهم الا ان يصلوا الى الدرجة من العلم التي يفرضها عليهم الواجب المقدس. مهما تعترض سيرهم من عقبات واتعاب ومن حوادث تأخذ من صبر الطالب بالحناق، وان صبروا فإنما يصبرون على جهاد نفسي عظيم، يعرفه من اندمج معهم

واطلع على شؤونهم الشخصية التي قد تخفى على بعضهم من بعض، ولهم بذلك الشرف الخالد.

ولكن الشيء الذي يصح أن يسمى تأخراً أن الموجودين منهم - ونتمنى لهم طول الحياة والصبر - لا يزال الموت وفرار من لا يستطيع هذه المضض من الميدان يأخذان منهم بنصيبهما الوافر، في حين أن أبناءنا لم يعودوا يتشجعون على انتهاج هذه الخطة، فلم نحفظ بطلاب جدد يكونون خلفاً للسلف، ونصل بهم الحلقات المتسلسلة التي جاءتنا مستمرة من قرون الإسلام الأولى نتيجة للجهود المستمرة الجبارة.

وهذه هي المشكلة التي تذوب لها قلوب المخلصين جزعاً، والتي يعني بها كل من يهمه من أمر الدين الإسلامي أن يسائر الزمن ويحتفظ بمكانته كدين له روحياته وأحكامه وتعاليمه. ولا شك أنها هو بحملته وحمله علومه ومعارفه.

قلت: إني وجهت سؤالاً إلى طلاب المنتدى (الشباب الروحي المتحفز) عن هذه المشكلة، وغرضي الأول أن أوجه بأفكارهم إلى هذه الناحية التي هي جديرة بالطالب الديني أن يفكر فيها قبل كل شيء، ليعرفوا واجبهم تجاه أمتهم ودينهم، وليشعروا بعظمة العمل الملقى على عواتقهم فأنهم إنما يؤلفون حلقة من هذه السلسلة التي كادت أن تنقطع اليهم فتقف عند حدها، وهم إنما يتحملون رسالة محمد ﷺ إلى أمته وهم إنما يحفظون للنجف الدينية العلمية مكانتها يوم يكونون رجال المستقبل الأكفاء. أما وقد تلقيت ردودهم في وقته، فلا اكتمك إني اغتبطت جداً بهمهمهم وعزائمهم على الصبر على هذا الجهاد العملي، فلم أرهم وجدوا سبباً لتأخر الحركة العلمية إلا بعد المسافة بين الطالب والغاية التي يحبون أن يصلوها بأقرب وقت؛ فلاحظوا تعقيد الكتب الدراسية وقلة المشجعات والمغريات تتقدم الطالب من امتحان وشهادة واجتياز صفوف معينة محدودة.

ولاحظوا أيضاً الفوضى الموجودة في معاهدنا للدراسة الابتدائية من جهات

اخرى: فليس هناك ما يلزم الطالب باختيار الخطة المعينة من دراسة الكتب، وما عليه لو اهل أحد الكتب الدراسية او انتقل الى كتاب اخر قبل ان يفهم أو يتم ما بيده. وليس هناك ما يلزمه أن يختار المدرس ذا الكفاية، أو لا يستطيع معرفة هذا المدرس او اقناعه على قبوله تلميذا. ومن يحتم على المدرس ان يقبل عدة تلاميذ كلا منهم لا يريد الا ان ينفرد بالدراسة؟ ومن يكفل بالمدرس او التلميذ ان يواظب على الوقت المضروب؟....

لا شك أنهم لمسوا مقدارا من هذه الفوضى إذا كانت تصح أن تكون سببا لضعف الحركة العلمية. وجاوبوا صدى التذمر الذي يرتفع بين آونة وأخرى من رجالنا المفكرين ولم يفهم أن يشعروا جيدا بفقد الميزان الصحيح الذي يوزن به الطلاب النابهون من غيرهم إلا اختيار أهل العلم أنفسهم بعضهم لبعض اختياراً شخصياً. حيث يتحدثون ويتذاكرون في دروسهم وفيما يشكل عليهم من المسائل التي تعترضهم. فيتعارفون ويميز احدهم الآخر على قدر محدود وفي محيط خاص لا يتجاوز صدورهم او دائرة مجالسهم ونواديهم.

ولكن هناك سبباً جوهرياً عقيدتي فيه انه أول الأسباب لهذا التأخر. لعلمهم لم يعانون آلامه وهم في مقتبل العمر. او انهم لا يجدونه عقبة لمن يدفعه واجب ديني لدراسة المعارف الإسلامية فلم يأخذوه بنظر الاعتبار.

أجد واضحاً أن هذه الكتب الدراسية وهذه طريقة الدراسة بعينها كانت متبعة بالأمس. ولم تؤثر في عينها على رغبة الطالب وشوقه العظيم لتلقي هذه المعارف. فلماذا هذه الملل الان؟ ولماذا نترك اولادنا لا يسلكون خطتنا. فنسلمهم الى الوظائف الحكومية او الى الاعمال الحرة؟ هذا ما سيأتيك في عدد قادم فيلى الملتقى.

واجب الرجل الديني^(١)

أيها الطلاب الأعزاء، يا شباب الدين

نحن ابتلينا ان خلقنا في عصر طغت فيه المادة وذهبت القيم المعنوية والاخلاقية من بين الناس وتأثر المسلمون في أطراف المعمورة بالتيارات الحديثة التي بلبت افكارهم وافسدت عليهم عقائدهم ونخرت في مبادئهم الدينية.

وهذه أمور أرادها المستعمرون من ابناء الحروب الصليبية اعداء الإسلام ليضعفوا من روحية المسلمين ويقهروهم بسلطانهم ويخضعوهم لإرادتهم وجبروتهم وهكذا كان.

وزاد الطين بلة ان الجهل الغاشم - من عصور طويلة - كان قد ضرب أطنابه في ربوع الإسلام وعشعش في أدمغة رجالنا فكانت الأمة الإسلامية في اقصاها الى ادناها على استعداد لان تتقبل كل فكرة جديدة تبدو انها تنعش من روحنا المائتة وتنهضنا من رقدتنا وسباتنا فذهبت سراعاً وراء اولئك المستعمرين على غير هدى وبصيرة بزعم انا نسعى للرقى والاستقلال والحرية وامثال هذه الكلمات الفارغة التي ماجينا منها الا العبودية وفساد الاخلاق وضعف النفوس.

أقول: ابتلينا ان خلقنا في هذا العصر فأنا كنا نشعر حقاً باننا مسلمون كما نزعم فأنا

(١) جواب السؤال الذي وجهته لجنة المجمع الثقافي الديني لمنتدى النشر للشيخ للمظفر وكان الآتي:

أمن الصحيح أن نتخذ انتشار فساد الأخلاق واللا دينية والعجز عن الإصلاح عذراً لنا عن العمل في سبيل الدين وما هو واجب الرجل الديني في هذا العصر؟

البذرة السنة الأولى العدد السابع في ١/ محرم/ ١٣٦٨ - ٣/ تشرين الثاني/ ١٩٤٨.

نبينا الاعظم ﷺ قال «من بات ولم يهتم بأمر المسلمين فليس بمسلم» ثم يقول «ان الله تعالى يبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له» فقليل له ومن المؤمن الضعيف الذي لا دين له فقال «الذي لا ينهى عن المنكر».

يا أعزائي:

ونحن زمرة بصرنا الله عز وجل - والحمد لله - وأعدنا لنكون (رجال دين) فنحن اولى الناس جميعاً أن ننهض بأعباء هذه المسؤولية الكبرى التي تعجز عن حملها الجبال الرواسي ولكن لا تعجز عن حملها الرجال وفي البشر قوة اودعها الله فيهم لا نعرف منتهاها ولا تبلغ الى حد محدود، وهذه الغاية التي اشرت اليها لئن كانت عظيمة وخطيرة فانا لا نعذر في التقصير عن السعي اليها وان كان الطريق طويلاً وشاقاً وجهل منا ان نياس ونتكاسل فأن الله تعالى يحاسبنا يوم القيامة على تقصيرنا والاشياء كلها انما تتم للإنسان بالسعي المستمر وبالتدرج اليها خطوة خطوة، بعد الاستعانة بالله تعالى ثم توفيقه الذي لا يبخل به على عباده العاملين ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ فأول واجباته ان نسعى ليل نهار لتهديب انفسنا من مساوئ الاخلاق ودرن المعاصي فلا نكذب ولا نستغيب ولا نماري ولا ندهن ولا نرائي ونتجنب المنكرات والظلم والعدوان حتى نكون مقتدى للناس هادين مهدين.

وثاني واجباتها ان نتحلّى بالعلم والمعارف لنخلق من أنفسنا بتوفيق الله تعالى رجالا اكفاء لهذه العصر ذوي السنة بليغة وأقلام مؤثرة ثم بعد ذلك لو انتشرنا في الارض كما امرنا رب العزة لهداية الناس وتهذيبهم فان الواحد منا اذا كان لا تأخذه في الله لومة لائم يستطيع ان ينشل أمة بكاملها من سقطتها ويثبت فيها روح القوة الإسلامية وليس على الله تعالى بعزير ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فإلى التضحية الى الجهاد الى الخلود يا شباب الدين.

السنيّون والشيعة

على طاولة الحوار

بين

المجتهد المجدّد الشيخ محمد رضا المظفر

و الدكتور أحمد أمين (المصري)

توطئة

النجف الأشرف مدينة الحوار والمناظرة

لا بد من معرفة أن ولادة الحوار والمناظرة سبقت خلق الإنسان وكانت لأجله بناء على إرادة ربانية تحكي جبلة المخلوق الذي أكرمه الله لينطلق اهابه في طبيعة ذهنيته التي لا تنفك تختلف في حدود التفكير بين أبناء الجنس البشري منذ بدء الخليقة حيث ولد الإنسان وهو يحمل هذه السجية قال تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(١).

وخير ما يدل على ذلك (أن الإنسان لا ينفك عن خلاف ومنازعات بينه وبين غيره من أبناء جلده في عقائده وآرائه من دينية وسياسية واجتماعية ونحوها فتألف بالقياس الى كل وضع طائفتان: طائفة تناصره وتحافظ عليه، وأخرى تريد نقضه وهدمه وينجر ذلك الى المناظرة والجدال في الكلام فيلتمس كل فريق الدليل والحجة لتأييد وجهة نظره وافحام خصمه امام الجمهور).^(٢)

وإذا اتضح لنا ان المشيئة الربانية قضت بحرية الاختيار من اجل ان ينتج الاختلاف

(١) هود ١١: ١١٨ - ١١٩.

(٢) كتاب المنطق للشيخ محمد رضا المظفر ٣: ٣٣٢، ٣٣٣. ويضيف ملاحظاً... نستطيع أن نحكم بأنه يجب لكل من يهّم المعرفة وكل من يريد أن يحافظ على العقائد والآراء أية كانت أن يبحث عن صناعة الجدل وقوانينها وأصولها. والمتكفل بذلك هذا الفن الذي عني به متقدمو الفلاسفة من اليونانيين وأهمله المتأخرون في الدورة الإسلامية إهمالاً لا مبرّر له عدا فئة قليلة من أعظم العلماء كالرئيس ابن سينا والخواجه نصير الدين الطوسي إمام المحققين.

وهو من المظاهر الإيجابية للإرادة الإنسانية وما يصدر عنها في الرأي مقابل الرأي الآخر فيستلزم - عندئذ - الإدراك والوعي لعدم دلالة على التنافر والقطيعة بل بالتواصل المحمود لفهم حقيقة الحوار والمناظرة انطلاقاً من حقيقة الايمان القائم على المحبة الصادقة والتزام ثوابت العقيدة والشريعة التي امر الله بها حيث قال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(١). وقوله عز اسمه ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢) وما ورد بالمأثور النبوي «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة، قالوا: بلى يا رسول الله قال: اصلاح ذات البين فان فساد ذات البين هي الحالقة والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا».

ولما تقدم نقف على أهمية بناء الشخصية الإنسانية في ضوء المنهج القرآني وترشيد دورها في المساهمة بإرساء قواعد المجتمع القويم وتطلعاته نحو الخير والتواصل وخلق فرص السعادة والتفاهم باطار المحبة والابتعاد عن التأقلم بالحقد والكرهية.

إن الحوار والمناظرة علم وفن ومنهج يحتاج الى صقل المواهب والقدرات والاستفادة من المهارات والخبرات الفكرية والنقاشية بما ينفع المصلحة العامة ويجعل من المحاوره نقدا إيجابيا وهدفا اصلاحيا باحترام الرأي الآخر محل المناقشة والخصومة الفكرية ولذلك يقتضي تعلم فن المناظرة والحوار بمعايير موضوعية وبطرق تعليمية

(١) آل عمران ٣: ١٠٣.

(٢) النحل ١٦: ١٢٥. في هذه الآية الكريمة وآيات أخرى نكتشف المعالم العامة للمنهج القرآني في المناظرة والحوار والجدال الذي ينبغي أن يتم بالقول اللين الرقيق من غير غلظة ولا تعنيف بل بالرفق وحسن الخطاب وهذا الاتجاه يمثل تخطيطاً قرآنياً يؤسس لأصول التنمية البشرية، مضت على سبيله مسيرة الأنبياء والرسل والأمم السالفة قال تعالى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ العنكبوت ٢٩: ٤٦، وقوله تعالى ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى﴾ طه ٢٠: ٤٤... فيما أمر الله به النبي موسى وهارون ﷺ حين بعثهما إلى فرعون.

متطورة مخصصة تنتج صياغة معايير رصينة لتعزيز قنوات التواصل للإبداع الفكري. إن عملية انقاذ حياة المجتمع الإنساني اليوم من محتته الفكرية المعاصرة لا تتم إلا بما نسبو اليه في تأصيل القيم الحضارية للحوار^(١) والاحترام المتبادل والتسامح والدفاع عن الرأي واحترام الآخر بغية استثمار الطاقات الخلاقة والتأكيد على زرع الثقة بحيث اصبح الحوار الأسلوب الأمثل المتميز في الحياة التي يطمح لها الإنسان في مسيرة تكامله ورفقه وتطوره.

يضاف إلى ذلك بأن للحوار آدابه وقواعده واسلوبه وغاياته وقد تطورت الدراسات بصده - خاصة في واقعنا المعاش اليوم - إلى مستوى الدراسات الاكاديمية والندوات والمؤتمرات المنعقدة إقليميا ودوليا بل اصبح مدار البحث فيه بعنوانه احد العلوم المعدة للتخصص العلمي لأهميته من حيث الحاجة اليه في عالم الإنسان المعاصر في مجالات الحياة كافة الدينية منها والتاريخية والاجتماعية والوطنية والسياسية وغيرها. ولا شك ان للتقدم العلمي والتقنية الحديثة للمعلومات وهيمنة الانترنت على الجانب المعرفي للعقل الإنساني وظاهرة العولمة والدعوة نحو الحداثة - دون ترشيد - كل ذلك كان له الأثر البالغ في الانفتاح على مسألة التواصل كما يعد أساسا لتحقيق عالم التواصل وتحقيق التوازن بين استقلالية الإنسان ورغبته في مشاركة الآخرين والتفاعل معهم، بل حرية التعبير لمن يشاء وبما يشاء - دون ان تحكمه قدسية الكلمة أو تردعه الضوابط الأدبية والأخلاقية أحيانا - ومع ذلك لا يغنيانا عن القول ان الحوار الايجابي قد بلغ بالاهتمام به قيمة عليا تمثل قياسا لتقييم مستوى الواقع الفكري والمدى الحضاري لكل امة من الأمم.

(١) الحوار من الحور يقال حاورته بمعنى راجعته الكلام ويقصد بالمحاورة لغة: المجاورة والمجادلة والمراجعة. وأما اصطلاحاً فهو: تداول الكلام بين شخصين أو فريقين بشأن موضوع أو هدف محدود بنية الوصول إلى الحقيقة بعيداً عن الخصومة والتعصب.

وفي إطار ما يخص هذا البحث نكتشف مكانته وامتداده في العالم الإسلامي باعتباره يحتضن خير أمة أخرجت للناس بامتيازها أمة القرآن كتاب الحوار الخالد الذي أسس قواعد المثل الرفيعة وتجسدت فيه قواعد أخلاقية التشريع لتحقيق الغاية من عدالة الاحكام وممارسه الأنبياء والرسل والائمة الكرام والعلماء الصالحين ونجده بينات من الهدى والفرقان في سور وآيات من الذكر الحكيم وتأسيا بسيرتهم المثلى سطرت مدونات وكتب وقامت صروح من القواعد والاسس تقوم عليها بنية المجتمع في مهمة التغيير والإصلاح والتهذيب للسلوك الإنساني، والاداة التي تنبثق منها داعية التوحيد الديني والعربي والمذهبي نحو التعايش والرؤى الخيرة.

لقد حفلت مدرسة أهل البيت عليهم السلام وأتباعها عبر تاريخها منذ الصدر الأول للإسلام بال العناية والاهتمام على إقامة صرح الفكر الإسلامي وصيانتها من النظرة الضيقة والنزعات الشخصية والطائفية وإقرار حقيقة الامة الواحدة التي دعا إليها الإسلام في المجتمع القرآني الذي طمح الى بنائه وتكوينه امتثالا لقوله تعالى ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(١).

ومن حيث كانت الوحدة الإسلامية من أهم ما ورثه المسلمون من ثمرة الايمان بالإسلام ومبادئ التوحيد.. فقد كان بدء الخلافات بين المسلمين كانت مبكرة وعنيفة الى حد ما اورتها، وساهمت على تشجيع هذا التيار فئات تحمل العداء التقليدي للإسلام تلونت في صورها واساليبها عبر تاريخنا الغابر والحاضر إلا أن حصيلة الخلاف يمكن ان تقف عند حدود معينة من القطعي والظني في الشريعة الإسلامية وهو ما يدعو الى معرفة الانصاف والالفة وذلك لان مدار «النزاع في جميع المسائل الخلافية صغروي في

(١) الأنبياء ٢١: ٩٢. أنظر السيد عبد الحسين شرف الدين، رسالة إلى المجمع العلمي العربي

الحقيقة ولا نزاع في الكبروي عند اهل النظر ابدا»^(١)، و«الاتحاد سجايا وصفات واعمال وملكات.. ان يتبادل المسلمون المنافع ويشتركوا في الفوائد، وان التثبت واجب قبل الحكم وقد ارنا الله به لثلا نصيب قوما بجهالة فنصبح على ما فعلنا نادمين»^(٢)

وقد كان للشيعية الإمامية اقتداء بسيرة ائمتهم الاطهار عليهم السلام مواقف جلييلة في حفظ كيان الامة المسلمة فيما تجسد على واقع الفكر والعقيدة وما تضمنته مصنفات الإمامية في الفقه والعلوم الإسلامية بما يقدم التجلة والتقدير بل المساهمة الجادة في رفد حركة الدراسات المقارنة بغية خدمة قضية الإسلام العليا في رص الصفوف وجمع الكلمة والتماس أسلوب عدم التعرض للآخر والأمثلة جلية للعيان في تراثهم المشهور والمشور أمام الأنظار منذ معاصرتهم لأئمتهم عليهم السلام وامتداد المسار إلى عصر الغيبة ويومنا الحاضر حسبنا بذلك ما صنفه أعلام الطائفة كالشيخ المفيد والسيد المرتضى والرضي والشيخ الطوسي والعلامة الحلي وغيرهم من أساطين العلم ناهيك عما قدمه هؤلاء الأفاضل عن الحوار والمناظرة العلمية مع أعلام الأديان أو الفرق الضالة والمذاهب الإسلامية مع الحفاظ على الأسلوب الحضاري الملتزم بالدعة والعاطفة الرقيقة والطرح الموضوعي الذي لا يفسد بالود قضية.

إن المذهبية الإسلامية^(٣) وهي ظاهرة طبيعية ولدت نتيجة التطورات السياسية والفكرية والتحوّلات الاجتماعية والاقتصادية وهي لا تمثل حقيقة مجردة الا اذا كان

(١) المصدر السابق.

(٢) الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء، كيف يتّحد المسلمون، التثبت قبل الحكم، مجلة رسالة الإسلام، نشر دار التقريب القاهرة.

(٣) المذهب الفقهي اصطلاح ظهر خلال القرن الرابع الهجري بعد تميّز المذاهب الفقهية وهو عند الفقهاء الاتجاه الفقهي في فهم أحكام الشريعة الإسلامية والطريقة التي ينهجها المجتهد أو عدد من المجتهدين في الاستنباط وكيفية الاستدلال والفروع التي تضاف في ضوء أصول المذهب.

ظهورها يعني بالجوانب الإيجابية للرؤى الفكرية وتعددية الاختيارات في ظل مجتمع تجمعه وحدة العقيدة والثقافة.

والسبب بذلك تأخر ظهور المذاهب فلم يشهد العهد الأموي ظهور مذهب فقهي معين بل كانت مرحلة مخاض انتجت بروز مدارس فقهية تحول البعض منها الى مذاهب برغبة من الحكام العباسيين وبذلك فان ظاهرة المذهبية انطوت على بعد سياسي لأن أجهزة الحكم كانت تدعم مذهباً وترغم الآخرين على اتباعه والحقيقة المرة ان أئمة المذاهب طالتهم المعاناة ولقوا العنت والأذى^(١).

وفي كل ما نستقري من صفحات تاريخ الأمة الإسلامية تتجسد الصورة المشرفة لدور أهل البيت عليه السلام في صيانة المبادئ الإسلامية الخيرة الداعية الى جمع الكلمة ورأب الصدع ومحاربة الفرق والحركات المنحرفة عبر جهود مضيئة تلونت بالتضحية والبذل بالدم والعطاء الفكري وتشديد معالم الاخوة بين المسلمين واحترام قواعد التعايش والسلام مع غيرهم من الطوائف والملل والأديان.

وقد استنار بمنهج أهل البيت عليه السلام شيعتهم ونهض علماء الطائفة فدنوا مصنفاتهم الفقهية وأضافوا آراء المذاهب الإسلامية التي ربما اتفقوا معها او تحاوروا بصددتها وناقشوها بروح علمية موضوعية ففتحو آفاقاً تؤسس للفقه المقارن في أحكام الشريعة الإسلامية ومصادق ذلك ما نقرأه في مصنفات الشيخ الطوسي ومنها كتاب الخلاف والعلامة الحلي في كتابه التذكرة^(٢) وجل علمائنا إلى اليوم الحاضر اعتقاداً منهم

(١) أنظر الخطط المقرزية ٢: ٣٤٤، د. أحمد امين، ظهر الإسلام ٤: ٩٦، مناقب الشافعي ٥٢٤، تذكرة الحفاظ ١٧٦: ١، أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ١: ١٤٧ - ١٦٤، ٢: ١٥٨.

(٢) توفقت لجنة المجمع الثقافي الديني لمتدى النشر لتحقيق بعض اجزائها ونشر منها في حينه جزءان كبيران.

ان قضية السنة والشيعية هي قضية ايمان وعلم^(١) وقد تهيأت الظروف للطائفتين في بحر القرن الماضي للاتفاق والاجتماع على مودة لرعاية الاخوة وصيانة المبادئ والمصالح المشتركة وانعقاد الندوات والمؤتمرات كمؤتمر القدس عام ١٣٥٠ الذي دعي إليه من النجف الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء^(٢) ولما حضر المسجد الأقصى دُعي للخطابة والصلاة بجميع المشاركين في المؤتمر آنذاك طيلة أيام المؤتمر مساعي الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين الحوار الذي جرى بينه وبين الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر وأودعه بكتابه المراجعات وبعدها كانت جهود وجهود منها تأسيس دار التقريب في القاهرة وإصدار مجلة رسالة التقريب وتمت مساع كريمة من لدن علماء الشيعة الإمامية متمثلة بمرجعيات كبرى من أعلام الدين في النجف وبما يقابلها من الأزهر الشريف إصدار القرار بتدريس الفقه الجعفري^(٣).

ومما عرضناه بشأن التقارب لم يكن يبلغ غايته لولا إقرار مبدأ الحوار الموضوعي أساسا للتقريب الذي يمكن تقسيمه الى اقسام بحسب موضوعه كالحوار العقائدي والحوار الفقهي والحوار الادبي والحوار الإعلامي والحوار السياسي.... الخ ولا شك ان كلا من هذه الحوارات اذا تحققت في آدابها المرعية فإنها تبلغ الغاية في الحيوية والعزيمة

(١) كما أشار الى ذلك الشيخ الباقوري وزير الأوقاف المصري في تقديمه لكتاب المختصر النافع للمحقق الحلي المطبوع بمصر على حد قوله: «فاما قضية علم فان الفريقين يقيمان صلتها بالإسلام على الإيثار بالله وسنة رسوله ويتفقان اتفاقا مطلقا على الأصول الجامعة في هذا الدين - فيما نعلم - فان اشتجرت الآراء بعد ذلك في الفروع الفقهية والتشريعية فأن مذاهب المسلمين كلها سواء في ان للمجتهد أجره أخطأ أم أصاب..... وما انها قضية ايمان فاني لأحسب ضمير مسلم يرضى بافتعال الخلاف وتسعير البغضاء بين أبناء أمة واحدة....» الى آخر ما ذكره وتوصل ان السبب هي السياسة

(٢) وكانت له خطبة رائعة منها كلمة ذهبية قوله قدس سره: «بني الإسلام على دعامتين كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة».

(٣) الحديث بهذا الصدد لا يستوفي بهذه المقدمة الوجيزة.

لاتباع المسار اللاحب والقناعة المرضية.

ومن هذه الحوارات الإيجابية ما دعا اليه ساحة الشيخ المظفر في مطارحات له مع الدكتور أحمد أمين^(٤) على صفحات مجلة الرسالة المصرية إلى عقد مؤتمر عام يضم كبار علماء المسلمين لبحثوا بروح موضوعية جملة نقاط الخلاف بين المذهبين وهو واثق ان مثل هذا المؤتمر سيأتي على اكثرها حتما وما يتبقى منها سوف لا يكون بعد ذلك مثارا لاختلاف القلوب وما أكثر ما يختلف المجتهدون ويتفقون على احترام بعضهم بعضا وليبق الشيعة شيعة والسنة سنة بعيدا عن أحابيل السياسة.

وبالختام اذ نقدم (السنين والشيعة على طاولة الحوار) فإننا نطمح في ضوء ذلك بيان حقيقة المدرسة النجفية وهدفها السامي في جمع الكلمة على البر والتقوى، وحيث نقدم للحوار المظفري مع أحمد أمين سنقرأ كذلك استحسان كبار علماء الطائفتين بمشاركتهم التي كان لها الأثر في إغناء المناظرة التي طافت بين بلدان المشرق الإسلامي العراق وسوريا ومصر وفي ذلك من الدلالات الخيرة بما انعكست به حرية التعبير

(٤) - وعند مطالعتنا لمذكراته التي أصدرها بعنوان (حياتي) نجده يذكر مايلي: ولما أخرجت كتاب (فجر الإسلام) كان له أثر سيء في نفوس كثير من رجال الشيعة وما كنت أقدر ذلك لأنني كنت أظن أن البحث العلمي التاريخي شيء والحياة العلمية الحاضرة شيء آخر، ولكن شيعة العراق والشام غضبوا منه وألفوا في الرد عليه كتباً ومقالات شديدة اللهجة لم أغضب منها.

ولما لقيت شيخ الشيعة في العراق الأستاذ آل كاشف الغطاء عاتبني على ما كتبت عن الشيعة في (فجر الإسلام) وقال: اني استندت فيما كتبت على الخصوم وكان الواجب أن استند الى كتب القوم أنفسهم وقد يكون ذلك صحيحا في بعض المواقف، ولكني لما استندت على كتبهم في (ضحى الإسلام) ونقدت بعض آرائهم نقدا عقليا نزيها مستندا على كتبهم غضبوا أيضا.

والحق أنني لا أحمل تعصبا لسنة ولا شيعة، ولقد نقدت من مذاهب أهل السنة ما لا يقل عن نقدي لمذهب الشيعة وأعليت من شأن المعتزلة بعد أن وضعهم السنيون في الدرك الأسفل احقاقا لما اعتقدت أنه الحق.

حياتي، أحمد أمين: ١٨٨.

الديني والفكري لنستخلص منها العبرة في تقويم مسيرة التآخي الإسلامي والمحبة في الله وشاعرنا يردد:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا وإذا افترقن تكسرت أحادا
وصدق الله في ذكره الحكيم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١) والحمد لله أولاً وآخراً.

محمد جواد الطريحي

(١) الحجرات ٤٩: ١٠.

ترجمة الشيخ أبي عبد الله الزنجاني

عالم ديني متجدّد واسع الأفق الفكري، سائر العصر الحديث، ووفق بين الأحكام القرآنيّة والشريعة المحمّديّة مع النظريات الحديثة والمخترعات الجديدة والأفكار المتطورة والآراء المتحرّرة؛ وجمع بين العلم والدين في صعيد واحد وسار شوطاً بعيداً في التقريب بينهما متتبّعاً في ذلك خطوات من سبقه من المصلحين والمجدّدين الإسلاميين في القرنين الأخيرين كالمصلح السيد جمال الدين الأسدآبادي الشهير بالأفغاني، والإمام الشيخ محمّد عبده المصري، العلامة السيّد محسن الأمين العاملي، والمجتهد السيّد هبة الدين الحسيني الشهرستاني.

كلّ ذلك محاولة منه ومنهم في أن لا يبقى المسلمون في مختلف أقطارهم متأخرين عن ركب الحضارة الحديثة.

هو: العلامة الشيخ أبو عبد الله الزنجاني بن شيخ الإسلام الميرزا نصر الله بن الحاج ميرزا عبد الرحيم بن نصر الله بن محمّد بن علي.

وقد كان والده شيخ الإسلام الميرزا نصر الله أحد الرؤساء الروحانيين بمدينة (زنجان) من أمّهات مدن إيران الواقعة شمال غربي طهران في منتصف الطريق بين طهران وتبريز، تلك المدينة التي كان ولا زال لأفراد هذه الأسرة المقام المرموق والكلمة المسموعة فيها، خاصّة وأن مشيخة الإسلام قد انحصرت فيهم منذ أكثر من قرن.

وُلد المترجم سنة ١٣٠٩ هجرية في زنجان، وتربّى في حضن والده في طفولته تربية عليها هالة من العلم والفضل والأدب، وبعد أن شبّ عن الطوق اتّصل بالحوارات العلميّة في مسقط رأسه، وتلقّى العربيّة وأوليات الفقه والأصول فيها، ثم التحق بحوزة

الأستاذ الفيلسوف والحكيم الإلهي الميرزا إبراهيم الفلكي في طهران، فتلقى عليه الفلسفة والكلام والرياضيات وتخرّج عليه، كما درس برهة من الزمن في طهران في مدرسة (سن لوائي)، ثمّ يمّم النجف الأشرف مع شقيقه الأكبر العلامة الميرزا فضل الله شيخ الإسلام الزنجاني حيث درساً هناك في كليّتها العلوم العالية على كبار المجتهدين، وحضراً حوزاتهم الاختصاصيّة، وحصل على شهادات الاجتهاد والرواية منهم، ثمّ عاد إلى زنجان.

ومن الشهادات التي حصل عليها المترجم إجازة الرواية عن العلامة السيّد حسن الصدر الكاظمي، وعن العلامة السيّد محمود شكري الآلوسي البغدادي، وعن السيّد محمّد بدر الدين بن يوسف الدمشقي، كما أنه نال شهادة الاجتهاد من العلامة السيّد أبي الحسن الأصفهاني والعلامة السيّد هبة الدين الحسيني الشهرستاني، والعلامة السيّد محمّد الفيروزآبادي، والعلامة شيخ الشريعة الأصفهاني، والعلامة الشيخ عبد الكريم الحائري.

وبعد أوبته إلى زنجان ومكوّنه مدّة قصيرة فيها قام برحلة في البلاد العربيّة، حجّ فيها بيت الله الحرام وزار مدينة الرسول ﷺ، وساح سورية وفلسطين والعراق، وزار القدس والقاهرة وبغداد واجتمع فيها بنخبة كبيرة من علمائها وأدبائها ورجال الفكر فيها، واستطاع خلال هذه الرحلة التي استغرقت أكثر من سنة في عام ١٣٤٣ هجرية أن يطبع بعض مؤلفاته وكتبه ورسائله التي كان قد دبجها باللغة العربيّة قلمه خلال الفترة الواقعة بين ختام دراسته العالية في كليّة النجف وقيامه بهذه الرحلة الطويلة، كما قام برحلة سياحيّة أخرى الى القاهرة في أوائل عام ١٣٥٤ هجرية اجتمع فيها ضمن من اجتمع بهم العلامة الفقيه مصطفى المراغي رئيس جامعة الأزهر، والمغفور الدكتور عبد الرحمن شهنندر، والعلامة عبد الوهاب عزام أستاذ اللغة الفارسيّة في جامعة القاهرة،

ثم السفير المصري في كثير من البلدان الشرقية وآخرها الهند.

وفي عودة المترجم من القاهرة إلى طهران حمل لي معه هدية ثمينة، من الأستاذ عبد الوهاب عزام كذكرى معرفتي به في مؤتمر الفردوسي في طهران ومشهد حينما مثل وطنه مصر فيه سنة ١٣٥٣ هجرية هدية لا زلت معترّاً بها هي كتاب: (تعريب ملحمة الشاهنامه) للفردوسي من ترجمة قوام الدين الفتح ابن علي البنداري الاصفهاني، ومن طبع وتصحيح وتعليق العلامة عبد الوهاب العزام، وحيث أنّه أرسل لي تلك الأمانة من زنجان بعد وصوله إلى طهران، فقد كتب بخطّه الوسيم تحت عبارة إهداء العلامة العزام ما نصّه: (سيدي العزيز الشهرستاني واجب الود دعاني أن أحمل إليك هذا الكتاب وجزئه الثاني مع تحية مهديّة، مشفوعاً بتحيّاتي الصميّة، والسلام. الداعي: أبو عبدالله الزنجاني: ٢٨ / ج ١ / ٣٥٤).

أمّا الكتاب فمطبوع في القاهرة سنة ١٣٥٠ هجرية - ١٩٣٢ م على ورق مصقول وبحجم كبير و٦٣٣ صفحة بجزأين.

وكان المترجم عضواً في بعض المنتديات والجمعيات العلميّة والأدبية في إيران والبلدان العربيّة، منها: المجمع العلمي العربي بدمشق، وعيّن في أواخر أيام حياته أستاذاً للتفسير والفلسفة في كلية اللاهيات والعلوم الإسلاميّة بجامعة طهران.

وللعلامة الزنجاني مؤلّفات تتجاوز عدد أصابع اليد، بعضها مطبوع وبعضها لا زال مخطوطاً، منها التي رأيته لديه وأهداني إيّاها في بعض زيارته لطهران أواخر أيام حياته، هي:

١. تاريخ القرآن: طبع مصر سنة ١٣٥٤ باللغة العربيّة.
٢. أصول القرآن الاجتماعية: باللغة العربيّة - لا زال مخطوطاً.
٣. كتاب الأفكار: إسلامي فلسفي اجتماعي - لا زال مخطوطاً.

٤. كتاب دين الفطرة: باللغة الفارسيّة - لا زال مخطوطاً.
 ٥. كتاب سرّ انتشار الإسلام: باللغة الفارسيّة - لا زال مخطوطاً.
 ٦. شرح رسالة نصير الدين الطوسي في بقاء النفس: باللغة العربيّة - طبع في القاهرة.
 ٧. رسالة في قاعدة إغريقية الأصل الواحد لا يصدر عنه إلاّ الواحد: قرظها أستاذه العلامة الشيخ الشريعة الأصفهاني.
 ٨. الفيلسوف الفارسي الكبير صدر الدين الشيرازي: حياته وأهم أصول فلسفته - باللغة العربيّة، طبع بدمشق، وهي: أطروحة كتبها بمناسبة انتخابه عضواً مؤزراً للمجمع العلمي العربي في دمشق.
 ٩. ترجمته للفراسيّة بحث الفيلسوف الانجليزي (توماس كاريل) عن النبي الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ، مقتبس من كتابه: الأبطال - طبع في تبريز.
 ١٠. رسالة (طهارة أهل الكتاب): باللغة العربيّة - طبع في بغداد سنة ١٣٤٥ هـ. وأحدث ضجة لدى الأوساط المتعصّبة في العراق وإيران، وانتقده الكثيرون وردّوا عليه برسائل طبعت في حينها لأن المؤلّف (رحمه الله) رجّح فيه بالأدلة التقليديّة الرأي القائل بطهارتهم، ودحض الرأي الذي تتضمّن نجاستهم.
- أمّا سبب تأليفه لهذه الرسالة - كما يقول المؤلّف في مقدّماتها - فهو ما لقيه من العسر في الباخرة التي كانت تقلّه من السويس إلى جدّة في رحلته إلى الحجاز لأداء فريضة الحجّ عام ١٣٤٢ هـ، لأن أغلب عمّال الباخرة كانوا من النصاري، الأمر الذي كان يتعدّر عليه تعاطي الأكل والشرب بحريّة ممّا حدا به إلى البحث في بطون كثير من كتب الفقه والحديث والآيات القرآنيّة لمعرفة حقيقة طهارة أو نجاسة أهل الكتاب على

مختلف مللهم ونحلهم.

١١. التصوّف في التاريخ: كتاب يبحث في نظريّة وحدة الوجود وسيرها في مدارس العلم من أقدم أزمنة التاريخ إلى الآن - لا زال مخطوطاً، ونشر بعض فصوله في اعداد مجلّة (الإخاء) الماضية.

كلّ ذلك بالإضافة إلى الأبحاث القيّمة التي كان ينشرها بين هنية وأخرى على صفحات مختلف المجلّات العربيّة والفارسيّة والمحاضرات المستفيضة التي كان يلقيها في جلسات الجامع العلميّة والمنتديات الأدبية والتي نشرت بعضها في كرّاسات مستقلّة. كان المترجم يتقن اللغات العربيّة والفارسيّة والتركيّة مع آدابها، كما كان ملماً بالفرنسيّة، وإنّه كان على جانب كبير من حسن الخلق وسعة الصدر وطيب النفس وبُعد النظر والنباهة، والغيرة على الإسلام والمسلمين، والحرص على رفع مستواهم ليصبحوا في مصاف الشعوب الحيّة والأمم المتحضّرة في هذا العصر.

وكان كلّما زار طهران نزل في دار أخيه النائب مجد ضيائي، فكنت أزوره فيها، ونتحدّث طويلاً عن رحلاته في البلدان العربيّة واتصالاته بالمفكرين من المسلمين في هذه الأقطار.

أمّا أوّل معرفتي به فكانت سنة ١٣٤٣ هـ حينما مرّ ببغداد عائداً من الحجّ في طريقه إلى مسقط رأسه (زنجان) كنت عندئذ أصدر مجلّة (المرشد) في عاصمة العراق، كانت همزة الوصل بيني وبين المترجم وبين كثير من رجال العلم والأدب والفضل، وكان مدّة مكوثه في دار السلام على اتصال دائم بي، وقد تعاونت وإيّاها على طبع رسالته (طهارة أهل الكتاب) في بغداد.

ومنذ حللت طهران كانت الرسائل متواصلة التبادل بيننا من طهران إلى زنجان وبالعكس.

وفاته وعقبه

لقد وافت المنية مترجمنا يوم الخميس ٧ جمادى الثاني ١٣٦٠ هجرية الموافق ١٢ تير ١٣٢٠ شمسية، نقل جسده بعد وفاته إلى النجف الأشرف، حيث واروه التراب في مقبرة الاسرة الخاصة حسب وصيته.

وقد خلف المترجم خمسة أولاد وبناتاً واحدة، واعتنى بتثقيفهم عناية خاصة وهم:

١. السيد كاظم ضيائي: من كبار موظفي وزارة الداخلية الإيرانية.

٢. الدكتور المهندس أحمد ضيائي: من كبار موظفي وزارة الكهرباء والماء.

٣. الدكتور لطف الله ضيائي: مدير مصلحة الصحة في محافظة مازندران.

٤. الدكتور محمد صادق ضيائي: من رجال القضاء بوزارة العدل.

٥. السيد نصر الله ضيائي: معاون مصلحة المال في زنجان.

أمّا البنت فهي السيدة شكوه خانم، زوجة الأستاذ داود المعيني من كبار موظفي كلية الزراعة بجامعة طهران.

كما ترك المرحوم أبو عبدالله الزنجاني مكتبة قيّمة حوت حوالي (١٥٠٠) نسخة من الكتب الخطيّة والمطبوعة أهداها في حياته إلى السيد محمد صادق الضيائي، ولا زالت قائمة في داره بزنجان.

مقدمة كتاب تاريخ القرآن

بقلم: أحمد أمين^(١)

أُتيحت لي فرصة أن أقدم للقراء «تاريخ القرآن» للأستاذ أبي عبد الله الزنجاني، فاغتبطت لذلك لأسباب:

أولها: أن الأستاذ من أكبر علماء الشيعة ومجتهديهم، وكاتب هذه السطور سني، وطالما تأملت في نفسي أن أرى الخلاف بين السنيين والشيعة يشتد ويحتد ويؤدي إلى جدل عنيف، وتدابير وتقاطع، ولم يقف الأمر عند الجدل الكلامي، والبغض النفساني، بل كثيراً ما تعداه إلى تجريد السيف واحتدام القتال.

ولو أحصينا ما كان بينهم من عهد علي (رض) إلى الآن لبلغت حوادثه المجلدات الضخمة، كلها خلاف وكلها دماء، ولو كان أنفق هذا الجهد في سبيل الإصلاح لبلغ المسلمون ذروة المجد، ولكن أبت السياسة أحياناً، والمطامع الشخصية أحياناً، إلا أن تثير الفتن، وتدبر الدسائس، وتفرق بين الأخوة، ويعجب المؤرخ أن يرى النزاع يبلغ هذا المبلغ بين فئتين يجمعهم الاعتقاد بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن المؤمنين إخوة، ولئن ساغ في العقل أن يقتلوا أيام كان هناك نزاع على الخلافة من هو أحق منها ومن يتولّاها؟ فليس يسوغ بحال من الأحوال أن يقتلوا على خلاف أصبح في ذمة التاريخ لا يستطيع القتال والنزاع أن يعيده إلى الوجود بل بعد أن أصبحت الخلافة نفسها مسألة تاريخية بحثة، وليس للمسلمين خليفة فعلي يضم كلمتهم، ويجمع شتاتهم، وأصبح كل الخلاف خلافاً في التاريخ، وخلافاً في الاجتهاد، ولولا ألعاب

(١) أستاذ كلية الآداب بالجامعة المصرية.

السياسة واستغفال الماكرين لعقول العامة، واحتفاظ أرباب الشهوات والمطامع بجاههم وسلطانهم، لانمحي الخلاف بين الشيعي والسني، ولأصبحوا بنعمة الله إخواناً، ولتعاونوا على جلب المصالح ودرء المفاسد لجميعهم، ولنظر بعضهم إلى بعض كما ينظر حنفي إلى مالكي، ومالكي إلى شافعي.

وأظن أن الوقت قد حان لأن يفكر عقلاء الطائفتين في سبيل الوئام، ويعملوا على إحياء عوامل الألفة وإماتة الخصام، ويتركوا للعلماء البحث حراً في التاريخ، ويتلقوا النتائج بصدر رحب، كما يتلقون النتائج في أي بحث علمي وتاريخي؛ وتبعة هذا الخلاف تقع على رؤساء الطائفتين، ففي يدهم تقليده وفناؤه، كما في يدهم إشعاله وإنفاؤه.

ففرصة سعيدة أراها أن يؤلف الكتاب شيعي، ويقدمه للقراء سني، ولعلها بادرة حسنة من بوادير السير للوئام، والدعوة إلى السلام، والعمل لخير المسلمين من غير نظر إلى فرقة أو مذهب، وهو ما يتطلبه ويوجبه موقف المسلمين الحاضر.

وثانيها: أنه كان من حسن التوفيق أن عرفت الأستاذ أبا عبدالله الزنجاني حين زيارته مصر سنة ١٩٣٥، فتوثقت بيننا الصلة، وتأكدت الصداقة على قرب العهد بالتعارف، وقصر زمن اللقاء، ولكن قرب الأرواح يفعل ما لا يفعله تراخي الزمن وطول العهد، وصدق الحديث: «الأرواح جنود مجنّدة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»^(١)، وقد رأيت واسع الاطلاع، عميق التفكير، غزير العلم بالفلسفة الإسلامية ومناحيها وأطوارها، على صفاء في نفسه، وسماحة في خلقه، مما حبه إليّ، وحب لي أن أقدم كتابه لقراءه.

(١) ورد في عدة روايات كما في البخاري ومسلم، وقد روي مرسلًا عن أمير المؤمنين عليه السلام وعن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام، ورواه الشيخ الصدوق في (علل الشرائع) و(الأمالي)، والمهم أنه قد تلقاه العلماء بالقبول وانبروا لشرح مفرداته وإيضاح دلالاته.

وثالثها: موضوع الكتاب أو الرسالة وهو تاريخ القرآن من حيث الخط والجمع والترتيب والإعراب والإعجام، وهو موضوع شاق عسير تعرّض له الأقدمون، ولا يزال مجال القول فيه ذا سعة.

وقد كان في نيّة الأستاذ الزنجاني أن يفيض فيه، ويخرج كتاباً واسعاً يجمع إلى سعة الرواية إعمال العقل، ولكن حالت ظروف دون ذلك فخرج الكتاب موجزاً مختصراً، ومع هذا فقد جمع فيه كثيراً مما تشتت في ثنايا الكتب من مؤلّفين سنّين وشيعيين. ولعلّ الزمن والظروف تهيم له أن يتبع خطوته هذه بخطوة أخرى، فيهدي للقراء في هذا الموضوع بحثاً أوفى، وكتاباً أوسع، يكشف ما غمض من هذه المسائل العويصة، والدقائق العميقة، وهو بذلك جدير، وفقه الله.

أحمد أمين

٢٥/ يونيو/ ١٩٣٥ م

تاريخ القرآن للأستاذ أبي عبد الله الزنجاني

للاستاذ محمد بك كرد علي^(١)

تاريخ القرآن هو كما قال المؤلف وجيز في سيرة النبي الأكرم والقرآن الكريم والأدوار التي مرّت به من كتابته وجمعه وترتيبه وترجمته إلى سائر اللغات، طبعته مؤخراً مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر^(٢).

وقد استند المؤلف، وهو من المستنيرين من علماء إيران ومن أسرة نبيلة بشرفها وعلمها في مدينة زنجان، في تأليفه على مصادر لكبار علماء السنّة والشّيعَة وجوّد الكلام على ما تقتضيه بيئته، وربّما تجاوزها إلى أبعد غاية كما في مقدوره تجاوزها.

وحبذا لو كان قد توسّع في القراءات واستخدم لذلك مثلاً كتاب النشر في القراءات العشر لابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ والمطبوع في مدينة دمشق.

وليته قال لنا شيئاً في القراءات وما هي عليه اليوم في بلاد فارس والهند والصين وتركستان وجاوه والحجاز ومصر والعراق والشام وشمال أفريقيا.

(١) مفكّر سوري، أصله كردي (١٨٧٦ - ١٩٥٣) من رجال الفكر والأدب، وأول وزير للمعارف والتربية في سورية ورئيس مجمع اللغة العربيّة بدمشق منذ تأسيسه ١٩١٩ حتى وفاته. أصدر مجلة المقتبس، له مؤلّفات عدّة.

(٢) تأسست في القاهرة عام ١٩١٤ من خريجي مدرسة المعلمين العليا ومدرسة الحقوق وصدرت لائحتها القانونية عام ١٩١٥ ورأسها الدكتور أحمد أمين منذ ذلك التاريخ حتى وفاته ١٩٥٤ وقامت بترجمة العديد من الكتب الموسوعية الغربية، مثل تاريخ الفلسفة الغربية لبرتراند رسل، وقصة الحضارة لول ديورانت وساهم عملها بافراز جيل من المترجمين العرب، ووضع قواعد التعريب للمصطلحات العلميّة المترجمة.

وتوسّع في كلامه على ما قاله العلامة نولدكه^(١) في هذا المعنى وردّ عليه؛ ومثله من يحسن عليه الرد؛ وبسط القول في الترجمات الأفرنجيّة، وأيّها أجدر بالعناية والقبول، إلى غير ذلك ممّا نرجو أن يتعرّض له العلامة المؤلّف في طبعة ثانية مزيدة.

وقد صدرّ الكتاب الأستاذ أحمد أمين صاحب فجر الإسلام وضحي الإسلام بمقدمة موجزة قال فيها: (ولئن ساغ في العقل أن يقتل المسلمون أيام كان هناك نزاع على الخلافة، ومن أحق بها، ومن يتولاها؛ فليس يسوغ بحال أن يقتلوا على خلاف أصبح في ذمّة التاريخ، وأنّه لولا ألعاب السياسة، واستغفال الماكين لعقول العامة، واحتفاظ أرباب المطامع والشهوات بجاههم وسلطانهم، لانمحي الخلاف بين الشيعيّ والسنيّ، ولأصبحوا بنعمة الله إخواناً، ولنظر بعضهم إلى بعض كما ينظر حنفيّ إلى مالكيّ، ومالكيّ إلى شافعيّ؛ ورجا أن يفكر عقلاء الفريقين في إحياء عوامل الألفة، وأن يترك للعلماء البحث حرّاً في التاريخ، ويتلقوا النتائج بصدر رحب، كما يتلقون النتائج في أي بحث علمي وتاريخي).

ورأي صديقي أحمد أمين هو رأي فريق كبير من علماء المسلمين اليوم، وفي مقدّمهم الاستاد الأكبر الشيخ المراغي، فقد قال في خطابه البديع الذي أجاب به من كرموه في الحفلة الأخيرة في القاهرة: إنّ من منهاجه العمل على إزالة الفروق الذهبية وتضييق شقّة الخلاف بينها، فإنّ الأُمّة في محنة من هذا التفرّق، ومن العصبية لهذه الفرق، ومعلوم لدى

(١) ثيو دور نولدكه (١٨٣٦ - ١٩٣٠) مستشرق ألماني اطروحته لنيل الدكتوراه عن تاريخ القرآن، ثم وسعه بعد ذلك، قسمه وتلامذته من بعد إلى ثلاثة أقسام، الأول (في أصل القرآن) والثاني (جمع القرآن) والثالث (تاريخ نصّ القرآن)، وصدر مترجماً للعربية بعناية الدكتور جورج تامر، ومنهجه منتقد غير صالح لدراسة القرآن، وكتبت دراسات نقدية له منها حصل الدكتور رضا محمّد الدقيقي على درجة الدكتوراه من جامعة الأزهر، وما عرضه مؤلّفه المستشرق مهم لاهتمام الباحثين في الغرب للرجوع إليه، ومباحثه مشحونة بالطعن بالقرآن الكريم، وبالنبوي وبأمّهات المؤمنين، ويثير النعرات الطائفية ويمس مشاعر المسلمين.

العلماء أنّ الرجوع إلى أسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصّب المذهبي، يهدي إلى الحق في أكثر الأوقات، وإنّ بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها، ونشطت أهلها وخلفت فيهم تعصّباً يساير التعصّب السياسي، ثمّ انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينيّة لا تتركز إلّا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها.

وهذه المذاهب فرّقت الأمّة التي وحّدها القرآن الكريم وجعلتها شيعاً في الأصول والفروع، ونتج عنه سخف مثل ما يقال في فروع الفقه الصحيح أنّ ولد الشافعي كفاءً لبنت الحنفي، ومثل ما يرى في المساجد من تعدد صلاة الجماعة، وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف في التوسل والوسيلة، وعذبات العمائم وطول اللحى، حتى أنّ بعض الطوائف لا تستحي اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين وتسعى لإنشاء مساجد خاصّة.

هذه أمنية عقلاء المسلمين، ويا حبذا لو عنى بعض علماء الأزهر فكتبوا كتاباً بل كتباً في منشأ هذا الخلاف بين السنّة والشيعه، والطرق العلميّة لإزالته على ما يجب على كلّ مسلم درّاسة، ولا سبيل إلى ضمّ الشمل المبتوب، والخلاص من هذا الاختلاف الممقوت، بغير الرجوع إلى الكتاب وما صحّ من السنّة، والقاء الخلافات جانباً بين أرباب المذاهب الإسلاميّة.

السنيون والشيعة وموقفها اليوم

للأستاذ محمد رضا المظفر

أُتيح لي أن أتناول «تاريخ القرآن» للأستاذ الزنجاني أبي عبدالله، فأقرأ في مقدمته كلمة الأستاذ «أحمد أمين» القيّمة في بابها، أقرأها، فيطربني ما فيها من نعمة متواضعة على وتر من احساس جديد نعرفه في الأستاذ اليوم.

ولا أكتم الأستاذ أنني رجعت إلى ذكريات اختزنت عنه من قراءتي لفجر الإسلام وضحاه، ما ألم هذه الذكرى!

فقد خلقت للأستاذ عندي شخصيتين، تباعدتا على قرب العهد بينهما، وكادت تدفعني يومئذ إلى مقالة أضعها بين يديه في «الرسالة» أو في غيرها: لا تخرج عن عتاب بريء على كتابيه، وعن تشجيع على كلمته الأخيرة وتأيد لها، وهي التي أطمعني فيه، لنشد صراط الإصلاح المستقيم، ولكنني تلكأت لا لشيء، وما أدري لماذا كان؟ ولعله لصالح!

ومنذ أيام كان عدد الرسالة الـ (١١٠) في يدي، فقرأت كلمة الأستاذ محمد بك كرد علي، عن تاريخ القرآن ومقدمته، فطابت لي النبذة وجريت عليها حتى تناولت القلم، وهأنذا أحدثك وأنا شيعي أجري مع سنيين في ميدان الإصلاح لحظيرة الوحدة التي أقامها لنا نبينا محمد ﷺ.

شهد الله والنبي الأكرم أن من أثقل الأشياء على قلمي أن يقرن بين كلمتي سني وشيعي: يتقارنان تقارن افتراق، ويتصلان اتصال تنافر، كقطبي المغناطيس المتماثلين، وقد خلّفت لهما السياسة الغاشمة هذا التنافر الشائن يوم خلّقت، وأن لنا أن نخجل أمام الله ورسوله من استمرارنا على هذا الشنآن بين أعداء تستمرّ على مطاردتنا وتستغل

افتراقنا، وما أجدرنا اليوم أن نضرب على هاتين الكلمتين في قاموس اللغة، فنستريح ونُريح، ونعود أمة إسلامية واحدة كما أرادها الرسول، أو كما أرادها الله آمنة مطمئنة خير أمة أخرجت للناس!

يرجو الأستاذ (أحمد امين) في مقدّمته - بعد أن ألمع إلى بعض أسباب الخلاف - (أن يفكر عقلاء الفريقين في سبيل الوئام، ويعملوا على إحياء عوامل الألفة وإماتة الخصام، ويتركوا للعلماء البحث حرّاً في التاريخ، ويتلقوا النتائج بصدر رحب) ويتابعه الأستاذ (محمّد بك كرد علي) فيقول: (ورأي صديقي هو رأي فريق كبير من علماء المسلمين اليوم).

ثمّ ينقل لنا خطاب العلامة شيخ الجامع الأزهر، ويقترح أخيراً أن يكتبوا كتاباً في منشأ هذا الخلاف بين السنة والشيعة والطرق العملية لإزالته.

وأنا أقترح هذا الاقتراح نفسه على علماء النجف الأشرف عاصمة الشيعة الدينية والعلمية، ونقترح جميعاً على الفريقين أن يتفاهموا جميعاً قبل كلّ شيء، ولكن كيف نحقق هذا الاقتراح ونفرضه عليهم فرضاً؟ يجب أن نعمل له! فهل نستطيعه ولا نجعله مثار نزاع جديد؟

وأؤكد لك أن نشدان علماء الشيعة هو هذه الوحدة المضاعة، يسمعون لها ما سنحت الفرصة، وما عرض لها الزمن، احتفاظاً بجامعة الإسلام العليا، وتوحيداً لكلمة المسلمين.

في إبان تأسيس الحكم الوطني في العراق (والشيعة أكثرية العراق) نادى علماء النجف بالوحدة عالياً، وغالوا في ذلك إلى أبعد حد، وبذلك استطاعت الأمة العراقية أن تجعل من نفسها شعباً حياً وحكومة صادقة.

ولم يكن أبناء الأقطار العربية الأخرى - وخاصة في مصر - يحسّون بواجبهم إزاء العراق الفتى المتطّلع إلى سحق العهد التركي البالي، فكانت لهجات متتابعة، ووخزات

نافذة تلقّتها صدور الشيعة من مصر وسوريا، تلحّ عليها الحاحاً، وتكدّر عليها صفو الانفاق أيّما تكدير، وكان من بينها فجر الإسلام وضحاها «وأرجو ألاّ تخدش هذه الكلمة عواطف الأستاذ مؤلّفهما، فإنّها الصراحة نريد أن نتبعها» تعززها الأقلام المستأجرة في العراق، وبعبارة أصرح أقلام الاستعمار، بينما العراق في ضرورة ملحة إلى الاتفاق بين سنيّة وشيعيّة، ليرتقي سلم الاستقلال المنشود.

إنّما هي واحدة تجب رعايتها اليوم على كلّ باحث عن الشيعة من إخوانهم السنيين، غُفل عنها في فجر الإسلام وغيره، هي واحدة تحلّ كثيراً من الشغب اليوم. نحن نفهم من كلمة الشيعة إذا قلناها: الأمامية الاثني عشرية خاصّة، لأنّهم الأكثرية من بين فرق شتى، وذوو المؤلفات والمعارف التي يُقال عنها مؤلّفات الشيعة ومعارفها، ولأنّهم اليوم شيعة العراق وسوريا وإيران والإمارات العربيّة على الخليج الفارسي والهند وأفغانستان، وما إلى ذلك، وهناك الزيدية في اليمن والبحرة في الهند، أمّا الفرق الأخرى التي يعدّها مثل الشهرستاني في الملل والنحل وغيره، فقد أصبحت في خبر كان ولا يُعرف لها أيّ أثر في هذه البلاد المترامية الأطراف، إلّا بعض فرق لا يسمع لها حسيّس في المجتمع الشيعيّ ولا غيره كالعالية.

فإذا طوّح القلم بالكاتب اليوم عن الشيعة، وقرأ ما كتبه السلف عنهم، خلط الحابل بالنابل، وألصق عقائد تلك الفرق البائدة بعامة الشيعة، وعلى الأصح بالشيعة بالمعنى المفهوم الآن، فكانوا في نظره مرجئة، وغالية، ومجسّمة، ومجبرة، وسبئية، وزركشية، وما إلى ذلك.

وهذا ما يُنعى على الباحث المتتبع، وهذا ما يثير غضب أولئك الشيعة الأحياء، من غير ما حاجة تدعو الكاتب ولا ضرورة، وما اجدر الكتاب أن يتنبهوا اليوم لهذه الناحية، فلا يثيروا كوامن أحقاد شائنة بذرتها السياسة لأغراضها في زمن بعيد لسنا

أبناءه، فلا يصطدم بآراء أفراد - لا فرق - لا نعرف عنهم كثيراً، ولا يصح أن يدخلوا تحت هذا الاسم.

وعند ذلك قد نُوفِّق إلى التفاهم، فالتقارب حيث تفرضه الأخوة الإسلامية، ويكون بحثنا نزيهاً يتطلَّب الحقيقة ليس إلا، ليتلقى الطرفان نتائج بصدر رحب - على ما يقوله الأستاذ أحمد أمين - كما يتلقون النتائج في أي بحث علمي وتاريخي، وكما يقع البحث بين علماء الشيعة أنفسهم، وبين مذاهب السنة أنفسهم، مادامت السياسة بعيدة عنه وما دام بعيداً عنها.

وإذا لم نستطع أن نصل إلى ما نتمناه من حمل علماء الأزهر وعلماء النجف على هذه الطريق الحميدة، وعلى هذا العمل المبرور، فأكبر الظن أن من السهل علينا ألا نذهب بعيداً، فنقترح على (الرسالة) الهادية أن تفتح لنا بين أعمدتها سبيلاً للبحث النزيه، وتعززنا بشجاعتها الأدبية، فلا تصغى إلى سخط العامة - إذا ما كان - لنستطيع أن نلقي من أطمار الماضي مارث وبلي

وفي النجف عندنا جمعية دينية علمية أسست هذا العام باسم (متدى النشر)، تسعى لهذا الواجب وتدعو إليه، (وهي تضم طبقة صالحة من علماء النجف وفضلائها)، وبصفتي كاتبها العام أذيع عنها هذه النية المحموده، وأذيع عنها استعدادها للعمل في هذا السبيل.

ولقد كان لما كتبه الأستاذان (أحمد أمين) و(محمد بك كرد علي) الوقع الجميل في نفوس أفرادها، ورحبوا بهذا التفكير العالي الكبير.

وفي مصر (لجنة التأليف والترجمة والنشر) الموقرة، ففي استطاعة الجمعيتين أن يقفا في ملتقى الطريقين، ليأخذا بأيدي الباحثين إلى الحد المعقول، ويتلقيا النتائج للعمل عليها ونشرها في بلاد الله، كما نريد أن نقترحه على علماء الأزهر والنجف.

ندعو إلى هذا عقلاء قومنا ليضعوا حداً لهذه المهازل، وليقارّوا على خطّة واحدة لحلّ الخلاف، وعندني أن يُسدل حجاب كثيف على الماضي البعيد، فيما يعود إلى الحوادث التاريخية التي لا تمسّ حياتنا العملية اليوم، فينحصر البحث في نقطة عمليّة لا غنى لنا عنها.

كلّ ما عند الشيعة أنّها تتمسّك بعترّة الرسول ﷺ، لأنّهم سفينة النجاة، ولكن ليس كعقيدة وموالاتة فحسب، فإنّ هذه عقيدة كلّ مسلم اعتنق دين الإسلام، مصدّقاً لما جاء به النبي ﷺ؛ وإنّما تعني من التمسّك بهم أن تأخذ بأقوالهم في أحكام الفقه وترجع إليهم في دين الإسلام، ولا تعرف للتمسّك بهم معنى غير هذا، وتدلل على أنّ ما جاء به النبي ورثوه عنه، وعلمه مكنوز عندهم وهم أمناء عليه معصومون، لا كسائر الرواة عنه وعنهم، يروون الأحاديث كنقال يخطئون في النقل ويصييون، ويصدقون ويكذبون. وبهذا بُعدت الشقّة العملية بينهم وبين إخوانهم أهل السنّة، وكثر الخلاف في الفروع الفقهيّة؛ فكان وضوء السنّة وكان وضوء الشيعة، وكانت صلاة السنّة وكانت صلاة الشيعة، وكان وكان.

فإن استطعنا أن نتفق ونحلّ هذا اللغز بيننا حلاً مرضياً، فقد وفّقنا إلى كلّ شيء، واستطعنا أن نوجه جبهة الإسلام، كما يشاء لنا ديننا دين القيمة، وما هذا على الرجال المخلصين بعزیز.

محمد رضا المظفر

كاتب (متنّدى النشر) العام

النجف الأشرف

السنيون والشيعة للأستاذ أحمد أمين

بهذا العنوان كتب الأستاذ «محمد رضا المظفر» من أفاضل علماء النجف، مقالاً في (عدد الرسالة ١١٨ السنة الثالثة)؛ وقد أسهلها الأستاذ بالعجب من أن أكون كاتب «فجر الإسلام وضحاها»، وكاتب «مقدمة تاريخ القرآن» للأستاذ الزنجاني معاً وأن «النعمة التي ظهرت مني في هذه المقدمة نعمة متواضعة على وتر من إحساس جديد» وأنها على عكس ما ظهر مني في فجر الإسلام وضحاها، وفسر ذلك بأن لي «شخصيتين تباعدتا على قرب العهد بينهما».

والحق - يا أخي - أن النغمتين صدرتا عن نفس واحدة كانت تكره الخلاف بين السنيين والشيعة أشد الكره وأعمقه يوم كتبت فجر الإسلام وضحاها كما كانت تكرهه يوم كتبت مقدمة تاريخ القرآن، وكما لا تزال تكرهه إلى اليوم.

وكلّ مظاهر الخلاف بين القولين سببه أنني بحثت في فجر الإسلام وضحاها مذهب الشيعة كما يبحثه كل عالم، وحاولت جهدي أن أضع التعصب جانباً، وأن أتناسى أنني سني أكتب عن الشيعة، وأملأ نفسي عقيدة أنني مؤرخ يتطلب الحق حيث هو.

ومن أجل ذلك نقدت السنيين كما نقدت الشيعة، وقلت ما اعتقدته الحق في هؤلاء وهؤلاء، ووضعت الفرقتين في كفتي ميزان؛ فإذا قلت إن بعض الشيعة وضعوا بعض الأحاديث، قلت إن بعض السنيين وضعوا بعض الحديث أيضاً، لأنني اعتقدت الحق في ذلك؛ وهكذا سرت على هذا المنهج دائماً.

وأنصفت المعتزلة في بعض آرائهم، والخوارج في بعض آرائهم، والشيعة في بعض آرائهم، مع أن العادة جرت أن السنيين لا يرضون عن شيء من ذلك، فأسلوبي في

الحالين طلب الحقّ حيث كان.

وإذا كان ديننا يتطلب منا أن نزن الحق في ذاته من غير أي اعتبار آخر سواء كان مصدرها مسيحياً أو يهودياً أو وثنيّاً، فبالأحرى نزنه إن كان مصدره معتزليّاً أو خارجيّاً أو شيعيّاً.

وكلّ ما في الأمر أن بعض إخواني من الشيعة أخطأوا من ناحيتين:

الأولى: أنّهم دائماً طبقوا ما أقوله عن الشيعة على أنفسهم، وفهموا أنّي لا أعني بالشيعة في كلّ موضع إلّا إياهم، مع أنّ الشيعة كما يعلمون فرق مختلفة لا حصر لها، وأنّ منها الغالي الممعن في غلوّه، ومنها المعتدل القريب من الأنصاف، وليست الأماميّة التي يدين بها أهل العراق وفارس إلّا فرقة واحدة من فرق عديدة، بعضها باق إلى اليوم، وبعضها عفى عليه التاريخ؛

فخطأ محض أن يظنّوا أنّي كلما قلت «الشيعة» عنيتهم؛ إنّما يكون لهم الحقّ كلّ الحقّ أن يفهموا أنّي أقصدهم عندما أتكلّم على الأماميّة أو الاثني عشرية - والمؤرّخ يجب عليه أن يؤرّخ الماضي كما يؤرّخ الحاضر، وأن يذكر الغلاة كما يذكر المعتدلين، فإذا عاب الغلاة فليس عيبه إذا فهم قوم منه أن يعينهم.

والناحية الثانية: هي ما دعوت إليه في «مقدمة تاريخ القرآن» من أنّه يجب على العلماء من الطائفتين أن يوسّعوا صدرهم للنقد النزيه «ويتلقوا النتائج بصدر رحب»، فهذه شيمة العلماء حقّاً، فكم أخطأ الشيعة وكم أخطأ السيّون! فواجب الباحث أن يبحث المسائل حرّاً طليقاً، ويتأهب للبحث وهو على الحياد بالنسبة للنتائج، فسواء خرجت النتيجة صفراء أو سوداء لا يهمه، لا أن يعتقد أولاً ثمّ يبحث عن البرهان الذي يؤدي إلى النتيجة التي اعتنقها من قبل، فذلك ليس شيمة العلماء المخلصين للحقّ.

وكلّ ما في الأمر أن الواجب أن ينحى العامة وأشباههم عن الدخول في مثل هذه

المباحث لأنهم لا يستسيغونها ولا هم متهيئون لها، وليست تنفعهم في دينهم ولا دنياهم. بهذه الروح بحثت، ولا أدعي العصمة، فقد أكون أخطأت؛ وقد وجه بعض أخواني من الشيعة نظري إلى أنني حين بحثت عوّلت على مصادر أهل السنة أكثر مما عوّلت على مصادر الشيعة، وكان الواجب ألاّ يعتمد في كلام خصم على خصم، وأن ينظر في قول كلّ فرقة إلى حكاية أصحابها وخصومها معاً، ثمّ يمحّص الحقّ من ذلك كلّهُ؛

وقد أصغيت إلى هذا القول واقتنعت بصحّته، فلمّا أردت أن أكتب فصل الشيعة في الجزء الثالث من ضحى الإسلام توسّعت ما وسعني في قراءة الكتب المعتمدة عند الشيعة، ولا أزال أقلبها ظهراً لبطن وأفكر فيها من وجوهها المختلفة، حتى يتلج صدري للحق وأؤمن بما يقوم عليه البرهان من غير تحزّب لناحية - وليس يتطلب منّي أكثر من ذلك - وإنّما يتطلّب من قادة الرأي في الشيعة والسنيين ألاّ يضيق صدرهم حرجاً ممّا يقال متى خلصت نية القائل، وعلى القائل والكاتب أن يعتمد إلى الحقّ والحقّ وحده، وأن يقوله في أدب لا في تهاوتر وسباب.

وليس من الحقّ ألا يرضى الشيعة عن المؤرّخ إلّا إذا مجّد كلّ عقائد الشيعة وصوّبها، كما ليس من الحقّ ألا يرضى السنيون عنه إلّا إذا مجّد كلّ عقائدهم وصوّبها، فالمؤرّخ قاض عادل لا يهيمه من رضي ومن غضب، وهو لم ينصب للإرضاء والاغضاب، إنّما نصّب ليتعرّف الحقّ ويجهّز به.

هذا ما أردت أن أقوله من الناحية العلميّة، وأرمي من وراء ذلك كلّهُ إلى القول بأنّ البحث العلمي شيء والنزاع والخصام شيء آخر، وأنّ البحث العلمي لا يمنع التفاهم والوئام، بل هو إذا نظر إليه النظر الواسع العالي سبب من أسباب الألفة.

أمّا الناحية العمليّة في الوفاق فسهلة ميسورة متى أخلص القادة في ذلك - وهي

في هذا الزمان أيسر وأسهل - وإذا كانت الوطنية قد استطاعت أن توفّق في مصر بين الأقباط والمسلمين، وفي سوريا بين المسلمين والمسيحيين، فكيف لا تستطيع المصالح المشتركة القويّة الواضحة ألاّ توحد بين الشيعة والسنيّين وهم أهل دين واحد يجمعهم الإيمان العميق في صدورهم بأنّ لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله وأنّ كلّ الخلاف بينهم موجات على السطح وفقايع في الظاهر يستغلها أهل الجاه والمال والرياسة فيوهمون أنّها كل شيء في الدين، وليس ذلك بصحيح إلّا إذا كانت فقايع الماء كلّ الماء، وأمواج البحر هي كلّ البحر، وزبد السوائل كلّ السوائل، والعمامة الخضراء والحمراء والبيضاء هي كلّ الإسلام؛ فالحقّ أنّ الإسلام أعمق من ذلك كلّ، وما الخلافة والنزاع عليها والفروق الخفيفة في مظاهر الوضوء والصلاة والزواج والطلاق ونحو ذلك إلّا أشياء تافهة كلّ التفاهة بجانب القواعد الأساسيّة للدين، والفرق بينهما كالفرق بين مظهر الإنسان وقلبه، وبين ملبسه ومخبره، ليكن الإيمان بالأسس في القلب، ثمّ ليكن المظهر ما يكون، فالله ينظر إلى قلوبكم لا إلى صوركم.

وليقّل علماء الدين سنيّون وشيعة من تمسّكهم بالمظهر ومحافظتهم على وجاهتهم في قومهم وأتباعهم وما يغله ذلك عليهم، يروا أنّ الوفاق أقرب ما يكون وأسهل ما يكون ويضحكوا ويبكون من سخافات السلف والخلف الذين أثاروا النزاع على التافه وتركوا الباب.

أليس من السخف أن يتقاتل طائفتان على خلاف تاريخي أكان عليّ أحق بالخلافة أم أبو بكر وعمر، وعليّ وأبو بكر وعمر في قبورهم لا يعنون بشيء من ذلك؟ أم ليس من السخف أن يتعادي طائفتان مسلمتان تقرّان كلّ أسس الإسلام من أجل اختلافهما في جزئيات صغيرة في أشكال الوضوء وما إليه؟ أم ليس من السخف ألاّ يقرّ الشيعة بعلم ولا فضل ولا فكرة ولا عمل مجيد إلّا إذا صدر من شيعيٍّ؟ وألاّ يقرّ السنيّون

بعلم ولا فضل ولا فكرة ولا عمل مجيد إلا إذا صدر من سنيّ؟.. لا لا أيها القوم جعفر الصادق رجل عظيم، وأبو حنيفة رجل عظيم، فليزر شيعة العراق أبا حنيفة لعظمته، وليزر سنيّ العراق مشهد الحسين لعظمته؛ والأمهات يلدن النوابغ على السواء، فلم تضمن على الشيعة بنوابغ ولا على السنيّ بنوابغ، كما لم تضمن على الأمم الأخرى بنوابغ، فحصر كل فرقة تعظيمها لرجال فرقتهما ضيق في النظر وفقير في الفكر.

وإذا زال هذا كله وأمثاله - وهي فيما أرى من البديهيّات - رأينا الخلاف قد تبخّر ولم يعد له أساس، ولا يبقى إلاّ عند المؤرّخ والباحث، والمؤرخون والباحثون دائماً متصافون متى كان رائدهم الحق، وشعارهم الصدق، ولم تطوح بهم الأغراض والشهوات.

ليس من وسيلة تدرأ هذا الخلاف إلاّ أن يتقدم علماء اليوم من الفريقين فيمحوا الآثار السيئة التي خلفها علماء الأمس.

ولعلّ أصلح بقعة لذلك هي العراق، لأنّها أشدّ البلاد مظهرًا لهذا الخلاف، فيتعاون رؤساء الطائفتين لعقد مؤتمر في بغداد من رؤساء السنيّ والشيعة، وبيحثون وجوه الخلاف وكيف تزال في جو هادئ خلص؛ وأسبق الطائفتين إلى هذه الدعوة أفضلهم، ولا يجعلون للعامة والغوغاء سلطاناً، وليرفعوا شعارهم في كلّ مجتمع وعند كلّ خلاف «مسلمون قبل كلّ شيء» «مسلمون قبل أن نكون شيعة وسنيّين».

ولا بأس أن يدعوا قادة الفكر في مصر والشام والحجاز للاشتراك في هذا المؤتمر والتشديد في حصر أغراضه في إزالة الخلاف بين سنيّ وشيعيّ، فلا يمسون أي موضوع آخر، ثم يرسمون الطريق العملي لإزالة هذا النزاع من تزاور الطائفتين، واتخاذ شعار لهذا الوفاق، وتبيين يوم يتخذ عيداً يذكر بهذا الاتحاد ونحو ذلك، إنهم إن فعلوا واخلصوا خلصوا من أكبر مشكلة يتعرّض لها الطائفتان، وأمكنهم أن يوجهوا هذه القوى -

العظيمة التي تذهب هباء في الخلاف - إلى إصلاح شؤونهم الاجتماعية، واستطاعوا أن يتعاونوا على رفع مستوى قومهم، وعجبوا بعد قليل - لما يظهر من نتائج باهرة - كيف كانوا جميعاً في ظلام دامس، وكيف كانوا هذا الزمن الطويل يستمسكون بالعرض، ويضيعون الجوهر، ويفرطون في الكتاب، ويحتفظون بالغلاف.

وأقرر من الآن أنّي سوف لا أردد على من يتخذ بعض ما جاء في هذه المقالة وسيلة لإثارة النزاع من جديد، إلا أن يفتح صاحبها مجالاً للكلام في مشروع المؤتمر، أو وسائل الوفاق وبالله التوفيق...

أحمد أمين

حول السنيين والشيعه

للأستاذ محمد بهجة البيطار^(١)

قرأت ما كتبه العلامة الأستاذ أحمد أمين في الرسالة الغراء (عدد ١٢١) تحت عنوان (السنيون والشيعه) فرأيتَه يدعو إلى نبذ كلام الطاعنين من الفريقين، وإلى عقد مؤتمر للوحدة الإسلامية، يمهد له بالتماس وسائل الوفاق من الآن؛ ولعمري أن السنة والشيعه هما أكبر مظهر للمسلمين اليوم، وهم المرجوون لوراثه تلك الوحدة الدينيه، وتجديد ذلك المجد الدارس علماً وديناً وأخلاقاً؛ وإن أضّر شيء علينا هو هذه العصبية الموروثة، والعداوة الممقوتة، والتفرق الديني الذميم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾^(٢).

أيها الشيعة الكرام: تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أنتم تحبوننا منا وهي تسرنا منكم، وهي أن نأخذ بأدب سيدنا علي وهديه، ونقف من محاربيه عند حدود أمره ونهيه، وإن لم تتجاوزوا قوله ولا فعله، فأهل السنة معكم، وأنتم منهم وهم منكم، وها هي ذي أقواله وأعماله تعرض عليكم: لقد بايع الإمام علي للأئمة الثلاثة من قبله، وتنازل ولده الحسن عن الخلافة لمعاوية من بعده، وأصلح الله به فئتين عظيمتين من المسلمين طبقاً لما أخبر جدّه الصادق الأمين عليه وآله الطاهرين وصحبه الطيبين أفضل الصلاة والتسليم:

في نهج البلاغة أن علياً عليه السلام سئل عن الخوارج:

(١) علامة الشام (١٨٩٤ - ١٩٧٦)، عالم خطيب مؤلف، تولى عدداً من المناصب العلميه والدينيه، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق، وله مؤلفات.

(٢) الأنعام ٦: ١٥٩.

أَكْفَارُهم؟ قال: من الكفر فَرَّوا؛ قيل: أُمْنِافِقُونَ؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى؛ قيل فما هم؟ قال: قوم بغوا علينا فقاتلونا وقتلناهم.

وفي نهج البلاغة أيضاً أَنَّهُ ﷺ قال وقد سمع قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشام أيام حرب بصفين: «إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَائِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَّرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَصَوَّبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ».

أقول: ومعلوم من حال أهل السنة أَنَّهُمْ يَقْصُونَ ما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم ويصفون أَعْمَالَهُمْ، ويذكرون حالهم، ويرون أَنَّ الْحَقَّ في جانب عليٍّ ﷺ، وَأَنَّ من حاربوه هم الفئة الباغية على الإمام الحق، وهم المخطئون في اجتهادهم، ولكنَّهُمْ يؤولون التشاجر بينهم تَأْدِيباً واحتراماً لصحبتهُم، وحفظاً لكرامتهم، وحسن بلائهم في نشر الدعوة الإسلامية، ويقولون الكل ينشدون مصلحة الإسلام.

أيها الأخوة الكرام: أليست الدعوة إلى عقد مؤتمر بعيد الوحدة الإسلامية على هذا الأساس الديني، السُّنِّي العلوي هو المطلوب ولا سيما في هذا الزمن العصيب؟ فنحن نعزز رأي الأستاذ الجليل أحمد أمين، ونرجو أن يعقد مؤتمر في الكنانة أو في دار السلام تزول به تلك الاحن، وتحول تلك المشاحنات إلى ما يعود على الأمة بالنفع العام من توحيد الكلمة، وتقوية الملة، وإنشاء دور العلم المشتركة، وإحياء ذكرى أئمة آل البيت ﷺ بتجديد هديهم وإصلاحهم.

محمد بهجة البيطار

(دمشق)

إلى الأستاذ أحمد أمين

للأستاذ السيد محمد صادق الصدر^(١)

يسرني ويسرني جداً أن أقرأك أيها الأستاذ الأمين على صفحات «الرسالة» - صحيفة الأدب الخالدة - حاملاً لواء الوحدة، داعياً إلى الاتحاد والألفة، وإن في لحنك الجديد العالي - يا أستاذ - لذة ومتاعاً، وإن تفسيرك للفظ الشيعة التي وردت في كتابيك الجليلين وسفريك الثمينين: فجر الإسلام وضحاها، وتصريحك بأنك لم تقصد من لفظ الشيعة الإمامية الاثني عشرية منهم، وإنما قصدت المغالي الممعن في غلوّه، كل ذلك منك عاطفة مشكورة نقدّرها كل تقدير ونكبرها الاكبار كلّها؛ وإن عاطفتك هذه لدليل أقوى دليل، وبرهان أسطع برهان، على أدب نفسك وطهارة ذاتك، وعظيم أخلاقك وخلالك، وكن على يقين معي بأن تصريحك هذا قد رفع سوء التفاهم وأزال من نفوس إخوانك الشيعة البررة كل ملامة وعتب؛ وإذا قرأت أو سمعت عن مفكرهم شيئاً لا يرضيك، فإنما كان ذلك غيراً على طائفتهم ودفاعاً عن آرائهم ومعتقداتهم، وهذا طبيعي لكل أمة تحتفظ بكرامتها، وتحرص على سمعتها؛ وأسمح لي بأن أقول إنهم لم يخطئوا إذ فهموا من لفظ الشيعة أنك عنيتهم ما دام لفظ الشيعة مطلقاً غير مقيد؛ وليس في كتابيك (فجر الإسلام وضحاها) عبارة واحدة على تقييد الشيعة بالغالية لتخرج الاثني عشرية عن لفظ الشيعة المطلق إذا لم تقم قرينة تدلّ على تقييده يحمل على إطلاقه، وقد تكون ثمة قرائن - لا قرينة واحدة - قامت لدى الشيعة على الإطلاق وحملتهم على ما فهموه، فإن ذكرت للفظ الشيعة مطلقاً أيضاً في كتابك (ضحى الإسلام) - بعد أن زرت

(١) عالم جليل من أعلام العراق (١٩٠٩ - ١٩٩٥) تولى رئاسة مجلس التمييز الجعفري، ثم عضواً في مجلس الأعيان، له العديد من المصنّفات.

العراق وطفّت بمدن الشيعة، واجتمعت برجالاتها، وعرفت الشيء الكثير من عقائدها وآرائها - سوغ لهم هذا الفهم وحملهم على أن يعتقدوا هذا الاعتقاد؛ ولست أريد بكلامي هذا أن أثبت أنك تقصد ما فهموه، وإنما أريد أن أقول إنهم لم يخطئوا في فهمهم ما دام إطلاق اللفظ كان يحتم عليهم فهم ذلك، وعلى كل حال سترى من الشيعة إخواناً شاكرين أفكارك وآرائك الأخيرة.

وأود أن ألفت نظرك إلى نقطة مهمّة وردت في مقالك القيم، فقد قلت: «وليست الإماميّة التي يدين بها أهل العراق وفارس إلّا فرقة واحدة من فرق عديدة بعضها باق إلى اليوم، وبعضها عفى عليه التاريخ».

إنّ الطائفة الاثني عشرية هي الطائفة الوحيدة اليوم من طوائف الشيعة وهي مبوثة في العراق وفارس والهند وأفغان وسورية والبحرين والحسا والقطيف وفي غيرها من الأقطار الإسلاميّة، وكلّ ما يبرز للعالم من آثار علميّة ومنتجات أدبيّة هو ممّا دبجته أقلام علماء هذه الفرقة وكتابها وشعرائها، ولم يبق من طوائف الشيعة المتعددة غير هذه، اللهم إلّا بعض طوائف ضئيلة لا تذكر، لذلك أصبح لفظ الشيعة اليوم خاصّاً بهذه الطائفة يتبادر إلى الذهن لدى إطلاقه؛ وقد بادت - والله الحمد - أكثر هاتيك الطوائف الضالّة التي شوّهت سمعة الشيعة.

وأملّي وطيد ألا تعرض في الجزء الثالث من فجر الإسلام إلى غير هذه الطائفة لأنّها هي الطائفة الوحيدة من بين طوائف الشيعة المتعددة، التي يطلق عليها لفظ الشيعة لكل ما لهذه اللفظة من معنى؛ فهي التي شايحت عليّاً عليه السلام وتابعت في أفعاله وأقواله، وليست طوائف الشيعة الضالّة من التشيع في شيء ما دامت أفعالهم وأقوالهم لا تتفق وأقوال أهل البيت عليهم السلام وأفعالهم.

ومن الخطأ جداً أن نجعل المقياس والجامع للتشيع حب علي عليه السلام هذا لأننا إذا اردنا

ان نجعل المقياس العنوان وجب أن نطلق على السنيين لفظة الشيعة أيضاً، لأنهم يحبون الإمام ويقدرسون شخصيته، فالمقياس للتشيع إذن هو المشايعة والمتابعة، وهو الذي يقتضيه لفظ الشيعة؛ أمّا الطوائف التي لا نجدها مطابقة لهذا اللفظ فليست من الشيعة في شيء وإن ألصقت نفسها إلصاقاً واتخذت لها هذا الاسم وساماً.

أمّا ما رجحت من عقد مؤتمر في بغداد يجمع بين علماء الطائفتين، ويؤلف بين الفريقين فهذه فكرة ناضجة، وأصبحت اليوم محتمّة، وجدير بكل مسلم أن يبت هذه الدعوة، ويسعى لتحقيق هذه الفكرة فقد آن أن نتفق ونتحد، وأن لنا أن نوحّد الصفوف ونجمع الكلمة، وأن لنا أن ننبد النعرات الطائفية التي كانت السبب الوحيد في شق عصا المسلمين وبثّ روح الخصام في نفوس الأمة المسلمة التي كان يسودها الاتفاق، ويعلو سماءها الحب والوئام.

وحري بنا - ونحن في هذا العصر الذي كثر فيه أعداء الإسلام ومناوئوه - أن نتناسى الماضي ونسدل حجاباً كثيفاً على كلّ ما من شأنه أن يكدر الجو ويشير العداوة والبغضاء، وإذا فرقنا المذاهب بالأمس فستجمعنا المصائب اليوم، وإني أتذكر كلمة خالدة في هذا الموضوع لعلامة جبل عامل الأكبر الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين نوهت عنها مجلة المنار الإسلاميّة، فقد قال عن الطائفتين: (فرقتها السياسة، وستجمعها السياسة)؛ فالسياسة التي فرّقت بينهما طيلة الأعصر الماضية هي التي ستجمع بينهم في هذا العصر وتوحّد صفوفهم في الأعصر الآتية؛ وإنّ الواجب ليحتّم على كلّ فرد من أفراد الأمة الإسلاميّة أن يبتّ روح الاتفاق الحيّة، ويسعى غاية جهده في كلّ ما يرجع إلى صالح الأمة، «فكلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته»، ولكن ممّا لا شكّ فيه أنّ المسؤولية العظمى تلقى على عاتق العلماء والمفكرين من الأمة، فإنّهم هم القادة، وهم الذين يقدرّون الواجب، وهم الذين يحسّون بمسئليّة الحاجة إلى بثّ روح

الاتفاق والألفة، وهم قادرون - بما أوتوا من علم وحكمة وقوة بيان - أن يخضعوا العامة لأرائهم ونظرياتهم؛ وإذا قام العلماء ببث هذه الروح، وقاموا بايجاد مؤتمر إسلامي عام، فإننا يقومون بواجب تفرضه عليهم حالة الأمة الإسلامية الحاضرة، وتحتّمه آي القرآن الكريم ونصوص السنّة المقدّسة؛ فالقرآن الكريم يحضّ على الاتفاق، ويحثّ على الألفة فيقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١)، ويقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٢)، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٣)، ويقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٤)، إلى غير ما هنالك من الآيات الكريمة التي تحتم على المسلمين أن يتفقوا، وتحذّرهم أن يتفرّقوا فتذهب ريحهم، ويخسروا عزّهم ومجدهم، ونحن لو رجعنا إلى السنّة النبويّة المقدّسة لوجدناها تضرب على هذا الوتر وتلحن أحاديثها الشريفة على هذا التلحين، وتواجه المسلمين بنحو هذا الأسلوب فتقول: «ذمّة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، وهم يد على ما سواهم فمن أحقر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل» والأحاديث في ذلك كثيرة.

وكان ﷺ يبثّ هذه الروح المباركة ويحضّ عليها بمختلف التعبير، وكان لإرشاداته عليه السلام وتعاليمه القيمة دور عظيم في أنحاء الجزيرة العربية، وأثر في نفوس المسلمين الأثر الذي جعل فيهم روحاً وثابة حيّة كانت هي السبب الوحيد في رقيهم الباهر، وتقدمهم العظيم، فالأمة الإسلامية ما اجتازت تلك المراحل، وما وصلت إلى ما وصلت إليه من المجد والعظمة إلّا بالتمسك بالاتفاق والاعتصام بحبله المتين؛

(١) الحجرات ٤٩: ١٠.

(٢) التوبة ٩: ٧١.

(٣) آل عمران ٣: ١٠٥.

(٤) آل عمران ٣: ١٠٣.

فبفضل الاتفاق أصبحت الأمة الإسلامية أمة حيّة، وبفضل الاتفاق تربعت على دسّت الحكم وقبضت بيدها الحديدية على أنحاء المعمورة، وإذا أردنا أن نسترجع مجدنا القديم ونستردّ عزّنا السالف لتحتمّ علينا أن نتقدّم للعمل حاملين هذه الروح الوثابة المباركة، ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

بغداد

محمد صادق الصدر

(١) التوبة ٩: ١٠٥.

السنيون والشيعة والمؤتمر

للأستاذ محمد رضا المظفر

لأول وهلة بدا لي أن أنسحب بعد مقال الأستاذ (أحمد أمين) المنشور في (عدد الرسالة ١٢١)، ولا أدخل في هذا الموضوع من جديد، لأنه قرر أخيراً: «أنه سوف لا يردّ على من يتخذ بعض ما جاء في مقالته وسيلة لإثارة النزاع من جديد إلا أن يفتح صاحبها مجالاً للكلام في مشروع المؤتمر أو وسائل الوفاق» فخشيت أن أكون عند الناس أو عند نفسي (وهي لا تحب لي الرذيلة) ممن يتحجب النزاع أو يسعى لتعكير صفو الأخوة التي ظهرت بشائرها في العالم الإسلامي، ولهذا - أو لشي آخر لا أدري - وُضع هذا التقرير الصريح.

ومن جهة أخرى، تخوّفت أن يكون حديثي هذا من (لغو الصيف) وإن كنّا نستقبل الشتاء، فلا أجب عليه بعد ذلك التقرير؛ وليست فكرة المؤتمر - وبالأصح حلم المؤتمر - تلك الفكرة الناضجة والحلم الصادق فيما أعتقد (وسأعود إليها)، حتّى أستنزل بعلاجها طرف الأستاذ لميدان هذا الموضوع.

كلّ ذلك دار في خلدي، وأكثر من كلّ ذلك صرفني عن كلّ هذا الحديث، حتّى يمضي عليّ هذا الزمان، وأخيراً أترجع إلى طوية نفسي فأجدها جد مؤمنة بوجوب السعي لتحقيق فكرة الاتفاق، وتوحيد كلمة المسلمين، مهما اختلفت وجهة النظر مع الأستاذ أو مع غيره، وهنا فليقرر الأستاذ ما يشاء؛ وليقل الناس ما يحبّون!

ولعلّ الرسالة تفتح صدرها الرحب لكاتب يقف للفرص يتتبعها، لإزالة ما قد يسيء للاتفاق بين الطائفتين، ويشهد حديث كتابها أو غيرهم عن كذب، حتّى لا

يتكلموا عن الشيعة كأمة غائبة في مجاهل المفاوز، لا سمع لها ولا لسان، في حين أنّ رجال الشيعة تتبع الأحاديث عنها في الصحف والكتب بكلّ إصغاء، وقد لا تشاء الرد والجواب، كما وقع في العام الماضي في الرسالة بين الأستاذين، عبد الوهاب عزام، وأمين الخولي، في قضية مكة ومشهد الحسين.

وكم يضحكني ما يكتب عن الشيعة كأئمة من الأمم الخوالي (ولتعرف من الآن أنا لا نفهم من كلمة الشيعة إذا أطلقت غير الإمامية)، فتنسب لها عقائد وآراء لا تعرفها وكثير من رجالها صامتون كأنّ الحديث مع غيرهم، ثمّ يحرقون الأرم من غير طائل، وليس من الصحيح هذا التسامح الذي جرّ ما جرّ من تباغض وشنآن، وربما على ما خلف لنا علماء أمس (رحمهم الله)، وزاد في الطين بلة، وربما تصبح الطريق بعد هذا زلقاً لا تصلح لسير الأقدام إلّا بما لا يحمد، كما كان في العصور السالفة؛ وكان من الواجب أن يبادر إلى علاج هذه الناحية قبل فوت أوان العلاج، والحرية الصحافية ضربت أطنابها في البلاد، وخصوصاً في مصر، فأعجب أن يُسأل صاحب المقتطف - مثلاً - عن الشيعة، فيجيب عنهم بما يعلم - وهو معذور - ولا يرد عليه واحد منهم وهو لا يأبى عن ذلك، ولا يأبى أن يزيد علمه فيهم، إذن بعد هذا لم لا أتقدّم بنفسي لهذا الواجب؟

هذا سؤال وجيه، وعليّ أن أجيب عنه بكلّ صراحة وإخلاص: كم هناك من مباحث وددت كشف غطاء الحقيقة عنها - لو كنت من أهل ذلك - فأتقدّم إلى القرطاس، وأحاول أن أجرد قلمي من لحاء التعقيب لعقيدتي التي نشأت عليها، وغذيتها في لبن التربية، لأطلب الحقيقة بالبرهان، ولا أكون ممن يتطلّب البرهان للعقيدة، ولكن أجد محاولتي الباطلة، فأبحث عن قلمي، فأراه قد تألف من مجموع قشور، وأخيراً لا أجد قلماً أحمله لأكتب به.

وهكذا العقائد العامة ليس في وسع أحد أن يتجرّد عن تبعاتها مهما تخيّل أنّه

سيذهب عنها ناحية، ولا بدّ أن تنزله لحضيضها، ويُرغم على غذائها، فيما يكتب وفيما يعمل، فترتكز عليه أقواله وأفعاله، من حيث يدري ولا يدري؛ وعلم النفس يصدّقني - وعلى الأقل لا يكذّبي - في هذه الدعوى.

ولا أعتقد أنّ امرءاً استطاع أن يحرّر نفسه من عقيدته، ما دامت له عقيدة يستمسك بها، أبي الأستاذ «أحمد أمين» أم لم ياب!

ولكنني أرجو أن يوفّقنا الله في جهاد سورة النفس في تعصبها، وقمع غلوائها، فيما إذا اعتقدنا بعظم النتيجة وفائدتها للجميع؛ وعسى أن نصيب هدف الحقيقة بعد حين بهذه الحيلة؛ وهذا هو الذي يطمئنني أن أنزل إلى هذا الميدان الوعر المسالك، ومن ورائي جمعيّة (منتدى النشر) تقبض على ناصيتي.

ولقد كانت وجهة نظري القاصر - ولا بدّ أن تعرفها من حديثي المتقدّم ومقالي السابق - أن نفتح لنا باباً للتفاهم في أصل عقائدنا وصحّتها - مهما كان في ذلك من الخطورة - فندخل في بحث علمي أو تاريخي، كسائر أبحاثنا العلميّة والتاريخيّة، ونتلقّى النتائج بصدر رحب، وذكرنا في مقالي السابق: ما هي النقطة التي يجب اتباعها في البحث؟ وذلك هو الذي فهمته أيضاً من كلام الأستاذين محمّد بك كردّ علي وأحمد أمين في المرّة الأولى، وعلى هذه النعمة جسست وتري، ومضيت مطرباً إلى حدّ بعيد وحقاً «إنّ البحث العلمي لا يمنع التفاهم والوثام، بل هو إذا نظر إليه النظر الواسع العالي سبب من أسباب الألفة».

إلاّ أنّي بعد هذا وجدّتك - أيها الأستاذ - تذهب بعيداً وتنتقل مفاجأة إلى حديث عقد مؤتمر بين الطائفتين في العراق، فماذا تقصد من المؤتمر؟ وعلى أيّ خطّة ولأيّ غاية يجب أن يسير؟ هذا الذي بعد لم أحط به علماً، ونزولاً عند رغبتك ادخل في الموضوع ما انفتح لي بابه.

لا شكّ أن عقد مؤتمر بين الطائفتين - على أيّ وجه يكون - لا يمكن التوصل إلى تحقيقه، بمجرد تفكير واحد واقتراح آخر وتأيد ثالث، مهما كان المفكر والمقترح والمؤيد فلا بدّ أن يختمر في العقول بنقد ورد ويدرسه على جميع وجوهه حتى يستقرّ على فكرة واحدة ووجه واحد، ويعمّ صوته الاسماع النائية والقريبة، ويساهم في درسه العالم والسياسي، ويقتنع به ولاية الأمور - ولا بدّ من اقتناعهم أو إقناعهم - كعمل لا بدّ منه، ثمّ تُنتهز الفرص للعمل على تحقيقه، ويُسعى باخلاص لتأسيسه، على سنة الارتقاء والتدرج، أو كما قال معالي العلامة الشيبيني^(١):

خواطري اليوم أقوالي ومعتقدي غداً وغرّة أعمالي وراء غد
لقد سمعنا بحديث هذا المؤتمر وسعى بعض رجالات الطائفتين لتأسيسه، وسمعنا باختلاف التفكير في خططه، كلّ هذا سمعنا، وأنّضح لي ممّا سمعت وممّا قرأت أيضاً أنّه ما زال أمنيّة لم تشعب درساً وتدقيقاً؛ وكلّ عمل كبير مثل هذا لا بدّ أن يكون كذلك أكثر، فلنفرض أنّ المؤتمر انعقد في العراق، واجتمع أعضاؤه لدرس خططهم، فعمّ يتساءلون؟ يدرسون مذهب الشيعة وأهل السنّة - وعلى الأصحّ مذاهب المسلمين - وأسباب الخلاف بينهم، كأجانب عن المذهبين، ثمّ يتفقون على الصحيح، أو قل: على جوهر الإسلام الحقيقي الذي جاء به الرسول عن الله، ويطوحوا بالقشور وبما ألصق بالحنيفة إلصاقاً - ولا بدّ أن يكون هناك لباب وقشور وحقّ وباطل لا محالة - ليحملوا الأمانة الإسلامية جمعاء على الإسلام الصحيح، الذي يفهمه روح الإخلاص والبحث النزيه. حلم لذيذ! لو صدّقناه لكنّا خيراً منه ونعم الخلف الصالح، ولا سترحنا من آلاف الكتب التي ألّفت في هذه الشؤون، وجرت على المسلمين الويل والثبور، وأضاعت من

(١) الشيخ محمّد رضا الشيبيني (١٨٨٩ - ١٩٦٥) عالم أديب شاعر وزعيم وطني كبير، من روّاد النهضة الحديثة في العراق، شغل مناصب وزارية منذ أواخر الثلاثينيات، وترأس مجلس النواب، وعضواً في مجلس الأعيان، عضو المجامع العلميّة العربيّة، ورئيس المجمع العلمي العراقي حتى وفاته.

أوقات العلماء كلّ غال ونفيس درساً وتأليفاً، فصرفتهم عن كلّ عمل ينفع الأمة ويجرّ إليها المغنم، طيلة هذه القرون.

ولكن - بالله عليك - هل رأيت حلماً أكذب من هذا في أضغاث الأحلام، وأمنيّة أبعد منها في الأماني؟ كيف يتفق أولئك على الصحيح؟ وبما يحملون الرأي العام على اعتناقه؟ أبالقوة يعتقد هؤلاء الدين الجديد عندهم؟ أم بالتقليد لأولئك النفر القليل؟ أم بطريق الحجة والإقناع؟ كلا! كلّ هذا ليس من السهل، أو ليس من المستطاع؛ وإذا جاز أن يقع مثله في أوّل الدعوة إلى الإسلام من نبينا وأصحابه، فليس من الجائز أن يقع في هذا العصر من مؤتمر يؤلّف من علماء الطائفتين المتخالفتين في بؤرة الخلاف، وهل يصحّ أن نكتفي بهم وحدهم أو بالخاصّة معهم - لو جاز أن يتفقوا - ونستغني عن اتباع السواد لهم.

وأكبر الظن أني تيسرت عن الغرض في تأويلي هذا للمؤتمر المقصود، إذن فعمّ يبحثون؟

لنتركهم يعملوا لإيجاد عوامل الألفة والصداقة الوديّة بين الفريقين، ولذبح النعرة الطائفية على أعتاب الأخوة الإسلامية ليدخلوها بسلام آمين، ولتبق بعد هذا كلّ طائفة على عقيدتها وأعمالها، كمذاهب أهل السنّة فيما بينهم، وكالشيعة لما يختلفون في تقليد مجتهدهم، وهناك تتجلى الكلمة الذهبية الخالدة: «إنّما المسلمون إخوة»^(١)، وقوله ﷺ: «المسلمون كالبنين المرصوص يشدّ بعضه بعضاً»^(٢)، وينظر عندئذ المؤتمر في دعوى من يدعى غمط حقوقه كمحكمة كبرى إسلاميّة، ويأخذ على الأيدي العابثة من كتّاب وغيرهم بالوسائل التي يخطّطها ويستطيعها.

(١) كذا.

(٢) كذا.

وظنّني أنّ هذا المؤتمّر هو الذي يرمي إليه إخواننا فيما فكّروا وتحدّثوا وكتبوا، وهناك ملحوظات يجب ألاّ نغفل عنها:

هذه الدعوة إلى الاتحاد ونبذ النزعات الطائفية، والتفرقة الشائنة، هي أحد الأسس القويمة التي بُني عليها الحكم الوطني في العراق - كما ذكرت في مقالتي السابق - ورؤساء الطائفتين يومئذ لم يُقَصِّروا في توجيه الرأي العام نحو هذه الفكرة الجديدة، التي لم يدع لها العهد التركي البائد مجالاً للظهور أو لبذرهما في العقول، واستطاعوا في أقصر وقت أن يكهربوا الفكرة العامة بتيّارهم، حتّى إنَّك كنت تسمع اهتاف بالوحدة يبلغ عنان السماء في جميع محافلنا ومجالسنا، وكان الرجل يخسأ أن ينسب بكلمة واحدة تشتمّ منها رائحة الخلاف، وعلى ذلك أعوام - أو أيام - مضت، حتّى تغير بعض النفوس، وتبدّل كثير من النوايا، ولا ندرى لماذا كان؟! وهل يجوز أن نقول لا ندرى؟! لا أدري!

واليوم - بحمد الله - تجد الحال كما هي، لم تتبدّل تلك الظاهرة المحبوبة؛ ولكنّها فقاقيع على الماء من ارتفاع درجة الحرارة، وليست هي كلّ الماء - كما يقول الأستاذ أحمد امين - أو ليس وجودها إلّا لتظهر فقط لا لتنفع - كما يقول الأستاذ الرافعي - لأنّ هذه الظاهرة احتفظت بها السياسة وحدها واكتفت بها، ولم تأخذ بها الأمّة عن طريق الرغبة فيها، والاقتناع بضرورتها وثمراتها، في حين أنّ الدعوة إليها قد تضاعل نبراسها إلى حدّ كاد معه ينطفي، وما أدلّ على هذا من أنّ السنيّ الداعي إلى الوحدة يصبح متشيّعاً في نظر أصحابه، والشيعيّ الداعي إلى الوحدة يصبح سنيّاً في دعوى إخوانه، وهذا وهذا ذنب كبير عندهم لا يُغتفر!

ولذلك يسود الاعتقاد اليوم أنّ الدعوة الأولى كانت كلها خداعاً في خداع؛ ومن رجالنا من لا يزال مستمسكاً بها إلى اليوم، فينسب إلى غفلة أو سذاجة، وهذا هو الداء الدوي.

فإذا أردنا أن نؤلف هذا المؤتمر في العراق، فإننا نريد أن نعيد تلك الكرة لتنفي العزة، وقد لاقت في مبدأ الأمر سوقاً رائجة، ثم كسدت تلك السوق، وبيع فيها الرأي العام بأبخس ثمن، وبдраهم معدودة؛ ومن الصعب جداً أن نعمل عملاً مجرباً بتشاؤم منه؛ واعتقد أنه سيكبد القائمين مجهوداً كبيراً من هذه الناحية، ويحتاج إلى زمن ليس بالقصير، لتحويل الأفكار ورسوخ العقيدة من جديد، تتخلله الدعاية الواسعة من القادة وذوي العقول المخلصين: وتقريباً للمسافة أجد من الضروري ان تنضج هذه الفكرة خارج العراق أولاً، ثم تدخل العراق لتستطيع أن تهضمها الأفكار بسهولة.

ومن المرجح أن هذا المشروع لا يلاقي الفشل بعد تشكيله في هذه المرة إذا كان القائم به مؤتمراً منظماً يبنى على أسس متينة ونظم واضحة، وإذا كان مؤسسو المؤتمر يحملون في حقائبهم إخلاصاً صادقاً وعقيدة ثابتة ووطنية صحيحة، والعراق في دور الاستقلال، وما فشل لأول مرة إلا لأنه كان عملاً فوضوياً اندفع إليه المجتمع كسائر اندفاعاته التي لا يقودها العقل والرأي - على حسب قانون المجتمعات - فاستغلته السياسة الوقتية، ثم لعب أهل الأغراض والمطامع ومن خلفهم الاستعمار أدوارهم - وبالطبع يتلاشى هذا الظل بعد حين، متى طلعت الشمس ولا بد أن تطلع -، ولا مؤتمر مسؤول ولا جمعية مخلصنة تحاسب الناس على أعمالهم.

محمد رضا المظفر

النجف الأشرف

محاضرات

في علم الأخلاق

دونها تلميذه المرحوم

عبد الحلیم رشید البغدادي

(١٩٣٧-٢٠١٣)

كلية منتدی النشر

١٣٦٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ونحن في ختام المطاف لما ألقاه الشيخ المظفر (قدس سره) من محاضرات وخطابات
عثرنا على مجموعة مخطوطة دوّنها تلميذه المرحوم عبد الحليم رشيد البغدادي (١٩٣٧ -
٢٠١٣م) وقدمها لنا نجله (تمام) وفقه الله ولدى تصفحها وجدت انها من افاضات
الشيخ المظفر ومحاضراته في علم الأخلاق التي كان يلقيها على طلاب كلية متدى النشر
عام ١٣٦٦هـ.

ومن خلال الاطلاع عليها وتدقيقها وجدت أن منها محاضرات تبدأ موشحة
بعناوين منها: المحاضرة الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشر
والحادية عشر، ومحاضرات اخرى لم يشر الى تسلسلها ولكنها في نفس السياق.
وفي الحقيقة ان هذه المحاضرات الاخلاقية تمتاز بأهميتها زمانا ومكانا ويبدو في
ضوئها اسلوب الشيخ المظفر وتعمقه في دراسات العقيدة والفلسفة الالهية وموضوعها
للتوجيه الديني والتهديب التربوي بما تمثله من رؤى رائعة يطل بها المظفر على مشارف
من المعرفة والعرفان بما يقوم السلوك الانساني وينقله الى عالم النفحات الروحية.
داعين المولى القدير التوفيق للقراء الكرام في الاستفادة منها وللباحثين والمعنيين
اطاللتهم على جانب من جوانب الشخصية العلمية للشيخ المظفر في هذا المضمار والله
ولي السداد والتوفيق.

محمد جواد الطريحي

المحاضرة الخامسة

قال امير المؤمنين عليه السلام :

«عبدتك لا خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن رأيتك أهلاً للعبادة فعبدتك».

وبذلك قسم الامام العبادة الى ثلاثة اقسام وأشار الى العبادة الصحيحة منها :

الاولى - وهي عبادة العبيد وهم الذين يعبدون الله خوفاً من عذابه ودفعاً لنار غضبه.

والثانية - عبادة التجار وهم الذين يعبدونه طمعاً في ثوابه ورغبة في جزائه وطلباً لجنته وسميت بالعبادة التجارية لما فيها من المعاوضة.

والثالثة - عبادة الاحرار الذين لم يستعبدتهم الخوف ولم يوجههم الطمع فهم يعبدونه لأنه أهلٌ للعبادة ولأنه خلقهم وأنعم عليهم بنعمه الوافرة فهم بهذا يشكرون نعمته ويحمدون فعلته من دون ان يرجوا من وراء ذلك معاوضة لهم ومن دون ان يدعوا الى ذلك فوقهم وهي عبادة الامير التي هي أشرف العبادات وأفضلها او هي العبادة الحقّة والفضيلة الصحيحة التي تكون حقاً مصداقاً لها - والعبادة فضيلة - فأولئك الاحرار انما هم يطلبون فضيلة العبادة لأنها فضيلة وهي أهل لان يضحوا لها هذا الجهد والفضيلة التي نجد لها هذا الاسم لا تحصل الا بالجهد بين النفس والعقل فتقتضي التضحية بالنفس ولذا نذرها لأجل العقل والنفس المفكرة ولبلوغ الجانب الروحي في الانسان.

اما في العبادتين الاوليين فهم انما يعبدونه لأنه يماشي نفوسهم البهيمية فيعبدون اللذة في الحقيقة.... ومن لذاتهم البهيمية حب الامن والراحة وحب الطمع والمادة..

وليس من الجهاد بين النفس والعقل ما داموا يسيرون على هوى من نفوسهم الامارة فلا يسمى الصدق صدقا ان لم يكن هناك مدعاة للكذب واغراء على ارتكابه فيحدث ذلك الجهاد العسير والحرب الخفية بين النفس التي تدعو الى اشباع لذتها ومنها الكذب وبين العقل الذي يدعو الى الأخذ بفضيلة الصدق لأنه صدق فالرجل الصادق هو الذي يغلب العقل عنده على نفسه ويضحى بنفسه ولذائذها في سبيل ارضاء عقله ومثل النفس العاقلة في الأخذ بالصدق لأنه صدق لان العبادة الحقيقية عبادة وشكر واجب وهي الفضيلة الحقيقية التي تكون فضيلة لأنها مثل اعلى للجانب الانساني والروحي في المرء من دون ان يشوبها الخوف والرجاء.

المحاضرة السادسة

قال امامنا زين العابدين (عليه السلام) في دعائه :

«.... وبلغ بإيماني أكمل الايمان واجعل يقيني افضل اليقين....».

وهكذا ابتداء الامام بذكر الافعال الانسانية وقبل الخوض في البحث لابد ان نشير الى السبب في وضع هذه الادعية فقد وضعها طالبا من ورائها تعليم الناس الاخلاق الفاضلة والسجيا الحميدة وارشادهم الى طريق الحق الواضح والمحجة البيضاء وهدايتهم الى ما فيه خيرهم الدنيوي والأخروي وهل مهمة الامام غير الارشاد والتعليم وخصوصا بالنسبة اليه (عليه السلام) نظرا للوضع المحرج الذي كان عليه الناس حينئذ من تحلل في الاخلاق وتحرر من النظم الاسلامية الراقية فاضطر الى وضع هذه الادعية وهذه الصحيفة الاخلاقية طالبا من ورائها تنبيه الناس من غفلتهم وإيقاظهم من غفوتهم والتي كانت السياسة الاموية لها الدور الاول في هذه الغفلة وهذا التحلل.

والحق أن الصحيفة هي كما قيل الكتاب الثالث بعد القرآن والنهج لما فيها من تعاليم جمة وارشادات لا تقدر ولكن من المؤسف جدا ان نرى الشيعة وهم أحق بأن يجعلوها قبلتهم ومحل اهتمامهم ودراستهم قد نظروا اليه نظرتهم الى سائر الادعية الاخرى التي يتوصل بها الى الله تعالى والتقرب اليه فهم لا يقرؤونها الا اذا أهمهم أمر او أرادوا طلب أمر فيلجؤون اليها ولا يقرؤونها على انها درس وعلم او ارشاد وأخلاق فهم غفلوا عن الغرض الحقيقي الذي دعا الإمام (عليه السلام) الى وضع الصحيفة لانهم غفلوا عن الوضع السياسي حينذاك والذي لعب دورا هاما في وضع ارشاداته ونشر رسالته ومهمته في مثل هذا الاسلوب الخاص تحت ستار الادعية والآن نرجع الى بحثنا الاول

فقد قلنا سابقا ان الاخلاق الفاضلة او الشريرة انها تكسب من الخارج فهي من الافعال الاختيارية للإنسان اذ ان الطبيعة البشرية لم تطبع على خير ولا على شر وانما الخير والشر يأتي من خارج الطبيعة وانما كانت قابلة للخير والشر لأنها تحت سيطرة الانسان ولم يجبر عليها فهي تتصف بالخير والشر اما الافعال غير الاختيارية فهي غير قابلة لوصفها بالخير والشر ولذا قلنا ان الغرائز في انفسها لا هي خيرة ولا هي شريرة لأنها طبيعة غير مختار بها الانسان ولأنها ليست بأفعال اختيارية له ولكن اشباع تلك الغرائز هي التي تجعلها خيرة او شريرة اذ هي بالذات غير قابلة لكليهما ولكن اتصافها بهذين انما هو ثانيا بالعرض واشباع تلك الغرائز هي من الافعال الاختيارية له وعليه يثاب ويعاقب فغريزة حب الذات مثلا ليس في نفسه شر اذ ليس الانسان في الحقيقة الانفسه ولا يسعى خطوة الانفسه ولا يفعل فعلا الارضاء لها وهو انما يضحي بنفسه ومادته لأجل شيء معنوي لأنه يريد ان يرضي نفسه المحبة للفضيلة المعنوية وليس العالم اجمع الانفسه فيها قوام الانسان ولكن اشباعها من طريق غير صحيح هو الى الشر او يشبع حب ذاته بالحسد والتكبر والظلم والانقاص من شأن الآخرين وغير ذلك.

والافعال للإنسان - التي لا تكون الاختيارية - في قسمين :

١ - قلبية ٢ - جوارحية.

فالأولى : هي حركات البدن واعضائه كالمشي وغيره.

والثانية : هي التي تكون صادرة من القلب وهي عقد القلب على الصلاح او الحسد والبغض مثلا.

وفي الحقيقة ان النفس هي مصدر كل القسمين فحركة العضو لا يكون الابادة من النفس وكذلك الفعل القلبي على خلاف اليقين فانه ليس من ارادة النفس.

وقوله تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ هو دليل على وجود الافعال

القلبية وانه غير الاستيقان بل مرتبة ثانية تأتي بعده فهم جحدوا بعد ان استيقنوا بالحق بمعنى انكشف لهم الواقع وعلموا بالحقيقة ولذلك لم يسموهم (مؤمنين) رغم انهم انكشف لهم الواقع فالمنافق انما يعذب هو بعد استيقانه بالحق وعلمه به ولكنه لا يعقد قلبه عليه ولا يلتزم به لمغالطات نفسه وتكبره وحسده ولهذا اختلفوا في تفسير الآية لاختلافهم في تفسير الايمان ظنا منهم ان الايمان بالحق هو انعقاد به ولكن الصحيح ان الايمان هو انعقاد القلب والالتزام بما اعتقدوه فالجحد معنى قلبي والاستيقان بمعنى العلم ليس بفعل قلبي اختياري فأولئك الذين غلطوا في تفسير الآية يعتبرون ان الجحد ليس من الافعال القلبية فعندهم ان الجحد هو عدم الاقرار باللسان فهم استيقنوا وانكشف لهم الواقع ولكنهم انكروه بلسانهم.

اذن فما هو تعريف الايمان هل هو الاقرار بالجنان والاعتراف باللسان او الاقرار بالجنان فقط والصحيح هو الثاني لأن مناط الايمان وقوامه هو لإقراره بالقلب والالتزام بالجنان أما شرط الاعتراف في اللسان فليس شرطاً في مناط الايمان وقوامه نعم هو شرط في الرجل المؤمن فلا يكون المؤمن مؤمناً اذا لم يكشف عن اقراره بقلبه باعترافه وقد يكون هذا الشرط اعتماداً على دخوله فيه اذ الرجل المؤمن هو مسلم وشرط الاسلام وقوامه الاعتراف باللسان فيدخل الشرط فيه دخول العام في الخاص كما تدخل الحيوانية في الانسان وما اكثر ما نعتقد بأشياء ولكن لا نلتزم بها ولا نعتقد بقلوبنا عليه فنحن نعلم ان الكذب رذيلة ولكننا نكذب لاننا نتعاضد عنه ولا نلتزم به فليس هو بإيمان ولذلك كان ذا مراتب بدليل قوله (اكمل الايمان) واذا كان بمعنى الاستيقان والعلم فليس بذي مراتب لأنه اما يعلم اولاً يعلم فليس هناك علم بمعنى الانكشاف على الواقع... فان أولئك الذين يقلدون آباءهم في رذائل بعد ان يستيقنوا انها رذائل ليسوا بمؤمنين وان كان الواقع قد انكشف امام أعينهم وليس الالتزام وانعقاد القلب على اليقين بالشيء

اليسير فمثلا كان (الحر بن يزيد الرياحي) يعلم بأن الامام الحسين عليه السلام على حق قبل زمان طويل الا انه عندما عقد قلبه والتزم باليقين أتى الحسين ليعرض عليه مناصرته اعترته حالة مثل الأفكل دليلا على صعوبة الايمان وعقد القلب على الالتزام فأولئك الذين يعرفون الايمان بالعلم واليقين بعد الاقرار باللسان للكشف عن اليقين بتعريف قوله عليه السلام «أكمل الايمان» فهو اشعار بتفاوت درجات الايمان فيبطل قول اولئك الذي يفسرونه باليقين والكشف عنه لأنه لا يقبل التفاوت بالشدة والضعف.

المحاضرة السابعة

(١٠ رمضان ١٣٦٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال إمامنا زين العابدين عليه السلام: «وبلِّغْ يا إيماني أكمل الإيمان، واجعل يقيني أفضل اليقين» وقد تقدّم الكلام عن معنى الإيمان الصحيح والآن نتكلم عن اليقين فنقول أنه (العلم الجازم) وقيد بالجازم ليخرج اليقين بمعنى العلم الذي جاء بالآية السابقة ﴿وَجَعَلُوا بِهَا أَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ وهو يكون قبل الإيمان إذ لا يمكن أن يؤمن إليها أن يعتقد بالحق ويعلم به أما اليقين بمعنى العلم الجازم وهو الذي يأتي بعد الإيمان وهو أفضل من الإيمان وأعلى درجة منه لأن فيه انكشاف الستر عن الحقيقة والإيمان هو انعقاد القلب والالتزام به بعد العلم به واليقين الجازم هو أعلى درجات العلم بحيث لا يبقى هناك أي شك أو ريب في ما تيقن فيه لأن الحقائق تنكشف أمام عينيه فيراها واضحة لا غبار عليها وللتوصل إلى اليقين طريقتان:

١ - يتوصل إليه بطريق المقدمات التي توصله إلى النتيجة المنطقية ويسمى بعلم النظر.

٢ - يحصل بالإلهام والتجلي والوحي ويسمى بالحدس.

وأكثر الخواطر القلبية والانقذاحات النفسية بالأفكار والآراء التي توصله إلى اليقين بحيث لا يبقى هناك شك في نفسه والتي لا يعلم مأتاها هي من قبيل الإلهامات وكل أنسان أودع فيه هذه الملكة للتوصل إلى اليقين وفي كل إنسان مثل هذه الانقذاحات في نفسه والتي توقعه على الحقيقة الناصعة ولكن ليس كل أحد يستفيد من هذه الخواطر

لأن هناك من لا يلتفت إليها ولا يعيرها التفات فتذهب وهو لا يدري أنها كنز من المعرفة ثمين.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ إشارة للطريق الثاني من تحصيل اليقين أي اليقين من طريق الإلهام والتجلي فإن النفس إذا استطاعت أن تتجرد عن نفسها وذاتها وتنقطع عن كل شواغل الدنيا خالصة إلى الله سبحانه تتجلي أمامها الحقائق وتعلم بأسرار الكون وتقرأ ما في اللوح المحفوظ وتطلع على الغيب وكل نفس لها هذه القابلية ولكن المادّة والشهوات والدنيا هي التي تحول دون ذلك.

ونحن نعجب عندما نرى من أئمتنا هذا العلم الغزير وهذه الحقائق التي لم تك تعرف في ذلك الوقت والتي لم يستطع تفسيرها أصحاب ذلك الزمن حتى أتى هذا العصر ببريقه العلمي فاستطاع أن يكشف تلك الأسرار العجيبة التي توصلوا إليها ونحن نعجب عندما نرى أن أئمتنا علمهم بالغيب وإخبارهم بالمغيّبات ولكن علمنا أن علمهم هذا ويقينهم من طريق الإلهام والتجلي بانقطاع النفس وتجرّدها ومن يكون علمه هكذا لا يتوقف على أن يكون العصر متأخراً أشواطاً بعيدة عن مثل هذا العلم لأنه علم من غير مدرّس ولا تعليم والعقل الباطن هو مصدر الإلهام فعندما يكون العقل الظاهر قد غفى تبرز كوامن العقل الباطن فتوحي إليه بالعجائب أو نقول أن العقل الباطن هو الذي يتربع على العقل الظاهر فيغنيه كإلهام الشعراء والخطباء واليقين في نفسه غير اختياري ولكن مقدّماته لتحصيل اليقين تكون اختيارية فهو اختياري بالنسبة إلى مقدّماته الاختيارية. والإيمان كذلك اختياري ولكن هو فيه نفسه اختياري والفرق بينهما كالفرق بين من يمشي بنفسه واختياره وبين من يهدم الحائط بمعوله فهو بالحققة لم يهدم الحائط بنفسه ولكنه قد هدم بسبب المعول ولذا يقال أن اليقين من الأفعال الاختيارية التشبيهية.

واليقين له مراتب تختلف قوة وضعفاً مع أن كل أقسامه من اليقين الذي لا شك منه ولا ريب وأقسامه ثلاثة:

١ - علم اليقين: ويكون هذا اليقين به عند النفس بالدليل والآثار.

٢ - عين اليقين: ويكون يقينه من طريق المشاهدة.

٣ - حق اليقين: وهذا أقوى المراتب ويكون بالفناء في الشيء كما لو علمت بوجود النار وتيقنت به يقيناً لا محل للشك فيه ولكن علمك به تارة يكون برؤية الدخان الذي هو من آثاره ودلائله وتارة يكون برؤية النار ومشاهدتها بنفسك وهو أقوى يقيناً في الأولى وتارة يكون بالاحتراق فيها والفناء وهو أقوى الأقسام ومعرفة الله وتيقن النفس بوجوده إن كان من الآثار والدلائل يكون يقينه من القسم الأدنى وهو علم اليقين وإن كان بالفناء فيه يكون من القسم الأعلى وهو حق اليقين وتمتنع هنا المشاهدة ويقين الأمير علي عليه السلام بالله هو من قسم الفناء في ذات الله لذلك قال: «لو كشف لي الغطاء لما ازدادت يقيناً» أي أن يقينه بلغ من الدرجة لو أنه كشف له الغطاء وشاهده - وهو يستحيل - لما ازداد يقيناً به فيشعر أن اليقين بالفناء أعلى من اليقين بالمشاهدة لذلك فإن الإمام زين العابدين طلب من الله أفضل أقسام اليقين فقال: «واجعلني يقيناً أفضل اليقين». وقد قال «واجعل يقيني أفضل اليقين» ولم يقل «وبلغ بي يقيني أفضل اليقين» لخصوصية هناك وإشعار بالفرق بين الإيمان واليقين وليس هذا التبديل مجرد تغيير عبارات كما يظن لأن الفرق بين قوة الإيمان وقوة اليقين واشتدادهما كالفرق بين اشتداد قوة نور المصباح من الضعف إلى القوة وبين إتيانك بمصباح ذي خمسين شمعة ثم تدعه وتجعل محله مصباح ذي مائة شمعة وكل من كلمتي (بلغ وأكمل) في كلمة الإيمان وكلمتي (اجعل وأفضل) تشير إلى هذا الفرق الدقيق فإن قوله بلغ تفيد حتى السحب والإيصال والاستمرار من درجة الضعف إلى درجة القوة وكلمة اجعل تفيد معنى الإبدال من درجة إلى درجة أي

بدلني من يقين أضعف إلى يقين أقوى لأن مراتب اليقين مختلفة بعضها عن بعض وليس اختلافها اختلاف اشتداد قوة بل اختلاف انتقال من مرتبة إلى أخرى تغايرها ولذلك تكون مراتب الإيمان كثيرة لأخذها وكذلك قوله أكمل بأنها تفيد معنى الاستمرار من النقصان أي الكمال في القوة والضعف لأن الإيمان قابل للاشتداد بخلاف اليقين وقوله أفضل تفيد الانتقال من مرتبة فضلى إلى مرتبة أفضل مختلفة عن الأولى في الفضل فمن درجة علم اليقين إلى عين اليقين إلى حق اليقين.

وإذا بلغ اليقين إلى أعلى درجاته عند أمرئ يكون ذنبه هو مجرد إدارة وجهه عن الله عن توجهه إليه.

المحاضرة الثامنة

ودعائه ﷺ

«... واجعل يقيني أفضل اليقين وانه بنيتي إلى أحسن النيات وبعملي إلى أحسن الأعمال اللهم وفر بلطفك نيتي واستصلح بما عندك يقيني...»

موضوع حديثنا اليوم عن النية وهو موضوع طويل عريض من نواحي شتى فهناك ناحية الفقه مثلاً وغيرها. وقد وردت من نبينا وأئمتنا (عليهم الصلاة والسلام) كلمات تدلّ عن مدى قيمة النية في الأعمال وعن مدى تأثير النية في الأفعال فإن باستطاعتها أن تحوّل عمل المرء الحسن إلى سيء وأن تغير العمل غير المحمود والواجب إنزال العقاب عليه إلى عمل قد يثاب عليه إذا كانت النية حسنة والقصد محمود إذن فلا عجب أن يكون المدار في حسن العمل وقيّمته هو حسن القصد أو قيمته وأن يكون قدر الثواب والعقاب إلى مقدار ما في النية من قصد حسن أو قبيح لذلك ليس من الغريب أن يرد من نبينا ﷺ ما يقدّم منه النية على العمل ويجعلها خيراً من الأعمال بعد أن كان المدار في الحسن والقبح هو النية فيقول: «نية المرء خير من عمله» ثم يرد من أئمتنا ما يحصر الأعمال بالنيات ولا يجد للعمل أهمية تذكر وإنما يجعل النية هي الأصل في الأعمال وقوامها فقال أحدهم: (إنما الأعمال بالنيات) فالنية إذا هي قصد الفعل وهي أول قوام يقوم عليه الفعل الحسن لأن قوام هذا الفعل الحقيقي ثلاثة:

١ - علمه عند إقدامه عليه بأنه فعل حسن شريف.

٢ - قصد الغاية الشريفة من وراء عمله هذا.

٣ - أن يكون العمل في الحقيقة وفي نفسه حسناً.

فإذا لم يتحقق الشرط الأول بأنه لم يكن يعلم عند إقدامه أن هذا عمل شريف محمود لم يكن الفعل حسناً حقيقة وإن لم يكن من وراء عمله إلاّ الرياء وإظهار نفسه للناس إظهار الرجل المتدين الخير أو يجعلها وسيلة لغاية دنيوية مقبولة ولنفع مادي دنيوي لم يكن عمله حسناً وإن كان العمل في نفسه غير محمود وغير شريف وإن كان عمله به حسناً وشريفاً وإن كانت نيّته عند إقدامه عليه حسنة خالصة لم يكن العمل مجيداً في نفسه.

والغاية المقصودة لفاعل الفعل تختلف لا اختلاف مدى شرفها وحسنها فمرة يصلي لأن ينجيه من عذاب أو يشبهه أو طمعاً في جنته فنيّته هذه خالصة من أي غرض دنيوي أو رياء أو نفع مادي عاجل وتسمى نيّته نيّة خالصة ومرة يصلي ولا يطمع من وراء صلاته أن يحصل على جنته أو تخليصاً من عذابه فلا يريد بها إلا وجهه ولأنها شكر واجب يجب أن يؤديه لما أسبغ عليه من نعمه وحياته ولما أنعم عليه من فضائل ومحامد فلا يقصد فيها جزاء ولا شكوراً حتى ولو عذّبه خالقه وأذاقه من نار غضبه لم تنزع نيّته ولم يحتج على فعله لأنه لم يقصد من وراء فعله شكراً وجزاء بل لم يقصد إلا وجهه ورضاه وهذه هي أبعد غاية يتطلّبها. قال أمير المؤمنين: «إلهي ما عبدتك طمعاً في جنتك ولا خوفاً من نارك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك» فهو لم يعبدته لخوف أو طمع بل كونه أهلاً لها لأنه أنعم عليه بخلقه وسائر نعمه من دون استحقاق منا على نعمه وهو كافياً لأن يعبدته ويشكره ويسمى هذا النوع من النيّة نيّة حسنة وهي أشرف نيّة يتقدّم بها العبد لسيده وأعلى مرتبة من أختها لأنها خالصة من كل طمع دنيوي وأخروي إذن فعندنا خلوص نيّة وحسن نيّة والاخيرة مما لا يقدر عليها إلاّ الأنبياء المقربون وعباده الصالحون ذلك لأن تصحيح النيّة وخلوصها من أي غرض نفسي ونفع مادي وإن إبعاد غرائز النفس وشهواتها وكبتها ومنها حب المدح وحب إرضاء الناس وحب إظهارها بهذا المظهر من

أشقى الأعمال وأجهده على النفس مما لا يقدر عليها إلا من راض نفسه رياضة متعبد وتتأتى هذه الفضيلة كباقي الفضائل بالتكرار والتعويد متى تصبح عنده ملكة وعادة ترسخ في نفسه لا يتمكن أن يخالفها ويسير بما لا يوافق رغبتها ولكنها ملكة شاقة وعادة أقرب إلى الاستحالة لنا منها إلى غيرها لأن انقطاع المرء مع كل علائقه بالدنيا ليس بالشيء الهين اليسير لهذا ورد من النبي قوله: «نية المرء خير من عمله» لما لها من جهد ومشاق وتضحية عسيرة ولهذا قدم الإمام ذكر النية على العمل في قوله: «وانته بنيتي إلى أحسن النيات وبعملي إلى أحسن الأعمال» وقوله (انتهي) يستشعر منها أن للنية ابتداءً وانتهاءً وأن الانتهاء إلى غاية حسننها فيها صعوبة ومشقة شأنه شأن كل انتهاء إلى الغاية القصوى وأنها لا تتأتى بقلقة لسان فيقول «أنا حسن النية في عملي كذا». ثم قال ﷺ: «اللهم وفر بطفك نبتي، وصحح بما عندك يقيني،...» وكلمة وفر من التوفير وهي الزيادة والنية هذه تأكيد لما قبله. والجار والمجرور من قوله (بما عندك) متعلق بيقين وفعلناه «وصحح بما عندك يقيني» من معاد وقدرة وجبروت وجزاء وثواب وغيرها. وإذا كانت النية واطئة بأن كانت خالصة لكنها ليس الحسنة تقبل ولم يعاقب عليها - كما يُظن - ولكن قبولها شيء وأن تكون للعبد عند ربه منزلة عالية كريمة شيء آخر.

المحاضرة التاسعة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال ﷺ «... وَاكْفِنِي مَا يَشْغَلُنِي الْاهْتِمَامُ بِهِ، وَاسْتَعْمِلْنِي بِمَا تَسْأَلُنِي غَدًا عَنْهُ وَاسْتَفْرِغْ أَيَّامِي فِيَمَا خَلَقْتَنِي لَهُ».

أقول: من مفسدات الفتن ومساوئها التي تحط من قيمتها وتقلل من أهميتها الحرص على الدنيا ولم يكن هناك منشأ لهذه الظاهرة التي تمثلت بجل البشر تقريباً سوى جهلهم بقضاء الله وتدبيره فإن الإنسان محتاج إلى الله تعالى في كل أمور حياته صغيرة كانت أو كبيرة مفتقر إلى مشيئته ومعونته في كل ما يشاء ويريد فهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا إذا أراد الله ذلك ولا يستطيع هو أن يعمل شيئاً وينجز أمراً إذا قضى الله أمراً بخلاف إ شاءته وإرادته البشرية وكل ما أعطاه من حرية يستطيع أن يفعل شيئاً فإنما ذلك بمشيئته تعالى.

فكل شيء إذن هو خارج عن قدرته وإرادته فمثلاً هذه (اللقمة) التي يأكلها لم تصل إلى هذا الدور التي أصبحت فيه صالحة للأكل إلا بعد أن بذل من أجلها عشرات الناس من جهودهم وتضحياتهم حتى أصبحت رغيفاً من الخبز يأخذه سريعاً ويأكله سريعاً. فهو بهذه اللقمة - التي هي أصغر أمور حياته - محتاج إلى هذا العدد الضخم من المجهود ومفتقر إلى كل هؤلاء الناس الكثيرين لأن لهذه اللقمة الصغيرة مقدمات وأسباب كل واحد من البشر قد استقل بسبب أو أكثر في هذه الأسباب وكل واحد من أولئك مفتقر إلى ظروف معينة حتى يتسنى له أن ينجز عمله ولن تنهياً تلك الظروف إلا بمعونة الله وتدبيره. ثم نحن لو رجعنا إلى مبدأ هذه اللقمة وهي بذرة مغروسة في

الأرض فنجد أن أسباباً وظروفاً ما شاء الله يجب أن تنهياً حتى تخرج هذه البذرة إلى حياتها الأرضية فالبذرة مثلاً تحتاج في أول حياتها إلى المطر والشمس واعتدال الهواء وصفاء الجو وغيرها من الظواهر الطبيعية الخارجة عن طاقة كل إنسان والتي لا تتأتى إلا بقضاء الله وتديره حتى تلك الأسباب التي نقوم بها بدور الوسيط لنتج هذا الرغيف والتي نتوهم أنها في استطاعتنا ومقدورنا لا نتمكن أن نقوم بدورها من غير معونة من الله فلو لم يعطنا الله القوة عليها والصحة على مباشرتها لما تمكنا من القيام بواجبها إذن فكل شيء راجع إلى الله وكل أمر هو من تدبير الله وتقديره ولسنا نحن إلا سبب يستعملنا الله لنمثل الدور البسيط فإذا انتفى هذا السبب أو فقدت مقدمة من تلك المقدمات فإن الأمر ينهار بكّله من ذلك إذا لم يرد الله ذلك فإذا كان الله هو المدبر الحكيم وهو المهيأ للغرض والظروف وأن الأعمال التي نقوم بها هي خارجة عن علاقتنا ولا نستطيع أن نزيد فيه وأن ننقص منها فمن السخف أن نحصر عليها ونقضي حياة بأكملها في سبيل أمور هي لا بد تنتهي إلينا إذا قدر الله وأراد ومن السخف أن نضحى من أوقاتنا وجهودنا القسم الأوفر لشيء لم نخلق له ولم يكن من أيدينا وفي سبيل أمور تكفل بها الله ولا رادّ لقضائه لم نرد من كلامنا هذا أن نجحد رأي أولئك الذين يجذون القعود في السعي إلى تحصيل أرزاقهم معتقدين أن الله ما دام قد كفل لعباده الرزق وقسمه عليهم فلا بد أن يأتيهم ولكنهم غفلوا عن أن لكل أمرئ ما سعى ولكننا أردنا أن نقول أن الحرص الشديد والانهاك على الدنيا والتهالك على شيء مقدر لا يفيدنا التهلك عليه إلا التعب والخيبة وقضاء أوقاتنا بأجمعها لتحصيل شيء يأتينا بأقل جهد وانزرت تضحية لم نجني منه إلا الخسارة العظمى والبلى الكبرى في إغفالنا لتربية نفوسنا وإهمالنا الجانب الإنساني المهم في الأمر الذي خلقنا لأجل الحرص عليه وعلى تنشئته التنشئة المثلى فنحن لم نخلق لنشرب ونأكل ونقضي جل حياتنا الثمينة متنقلين بين الأكل والشرب ولكن

خلقنا لتكون إنسانيين مثاليين ولا يكون ذلك إلا بترقية الجانب الإنساني فينا وإنهاء النفس العالقة في نفوسنا وتربية الفضائل والأخلاق الحميدة الصالحة لتصبح لنا عادات وسجايا لأننا خلقنا لتكون كاملين في نفوسنا قريبين من الكمال الذاتي فهذا هو الأمر الذي أنيط بنا وأوكل إليها الاهتمام به بعد أن كفانا الله مؤونة السعي والحرص على الرزق إلا بقدر معلوم فذلك قال الإمام (عليه السلام) «واكفني ما يشغلني من الاهتمام به» أي اكفني الأمور التي تشغلني عن واجباتي وعبادتي التي خلقتني لها أما تلك الأمور التي لم نخلق لها ولم تستطع أن تربي في نفوسنا العاقلة الكمال واكفني أمرها من الاهتمام بها ولا تشغل وقتي بأجمعه في سبيل تلك التافهات التي لا تستطيع أن تربي الجانب الإنساني في النفس.

ثم قال: «واستعملني بما تسألني غداً عنه» أي اجعلني عاملاً في الأمور التي أسأل عنها في الآخرة ولا تجعلني عاملاً لأمر أنت بعيد عن سؤالي أيها عنها. وليست الصلاة والصوم وغيرها من الأمور الدينية هي التي يسأل الله عبيده عنها بل أن المهم أيضاً إنها واجبات كفائية يسأل عنها الله إذا قرط بها ولم يقم بواجبها وكذلك الأعمال التي يراد بها وجه الله ومرضاته هي أيضاً عبادات مطلوبة وأوامر يجب القيام بها.

ثم قال: «واستفرغ أيامي فيما خلقتني له» أي املاً أيامي ولا تجعل لي وقتاً دون أن تملأه لما خلقتني له من العبادة لك والامتثال لأوامرك واستفرغها من أمور لم تطلبها مني ولم أفر منها برضاك.

ثم قال: والمطلوب من الإنسان في حياته أن يربي نفسه الإنسانية وينمي فيها الفضائل والمحسن ويرتقي بإنسانيته إلى مدارج الكمال ولا يكون ذلك إلا بمحاسبة نفسه محاسبة دقيقة بكل ما يصدر منها والتأمل بكل عمل يقدم عليه ليرى هو أنه أصاب الفضيلة بعمله وهل هو فرط منه ليتجنب بعد ذلك والفضيلة كما قلنا هو أن يعمل بقدر

لئلا يتورّط في رذيلتي الإفراط والتفريط لأن الفضيلة هل نقطة الوسط والاعتدال بين شيئين خارجين عن مصداق الفضيلة. بين هذا الشيء المعلوم وتحقيق نقطة الوسط من أصعب الأمور وأشقّها على النفس تتطلّب جهوداً بخلاف الرذيلة فإن فعلها لا يحتاج إلى أي جهد أو نصب لأن محيطها واسع فهو يستطيع أن يصيبها من دون أي دقة أو معرفة. ولتقريب المعنى نقول أن الفضيلة من سبيل إجابة الهدف لكن إن إصابة الهدف الدقيق يحتاج إلى معرفة ودقّة نظر وفطنة وتوجّه للنفس كذلك إصابة الفضيلة في عمله لذلك قلنا من يحمل الحسن يحتاج إلى معرفة في كونه شريفاً ونيته والاصابة للهدف الحقيقي الشريف يعكس الرذائل فإنها من قبيل خطأ للنفس فليس هناك هدف ليدقق النظر فيه لإصابته ولكن كمن يرمي حجراً على رسله من دون أيها جهد أو بذل لتضحية فمحاسبة النفس محاسبة دقيقة ومؤاخذتها على كل صغيرة وكبيرة تصدر منها هو الطريق الصحيح للسلوك بها إلى نقطة الهدف والوقوف بها على الفضيلة مثلاً إلى المعرفة على أحد بفضيلة الرزق ووفرة المال فقال: «واغنني وأوسع علي من رزقك ولا تبتلني بالبطر» فذكر من ملازمات النفس التي تنشأ على الإهمال والغفلة على إهلاك النفس وهو البطر بالنعمة والعطف هنا ليس عطف تفسير لأن الغنى المقصود هنا ليس وفرة المال بل غنى النفس والقناعة التي هي معنى الغنى الحقيقي والمصداق الصحيح للغنى لأن معناه هو عدم الحاجة إلى الغير من جنسه لأنه غني بنفسه عن مساعدة الغير وقد يكون في وفرة المال غنى وقد يكون فقراً فيما إذا كان طماعاً جشعاً إلى آخر حدّهما فهو يكون دائماً محتاجاً إلى غيره فيقر إليهم لأن طمعه في كسب المال وجشعه في الاستزادة منه تحول دون غنى النفس وقناعتها بما قسم لها الله فهو قد طلب المال من الغنى ولم يطلبها وحدها وقدم النفس على المال لأهميته وليس الرزق الذي حسبه الإمام من بارئه محصوراً بالمال ووفرته بل كل الصفات التي بملئها غنى النفس غير محتاج إلى أحد إلاّ إليه تعالى فالجاء

والقناعة والحب وكل نعمة رزق منه.

ثم قال: «وأعزني ولا تبتلني بالكبر» فهو قد طلب عزّة النفس والأنفة من الرذائل والصغائر وطلب أيضاً إبعاد الكبر عنه التي تنشأ عند البعض من الإفراط في هذه الفضيلة نتيجة للغفلة وإهمال النفس من المحاسبة والتدقيق فهو يتكبر ويشمخ ويصعر خده ظناً منه أنه العزة وشتان ما بين الفضيلة والرذيلة.

المحاضرة العاشرة

حديثنا أمس عن الكبر والعجب ونظراً لأهميتهما وأثرهما السيئ على حياتنا ندرج إليه لنشبعه درساً عميقاً. وهما من الآفات العظيمة وخصوصاً لمن ابتلي بتحصيل العلم ولأهل العبادة والزهادة فإنها باستطاعتها أن تمحي كل ثواب جزاء ينالها المرء من فضيلتي العلم والتعبد لأن المتكبر يجد نفسه أنها ذات قيمة حقيقية وليست قيمتها في الحقيقة إلا من فيض الله تعالى ونعمه وتوفيقه وليس للإنسان إلا أن يطيع ويمثل وإطاعته أيضاً هي من فيض الله تعالى وهباته فكل موجود حقيقته مخلوقة من حقيقة الفقر والحاجة وليس له أي استقلال خارجي والمتكبر لا يتكبر إلا بشعوره أنه مستقل بفضائله وقيمه مع أنه في الحقيقة إنما يمثل قضاء الله وتدبيره. مثلاً هذا الشعاع الذي ينتشر على جوانب المصباح فليس له أي وجود استقلالي وليس له أي كيان خاص به وإنما وجوده وكيانه بوجود المصباح وكيانه فلا معنى لاستطالة الشعاع بنفسه وشعوره بأنه ذو كيان مستقل بعد أن كان وجوده فيضاً من وجود خالقه وهو المصباح. وقد يستطيل البعض على الآخر ويتكبر لما ملك من صفة توهمه لأن يستطيل ويتكبر وقد يكون ذلك المتكبر المدلّ بقيمته أنزل منزلة وأخفض درجة من ذلك لصفة مستترّة هي أعلى من كل قيمة وصفة ذلك المدلّ فهل يجوز له وهو لا يعلم من أمر أخيه إلا الظاهر القليل أن يدل عليه فيتكبر. والسبب الوحيد لهذا الشعور الذي يداخل المرء فيخذه عن نفسه وحقيقته هو شعوره بالضعف وإحساسه العميق بنقصه فهو يريد أن يكمل نقصه لأنه لا يستطيع أن يواجه نفسه ويصارعها بنقصه المؤلم فيأخذ بمغالطة نفسه ومخادعتها عن أن تشعر بهذا الذي يجلب إليها الألم الأليم فيتكبر ويستعلي ظناً منه أنه

يستطيع أن يخفي شعوره العميق بنقصه بعد أن عجز عن إكمال نقصه من طريق آخر مشروع.

ومظاهر التكبر كثيرة فهي تتجلى بكلامه وجلوسه وممشاه وكل ما تصدر منه من أمور وظواهر وحركات، قال الله تعالى ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ﴾ وقد تأتي المرء هذه الرذيلة من دون أن يحسب لها حساب من دون قصد نتيجة لهذا التشابه الدفين والاختلاف التعيس بين العزة والتكبر فهو يريد أن يتحلى بفضيلة العزة فيقع في الإفراط بها فتقلب الفضيلة إلى رذيلة الكبر والتكبر فالتكبر هو إفراط في فضيلة العزة التي هي صفة الله ورسوله والمؤمنين حيث قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالتواضع مع العزة هو عين الفضيلة وهي نقطة الاعتدال وتحيطها رذيلتان من الإفراط والتفريط فالإفراط في التواضع والعزة هي الكبر والتفريط في التواضع مع العزة هو التواضع بدون العزة وتكون بالتدلي إلى الناس والتملق ومجاملتهم مجاملة تسف به إلى التذلل لهم بالعزة بدون التواضع هو تكبر والتواضع بدون عزة هو التملق. وللفرق الدقيق العميق بين العزة والتكبر تجد الناس في اختلاف كبير وأمام مشكلة كبيرة للتمييز بين أعمالهم وأفعالهم هل هي مصداق لفضيلة العزة أم لرذيلة الكبر لذلك تتطلب يقين الهدف الحقيقي إلى معرفة تامة وجهد واسع. وهناك صفة تدل على مدى اختلاف الناس في تفسير مصاديقها والتمييز بينها فيقال: «أن الحسن كان يلبس اللباس الحسن الفاخر ويركب المركبات الفارهة فسأله أحد شيعته قائلاً له ما معناه أن ليس التكبر من شيمة أهل البيت، فردّ عليه قائلاً إنها العزة لا التكبر».

ومحاسبة النفس على هذه الأمور من أشق الأعمال وأعسرها لأن النفس لا تصبر على هذه المحاسبة ولا تتمكن أن تواجه المصارحة بسيئاتها فتأخذ بالتهرب من هذه المسؤولية والابتعاد عن هذه المصارحة وليست هذه الظاهرة إنها ظاهرة التكبر فإن

الخضوع للمحاسبة والمصارحة بتأنها من شأنها أن تجرح كبرياءها، نعم فإننا إذا جلسنا مع نفوسنا جلسة التدقيق والمحاسبة فإن النفس تفزع الى إنكار هذه الرذيلة وتنفيها عنها وفقط إذا رأينا وتصرفنا نعلم أن دفاعها كان واهياً باطلاً.

ومن أهم مصاديق هذا التكبر التي نجده في أكثر الناس أنا إذا رأينا صديقاً - مثلاً - تقدم على صديقه في مجلس أو كلام أو كل ما في شأنه أن يشعر الطرف المقابل بأن عزته قد شذخت وكبرياءه قد أهينت وشخصيته قد جرحت إلى أمثال تلك المظاهر التافهة التي تشعرنا بمثل هذا الشعور السخيف الذي ليس لها أية قيمة في قانون الأخلاق ولا يقيم لها الرجل الأخلاقي الحق أية أهمية وميزة.

نعم إن تلك المظاهر وأن تلك الظروف هي التي توقفنا على حقيقة أنفسنا ومبلغ ما تأصلت فيها جذور هذه الرذيلة وأن تلك لخليقة بأن تفيدنا وتنفعنا للتخلص منها إن نحن عزمنا على قلع جذورها واستئصالها من نفوسنا. وأحسن طريق يتبع لمحو هذه الرذائل من نفسه هو أن يعمل بضدها ويسير بما يخالف سيرتها ليتسنى له أن يكسر شوكتها ويروض من جموحها فإذا كان متكبراً فهو يتواضع حتى درجة التملق وإذا كان بخيلاً فهو يتكرم حتى درجة الإسفاف فيستطيع بمرور الزمن أن يهون من شأنها ويقلل من خطرها وإني أذكر كلمة لأحد الأئمة عليه السلام قد استطاعت أن تصوّر معنى الفضيلة وتجمع بين التواضع والعزة، قال ما معناه: «إذا دخلت مجلس فاجلساً في مكان يراه الناس فيك ودون ما تراه في نفسك» ذلك أن من شأن الناس وطبيعتهم أن يرى غيره أمثل منه منزلة وأدنى مكانة وقيمة لأنه لا يستطيع أن يرى في غيره إلا عيبتهم ونقائصهم ولا يتمكن أن يرى في نفسه غير محاسنها وفضائلها لأن حب الذات المفرط هو الذي يجعله يتغاضى ويتعامى عن عيوبه ورذائله فالإمام أراد إصلاح هذه الحالة التي كادت تعم جميع البشر فهو يوصيه بأن يجلس فوق ما يراه الناس فيه لأن الغير لا يراه إلا أقل

منه فيرفع من شأنه فيه فيكون العزّ والرفعة بين الناس أمر محبوب ولكن لا مطلقاً بل بشرط أن لا يراها في نفسه لئلاً تقوده إلى رذيلة العجب ثم أوصاه في نفس الوقت أن يجلس دون ما يراه في نفسه من قيم وفضائل لأنه يرى نفسه أرفع من غيره درجة فيقلل من منزلته ويدين عنه نفسه فلا يتكبر فيضع نفسه فوق منزلتها ولا يتدلل إلى الناس لأن الله قد أغناه عنهم وهكذا جمع فضيلتين العزّة والتواضع ونحن نستطيع أن نسير على هذا القانون الأخلاقي إن نحن حاسبنا أنفسنا حساب المدقق البصير وبذلنا من جهودنا ما نستطيع أن نتصرّف في عاداتنا لنقلع منها الغث ونربي فيها السمين.

ومما بين العزّة والكبر من المشقّة في التمييز ولما بينها من الفرق الشاسع لأنه الفرق بين الفضيلة والرذيلة لذلك فإن الإمام طلب العزّة من الله وطلب أن يُبعد عن نفسه الكبر ويوقفه للتمييز بين المصداقين وأعزني ولا تبتلني بالكبر وكذلك العجب سيئة كبيرة وذنب عظيم لأن المعجب بنفسه يرى أنه قد أتى بعمل يستحق كل هذا الإعجاب مع أنه في الحقيقة لم يأت به مستقلاً ومن نفسه بل بمعونة من الله وإرادته ومعنى العجب هو استقلال وخروج سلطان الله وقدرته وهو شرك خفي كما ترى لذلك طلب الإمام العبادة بشرط أن لا يداخلها العجب لئلا تذهب بحسناتها وفضيلتها فقال: «وعبدني ولا تفسد عبادتي بالعجب».

والفرق بين العجب والتكبر واضح ذلك أن العجب يتعلّق بنفسه فهو يعجب بصفات نفسه فقط وقد يكون متواضعاً في سيرته مع الناس أما التكبر فيتعلّق بالناس وإن لم ير في نفسه ما يعجبه فهو يتكبر لأنه يريد التفوّق وإكمال نقصه. ثم قال ﷺ: «واجر للناس على يدي الخير ولا تمحقه بالمن» فجريان الخير على يد المرء وجعله الواسطة لهبات الله من أعظم النعم وأكبر الهبات لأن في ذلك نفع الناس وفائدتهم وفيه زيادة لجاهه وقدره ولكن نفوسنا الضعيفة سرعان ما تغتر بها وهبها الله وتعجب بها أجرى الله على

يديها فتغلب النعمة إلى نقمة تعود عليه. فهو لم يعلم أن الله هو الذي أجرى الخير على يديه وهو الواهب الحقيقي وأنه لم يفعل شيئاً سوى أن جعل واسطة بين الله والناس وما الناس إلا وسائط لتبليغ خيرات الله ونعمائه.

مثلاً أن ذلك المعلم الذي يعلم غيره ليس له أية فضيلة لهذا التعليم إذ أن الفضل الحقيقي يرجع إلى واضع هذا العلم ومن أسسه أما هو فليس إلا واسطة لنقل العلم من واضعه إلى تلميذه فليس له أن يمنّ على تلميذه لأن الهبة الحقيقية التي تلقاها تلقاها ممن وضع العلم واخترعه.

ثم قال ﷺ: «وهب لي معالي الأخلاق واعصمني من الفخر» من طلب معالي الأخلاق لأنها غاية الفضيلة بشرط أن لا يفسدها ويمحقها بالفخر فالفخر صنو العجب من شأنه أن يفسد كل أخلاقه ويذهب بكل حسناته وإنما الفخر وأقبحه الفخر بالنسب فقد يكون لمن يفخر بعمل له وبفعل حصله بجهد ومجهوده عذره ولكن ما عذر ذلك الذي يفخر بشيء لم يشارك فيه من جهوده شيئاً فهو كمن يفخر بنفسه لفضيلة في شخص لا يمت إليه بسبب ومنشأ كل هذه الرذائل من كبر وعجب ومنّ وفخر هو غرور النفس وجهلها بحقائق الأمور وعدم علمها بأن الله المان الأول وهو صاحب كل هذه الفضائل التي أجراها على عباده والتي يتحلّى بها البشر.

المحاضرة الحادية عشرة

قال الامام : «ولاترفعني في الناس درجة الا حططتني في نفسي مثلها»

ظاهر العبارة تعطي معنى الشرط اي اذا رفعتني فحطتني في نفسي ونستطيع ان نصحح الاستثناء في تأويل الجملة وهو استثناء متصل اي لا ترفعني في كل حال من الاحوال الا في حالة كذا فهو يطلب ان لا يرفعه في الناس ولا يحدث له عزا بينهم حتى يحط في نفسه ويحدث له ذلة بقدر ما رفعه عند الناس وبقدر ما أعزه بينهم فنشعر من هذه ان الرفع بين الناس أمر محبوب ولكن لا مطلقا بل ان يشعر بالضعفة في نفسه لئلا يعجب ويغتر.

وفي الحقيقة ان الرجل كلما ازداد كماله وتكثر معارفه يكون شعوره بالنقص والذلة اعمق فهو كلما زاد محصوله وكملت صفاته ينكشف امامه مدى تقصيره وتأخره ومدى البعد الشاسع لغايته وهدفه الذي يتوخاه لذلك نرى ان المحصلين الذين هم لم يزالوا بعد في اول درجة العلم اكثر عجبا واكثر غرورا من اولئك الذين قطعوا شوطا ليس بالقليل من التحصيل وهلم جرا.

والعبارة التي تلي هذه الجملة تعطي معنى الاول وترمي الى نفس المرمى ثم قال:
 «وَمَتَّعْنِي بِهُدًى صَالِحٍ لَا أُسْتَبَدَّلُ بِهِ، وَطَرِيقَةٍ حَقٍّ لَا أَرْيَغُ عَنْهَا، وَنِيَّةٍ رُشِدٍ لَا أَشْكُ فِيهَا»
 ذكر الامام في هذه الجمل شرائط العمل الصالح وقوام الفضيلة الحققة الثلاث وقد قلنا سابقا ان الفضيلة لا تتم الا بثلاثة شروط : بمعرفة بحسن العمل ونية صالحة رشيدة وحسن العمل في نفسه وذاته والامام طلب من الله تعالى كل هذه الشروط فطلب منه الهدى الصالح الذي يدل على الحسن والقبیح من الاعمال وطلب منه النية الرشيدة التي

بها يصلح العمل وبها يكون مقياس صلاحه ومساوئه وطلب منه الطريقة الحققة وهو الشرط الثالث للفضيلة وهو ان يكون العمل نيته حسن وكلامه هذا مبني على قواعد علمية اخلاقية ولم يهتد الى هذه القواعد قبل ولم يذكرها قبله سوى أرسطوطاليس ومنذ ذلك الحين الى الآن لم يزد عليه احد ولا أنقص منه أمراً.

ثم ان الامام طلب ان يتمتع بتلك الشروط لان تكون اعماله حسنة وفضائله كاملة ولا شك ان العمل الصالح هو متعة الرجل الاخلاقي ولذة المرء الذي يجد للمعنويات قيمة وهي متعة تصغر من قيمة كل متعة في عين الاخلاقي الكاملة ثم ان الامام لم يطلب تلك النعم الا وطلب معها الدوام والاستمرار وعدم الزيف عنها ثم طلب النية وطلب معها الاطمئنان اليها بقوله : اللهم ارزقني علم العلماء وعقيدة الجهلاء... لأن عقيدة الجهلاء دائماً تكون مصحوبة بالاطمئنان والتسليم بها والاطمئنان الصحيح هو اطمئنان الامير في يقينه بعقائده وبالحقائق حيث قال : لو كشف الغطاء لما ازدادت يقينا. وحتى بالأمور الواقعة التي نؤمن بها قد لا نطمئن اليها ولا نعتقد فيها حق الاعتقاد لان مغالطات النفس هي التي تحول بيننا وبين الاطمئنان فقال أمير المؤمنين في الموت الواقع الذي يراه كل فرد منه ولا يستطيع ان ينكره كل احد عندما تسأله عنه ولكنك تجده يقول فيقرر الحقيقة بقوله : ما رأيت يقينا أشبه بالشك كالموت.

الإنسان مركّب من نقص بعدي عن الكمال - بما لهذه اللفظة من معنى - لذلك تجده فقيراً إلى الصفات الكمالية محتاجاً إلى من هو أكمل منه وأقرب إليه والكمال لله وحده تفرد به واختص نفسه دون سائر خلقه فهو الكامل في جميع صفاته الثبوتية الغير المحتاج إلى الغير ولا فقيراً إلى أحد فهو فردٌ في هذه الصفة الكمالية ومن الممتنع عقلاً أن يكون خلقه كاملاً وإلاّ لما احتاجوا إلى الخالق ولما افتقروا في الوجود إلى السبب في خلقهم إياهم ولكان الخلق والخالق في المنزلة سواء ولما كان هناك خلق وخالق بمعنى

السبب والمسبب وكانوا معاً سببين أو وجودين غير محتاجين إلى علة للوجود وهذا مما لا يعقل في الخلق كيف وهم فيض من غيره ومتسبباً بسبب ولما انفرد سبحانه بهذه الميزة في إيجاد الخلق والمفروض أنهم في الكمال سواء وكان كاملاً بالمعنى المفهوم منه لكان كاملاً في القدرة وهي صفة من صفاته التي يجوز فيها الكمال ولو كان قادراً مستكماً هذه الصفة لأصبحت له مشيئة خاصة وحياة أخرى ولما تحكم غيره في مشيئته وقدرته ولا استطاع أن يصوغ حياته بحسب ما يهوى ويريد لأنه كامل في المشيئة ولا استطاع أن يدفع كثيراً من هذه الأمور التي نجدها بالضرورة والواقع غير مستطيع أن يدفعها وغير قادر على التحكم فيها ومنها الموت والحياة فلو كان قادراً لما مات إلا بمشيئته ولما جيء إلا في الوقت الذي يريده هو لا خالقه وهذا الشيء لا يعقله أحد وقد سارت الحياة عن خلاف منهاجه بل لم يحتج إلى برهان ودليل ولكن هناك للكمال معنى آخر هو الكمال النسبي لأنه بعد أن نفينا الكمال بالمعنى الخاص المفهوم من هذه العبارة لأنه لا يتصف به إلا الله سبحانه وما وقع إلا الكمال في جميع صفاته الثبوتية كان لا بد لنا أن نضيف مفهوماً أو نعمة بحيث يشمل هذا الكمال الذي يتمكن أن يبلغه البشر ويقدر عليه وجميع البشر لهم استعداد وقابلية إلى بلوغ هذا الكمال البشري وهو نهاية ما يستطيع البشر أن يبلغوا من الكمال وإن كان نقصاً كبيراً بالنسبة إلى الكمال الإلهي فلإنسان قدرة وعلم وغيرها من الصفات ولكنها قدرة محدودة وعلم محدود لا يستطيع مهما كان أن يتعدى الحد الذي أمر أن لا يتعداه لذلك لا تستغرب أن في كلمات الأئمة ما يشعر بالنقص والصفة ولا نعجب أن رأيناهم يهولون من خوفهم ويعظمون من ذنوبهم ويتقنون الليالي بالبكاء والتضرع نعم ليس من العجيب المستغرب ذلك عندما يحسون إحساساً عميقاً ينقص كمالهم الذريع إذا هم قاسوه بالكمال الإلهي الأكمل وليس بالغريب أن يشعروا بالصفة عندما يشعرون أنهم لا شيء أمام عظمة الله وكماله الأوحدهم يريدون أن ينالوا مهمتهم

شيئاً من ذلك الكمال الفريد المختص به سبحانه وحده أما كمالهم بالنسبة إلى أنهم بشر فهم المثال الأوحى للكمال البشري فقد بلغوا بعصمتهم وتنزيههم وطهارتهم مبلغاً من الكمال لا بعده كمال ولكنه الكمال النسبي الذي تتمكّن عليه الطبيعة البشرية وتحمله قدرتها المحدودة وكذلك نحن غير المعصومين فلنا القدرة والطاقة على بلوغ كمالنا المحدود الذي نستطيع أن نبلغ ولكن الطريق الذي يؤدي إليه صعب شائك لا يحتمله كل أحد ولا يستطيع أن يبلغه إلا بالمران والرياضة النفسية الشاقّة التي تستطيع أن تطهر نفسها عن تلك الأدران التي عقلت بالضمير الإنساني فصطفوا بذلك إلى صف الأتقياء الصالحين والأولياء البررة الذين استطاعوا بإرادتهم ومقدرتهم وجوهم العظيم إلى أن يبلغوا الكمال البشري الجميل. والضمير الإنساني هو كل ما فيه الآن وهو الرسول الذي أرسله الله للإنسان لينور له الطريق ويبعده عن طرق الضلال إذ كما عبّر عنه أئمتنا هو الرسول الباطن الذي وكلّ إليه هداية الإنسان وليكون الرقيب الأول عليه والشاهد على كل أفعاله وأقواله فالرياضة النفسية والمران الطويل والابتعاد عن المعاصي كل هذه كفيلة بأن تقرّب من الكمال البشري المنشود لأنها كفيلة بأن تنزّه الخير وترفع عنه المساوئ التي أسدلتها عليه طبائع البشر البهيمية فيرى الحقائق كما هي وليدرك قيم الأشياء من دون أن يشوّها مشوّه والحكماء قد اختلفوا في الطبيعة البشرية وما فطرت عليها يشوّها وهذا بحث عميق وعويص نرجوه إلى وقت آخر قريب إن شاء الله تعالى.

ولكن المتتبّع منا تاريخ البشر منذ الأزل إلى اليوم ويستعرض حوادثه ووقائعه لا يخفى عليه بفطرته أن عامل الشر هو الغالب على الإنسان وهو الذي يوحى إليه كل هذه المآسي التي تكرّرت ولا تزال تتكن ما بين الإنسان وما هذه الشرور التي تشمئز منها الإنسانية والتي ملّئ بها تاريخها الدامي إلاّ دليل قوي وحجة ناصعة على ما لهذا العامل من قوة وسطوة على الطبيعة البشرية ومن نفوذ وتحكم فيها لذلك نجد أن دعوات

الصالحين ونضالهم تجد المشقة والصعوبة الكبيرتين في الظفر من البشر بأذن صاغية وإقبالٍ عليها لذلك تجدهم يقضون السنوات الطوال ويبدلون التضحيات الكبار حتى تجد لهذه الدعوة سبيلاً إلى قلوب البعض وطريقاً غير ممهد إلى آذانهم وكثيراً ما تكون الخيبة نصيبهم وعلى نقيض هؤلاء تجد أولئك الذي عرفوا الطبيعة البشرية ودرسوا كنهها ووضعوا أيديهم عن مواطن الضعف فيها ولما كانوا هم أصحاب مطامع ومنافع لم يجدوا أسهل طريق يتمكّنون بسلوكه أن يوصلهم إلى غاياتهم العميقة وأهدافهم الشخصية غير استغلال هذا الضعف البشري وإنهاء هذا العامل الخطير ليكتبوا به في نفوس الهام ضميرهم وليسدلوا على أعينهم غشاوة تمنعهم من أن يروا حقيقة أغراضهم وقيمة دعواتهم فهم يأتون إلى الطبيعة البشرية في هذا الضعف فيتملقونه ويستغلونه فإذا هم يحنون الأنصار والمحبذين والمشجعين فتجد مثلاً - إذا اتبعت الحكومات الإسلامية التي نشأت في البلاد الإسلامية - أن الحكومات الصالحة الحقّة التي تهدف إلى الخير والإصلاح والمساواة غير مستقرة الأوضاع كثيرة الفتن والخلافات وتجد رعاياهم أسرع إلى الخلاف وقلب ظهر المجن لهم من أعدائهم حتى يمكن تلك الحكومات التي ليس لها هدف سوى إشباع شهواتها وإرضاء نفوس ملوكها فنجد أنها مستقرة هادئة قليلة الفتن والخلاف لأنها ليس لها غرض إلاّ منافعها الشخصية ولذلك فهي لا تتأخر من أي فعل إذا كان يوصلها إلى غرضها وليس لها عقبة من إرضاء الطبيعة البشرية الدنسة وإرضاء عوامل الشر والريزية إذا كانت ترى أنها لا تفوز بأغراضها سوى إرضاء العام من الناس والسبيل الوحيد إلى إرضائهم هي إرضاء طبيعتهم التي جبلت على الشر والريزية أو إرضاء ذلك العامل القوي الذي يسيطر على الطبيعة فهذه حكومة أمير المؤمنين لم تتمكّن أن تستقر إلاّ بضع سنوات حشدت فيها الاختلافات والفتن وكثرت فيها المشاغبات من الخاص والعام وما ذلك إلاّ أن السياسة التي ساد عليها الأمير لم

تكن لتوافق الطبيعة البشرية وما جبلت عليه وفطرت منذ الأزل والحكومة الأموية استطاعت أن تسير سيراً طويلاً وأن تعيش مدة تجاوزت المائة سنة مدة هادئة قليلة الفتن والاختلاف وما ذلك إلا أن السياسة التي سارت عليها هي منتزعة من نفس الطبيعة البشرية وتوقع على الوتر التي توقع عليه هذه الطبيعة البشرية لذلك لن تجد من معاصريهم أي منكر يذكر لهذه السياسة ما دام المال وهو الأفيون لهذه الطبيعة يغدق عليهم بكرم وهكذا نجحت سياسة المال والخداع إرضاء الشهوات ولم تنجح سياسة الحق والمساواة وهذا أكبر دليل على ما لعامل الشر من نفوذ وسيطرة على الطبيعة.

ولكن يا ترى ما هي الفضيلة، اختلفوا في تفسير هذه الكلمة فذهبوا فيها مذاهب شتى كل يفسره حسب مذهبه ونظرته إلى الحياة ومعتقداته في الحياة الإنسانية وخلودها، وأهم هذه المذاهب مذهبان: الواقعيون والمثاليون. وقد فسر الواقعيون بأنه إرضاء الشهوات واستعمال اللذات ما هي إلا صور لغرض لئلا تفوت وهذا التفسير هو يوافق تمام الموافقة مذهبهم الواقعي لأنهم ينظرون أكثر ما ينظرون إلى الواقع الذي يحسونه تحت ناظرهم وبقية حواسهم ولا شأن لهم بتلك الأمور التي لم تقع تحت الحس البشري لذلك فإنهم لا يفكرون بالمستقبل وما بعد الحياة الدنيا من خلود وحياة أخرى منهم ينادون باقتناص اللذات والفوز بالفرص التي تمرّ عليهم وإرضاء الطبيعة البشرية من أي طريق ما دام هناك لذة منها ونفع يرجى ولا عليهم بعد هل تسوغ لهم عقولهم استغلال هذا النفع أو هل يوافق هذا مع حياتهم في المستقبل القريب فالدنيا والحياة عندهم فرصة تذهب عنهم سريعاً فعليهم أن ينالوا منها ما قدروا عليه من لذة وسرور ونفع. خلاف أولئك المثاليين الذي يعتبرون أن هذه الدنيا وهذه الحياة القصيرة الأمد ما هي إلا وسيلة وطريق إلى حياتهم الخالدة ودنياهم التي لا انتهاء لها فليست هي نفس الغاية كما يدّعيه الواقعيون فعليهم أن يتوسّعوا بمختلف الوسائل ليجعلوا حياتهم

الأخرى أرغد وأسعد وليست هذه اللذات إلاّ عقبة في سبيل سعادتهم في حياتهم الأبدية فليست الفضيلة عندهم إلاّ إنكار الطبيعة البشرية وتجاهل ونداءاتها التي تدعوا إلى الرذيلة وإرضاء الغير الحي والحقائق السافرة فهو الرسول الباطني الذي أرسله الله لنفسه الخاصة لهدايتها وإرشادها فهو المثل الأعلى لهم والقُدوة الصالحة كما أن الطبيعة البشرية المثل الأعلى لأصحاب المذهب الواقعي الأول الذين همهم إرضاء النفس البهيمية كما أن همّ المثاليين هو إرضاء النفس الملائكية.

وتفسير ذلك أن النفس لها ثلاث وجهات: نفس بهيمية وهذه النفس تُشرك منا سائر الحيوانات فكلاهما ذات نفس بهيمية غرضها إشباع شهواتها وطلب اللذة من طعام ونكاح وغيرهما التي جبلت عليها جميع الحيوانات وهكذا لن تجد هناك فرقاً بين ذلك الذي كل همه هو إشباع نفسه البهيمية وبين الحيوان الذي تقوده غريزته إلى إشباعها. ونفس سبعية ومن شهواتها التفوق وحب السيطرة والظلم وحب التملك التي تراها أكثر بروزاً في الأسد فهو رمز للحيوان المفترس ولذلك سمّيت بالسبعية. ونفس عاقلة أو مفكّرة، وملائكية التي يكون الحق ديدنها وتكون أكثر غايتها وأعلى هدفها هو طلب الحق لوجه الحق ولن تجد لذة إلاّ به ولن تجد سعادة حقّة تستند بها إلاّ إذا كان الحق بجانبها وهذه النفس هي التي ينفرد بها الإنسان عن سائر الحيوانات البهيمية وهذه هي الملكة التي أودعها الله في النفس الإنسانية لتستطيع بها أن تصل إلى الكمال وتسمو بها إلى صفوف الملائكة وهذه هي القوّة الخارقة التي جعلها الله يرتفع بها إلى عالم الخير والصلاح ويرتفع بها عن أراذل الحياة والطبيعة البشرية فيما إذا أحسن استخدامها ولن يفرط بها وأيقظها بجميع ما من شأنه إيقاظاً وجعلها متأهبة للارتفاع به والسمو به إلى العالم الأعلى الذي يبعدة عن عالم الحياة الدنيا بما فيه من شرور وآثام. فالحق هو هدفها وممرها ولن يضير هذه النفس أن تجد أن أنصارها قليلون جداً

وأن مناهضيها كثيرون بحيث لا تستطيع التغلب عليها فيه تُسعد عندما تعذب وتلاقي الأمرين فيما إذا كان كل هذا العذاب من أجل الحق وحده ولن تجد عقيدتها تتزعزع ولا همّتها تخبو في الدفاع عنها عندما ترى أنها منفردة بهذه الدعوة وإليك كلمة من أحد أولئك الذين سمت بهم النفس الملائكية وطغت على كل تلك النفوس الأخر وذاقت وأذاقت من أجل إرضاء هذه النفس المفكّرة وإسعادها وهي إن دلّت على شيء فإنها تدلّ على القانون التي تسير عليها هذه النفس وإنها لن تجد عن الحق بديلاً؛ فالفضيلة إجمالاً هي الوسط من الأمور وهي مركز الأشياء كما أن مركز الخطوط والدوائر هي وسطها التي يكون المحيط والبعيد عنها متساوياً وإدراك الوسط الكامل من الأمور هو من الصعوبة بمكان وقد يكون من المستحيل ولا يدركه إلا الأئمة المعصومين عليهم السلام.

كما إن الفضيلة مركز الخطوط ووسطها يشتمل تعبيره على الدقّة لعجز من الإله فمثلاً الشجاعة تحفها من الجهتين رذيلتان رذيلة الإفراط والتفريط أما النقطة التي تفصل بين هذين الرذيلتين وهي نقطة الوسط أو نقطة الاعتدال التي لا تميل لا إلى جهة الإفراط ولا إلى جهة التفريط فهي الفضيلة الحقة فالإفراط في الشجاعة إذا هو وضع الشيء في محله وعمله في وقته المناسب غير مفرط فيها وهذا هو معنى الفضيلة ففضيلة الحكمة هي ما كانت في محلّها وهكذا مشى عليها غيرها من الصفات.

دروس في علم الاخلاق

«قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم يحافظون...»

والمراد من المحافظة على الصلاة هي المحافظة على اوقاتها الاولى وهي عند وجوب وقتها على المكلف وان تكون صحيحة طبقا للشروط والاصول وتادية الصلاة في وقتها الخاص هو في نفسه فضيلة وبها مزيد من الأجر والثواب ولكن وبالإلأسف أنا قد فرطنا في شرط المحافظة الأول فقد جرننا التسامح الى الكسل والتهاون عن هذه الفضيلة والسبب الاول الذي جرننا الى هذا التسامح هو جواز الاتيان بها في غير وقتها الاول وسعة وقتها وهكذا بمرور الايام ثبتت عادة التسامح والتسويق فينا حتى اصبحت عندنا من الطبعيات ومن الامور المساغة.

ونقصد بهذه الفضيلة: أعني فضيلة أداء الصلاة في وقتها هي من نوع الفضيلة الاخلاقية التي تكسب بالتمرين والتعود فلو نحن عودنا انفسنا منذ الصغر على هذه العادة لاصبحت فينا عادة لانتمكن من ان نتهرب منها ولانستسيغ ان نفعل خلاف ماتركت فينا من عادات.

ولتوضيح الفضيلة الاخلاقية نقول ان الفضيلة قسمان : ١ - الفضيلة العقلية ٢ - الفضيلة الاخلاقية.

فالاولى هي التي تربي العقل فتسمو به بالمعلومات من درجة الملكة الى درجة الفعل والعمل والمراد بالعقل هنا العقل النظري وهو الذي يكون عقلا بالملكة ثم بالفعل فان الله تعالى أودع في الانسان هذه الملكة لادراك المجهول والكشف عن المستور ولتقبل النظريات والآراء ولكسب كل مسائل العلم التي كسبها بالدرس والتعليم فادراك

حقيقة وجود الله وتعقل معنى القضاء والقدر وفهم معنى الفضيلة والرذيلة هي كلها من وظيفة العقل النظري وهي فضائل عقلية من شأنها ان تربي العقل بالمعلومات وتسمو به من الملكة الى الفعل والفضيلة العقلية التي هي نتاج العقل العملي انما تكسب بالتعلم والدراسة من خارج النفس وللتعلم ثلاث مراحل او مراتب :

١- ان يتلقى معلوماته من اساتذته.

٢- ان يتلقاها من تفكيره الحر والتأمل النفسي.

٣- ان يتعلمها من كثرة المطالعة ومزاولة القراءة.

وأفضل مرتبة من التعليم وأجدى من هذه الثلاث هي المرتبة الاولى فيما اذا كان المدرس فاهما لدروسه حاذقا لفنه عارفا لاسلوب دراسته عميقا في بحثه فانه يتمكن ان يوصل تلميذه الى النتيجة وخلاصة البحث من دون أي عناء ومن أسهل طريق ومن دون أن يتعبه بالمقدمات الطويلة ويستطيع ان يجعل تلميذه يتلقى درسه بكل شوق وهمة ويرسمه على صفحة ذهنه بسهولة ويسر وبوضوح بخلاف التفكير والتأمل النفسي فانها طريقة في التعليم مضنية وطويلة قد لاتوصله الى شيء من العلم والعرفان وقد تضيع عليه وقتا كبيرا وجهدا ثميناً وهو يلتمس المقدمات ليوصل الى النتيجة اذا كان ذا استعداد وذكاء خارقين والافهو يقف في مكانه لا يستطيع ان يتقدم خطوة.

والتفكير الحر والتأمل النفسي هو الاساس في تعلم النفس فان النفس هي التي تعلم نفسها وهي التي تتمكن من ان ترسخه على صفحة ذهنها فاذا المرء اعتمد على أستاذه فقط من دون ان يهرع الى فكره بين الفينة والفينة متأملافيا درسه استاذه من بحوث ودروس يكون تعليمه قليل الجدوى ويكون كاللبغاء يحفظ من دون ان يعقل مفهوما ويفكر في مبلغ حظها من الصدق والكذب ثم لا يستطيع أن يتقدم في علوم ويتكر ويتندع كل جديد لانه ببغاء ولاهم له إلا تلقي مايقال له.

وانما كان التعليم بواسطة المدرس افضل واجدى لانه يكون مساعدا قويا في تنبيه الفكر وعاملا خطيرا في ايقاظه وبعثه الى التأمل في الطريق الصحيح فهو يوصله الى النتيجة من اقصر المقدمات وعليه بعد ان يفكر ويتأمل فيه ويجادل ويجاور استاذة اذا وجد ما لا ينطبق على اعتقاده ومعرفته والا فالفكر والنفس هو المعلم الاول فمهمة الاستاذ مؤثرة في المرء في سرعة التفكير وتنبيه العقل للمرء.

ويأتي بالمرتبة الأدنى وهي الثالثة التعلم بالمطاعة فهناك من الكتب ما لا تنفي غرض الطلب ولا تشبع البحث ولا تتعمق فيه وهناك كتب كتبت بأسلوب له ظاهر وباطن قد يخفى على التلميذ المبتدئ معناه ومغزاه او استعملت فيها اصطلاحات قد عجز حلها وتفسيرها وهناك قسم قد لا يعتمد عليه في معلوماته وآرائه ثم ان للمجادلة والمناقشة الاثر الفعال لرسوخ الدرس في ذهن الطالب ونفي عنه كل شبهة تعرض عليه وهذه لا تحصل بالكتب والمطالعة بينما هي ساحة له مع استاذة ففيها المجال الواسع لها وللاستاذ الحرية الكاملة في ادخال ما يقوله في فكر الطالب بشتى الحيل والوسائل فليس كل الطلاب هم سواء في الفهم والادراك فكل واحد له الاسلوب الخاص في تعليمه وتدريسه فمن آثار التعلم بالمطالعة هو بطء التفكير والاحتياج الى الزمن الطويل ولذا فافضل الطرق هو التعلم من طريق الاستاذ ليكون الباعث على بعث التفكير ودعوة الذهن الى التأمل.

والفضيلة الاخلاقية هي من شأنها ان تسمو بالعقل الى الكمال والتخلق بالاخلاق الحميدة والتعود على المزايا الحسنة، والمراد بالعقل هنا هو العقل العملي وهو الذي يدرك المحاسن والمساوئ بادراك ان الكرم فضيلة والصدق فضيلة والشجاعة فضيلة وهو من ادراكات العقل العملي وهذا الادراك هو الفضيلة الاخلاقية وهذه الفضيلة هي موضوع علم الاخلاق وهي المركز الذي يدور البحث عنه في هذا العلم الخاص وقد

قلنا سابقا ان علم الاخلاق هو المنبه والموقظ للعقل العملي ليدرك الفضائل الاخلاقية لتكتمل النفس وتتخلق بالاخلاق الحسنة.

ولا تحصل هذه الملكة الخاصة التي ندعوها بالفضيلة الاخلاقية من طريق التعلم اذ ليس الغرض منها الادراك النظري وكسب المعلومات والكشف عن المجهولات بل انما تحصل بالعادة والتمرين والرياضة النفسية والممارسة الطويلة لتكون لنا عادات حسنة وسجايا حميدة وفضائل اخلاقية حمة اذن فجميع فضائلنا الاخلاقية انما هي عادات نشأنا عليها وتمرسنا على فعلها حتى تركزت جذورها وتأصلت في نفوسنا فالشجاعة مثلا لا تكسب بن تعرف انما فضيلة بل تحصل وترسخ بالممارسة والتمرين حتى تنمو فيه طبيعة الشجاعة والرجل لا يكون كريما وذلك بان يعرف ان الكرم فضيلة وان الكرم هو بذل المال في محله وانما طبيعة الكرم في النفس لا تكون الا بان يتكرم حين تنشأ فيه هذه العادة والا فهو تطبع لاطبيعة وتكرم لاكريم وكذلك لا يتمكن ان يصدق المرء في اقواله وافعاله اذا عرف ان الصدق فضيلة ومكرمة بل انما اذا تمرن عليها وضحي من اجل ترسيخ هذه العادة فيه حتى تكون بمرور الزمن طبيعة من طباعه لا تنفك عنه ولا يتكلم ولا يفعل حتى يكون الصدق هو السائد في الميدان وكذلك الرذيلة فاذا شاهدت رجلا لا يستطيع ان يصدق في اقواله بل لا يتمكن الا ان يختلق الحوادث كذبا ليجد اللذة فيها فانما كان كذلك لأن ملكة الكذب وعادة الاختلاق ترتبت فيه بالممارسة والتعود فاصبحت عنده من الامور المساغة التي لا يجد فيها أي بأس وكذلك البناء فنحن مثلا نعرف كيفية البناء ونعرف كيف نصف الحجر ونقيم الجدار ولكن هل نتمكن ان نبني الجدار الصغير بسرعة ذلك الذي أصبحت عنده البنائة عمارة ونأتي بها بالاتقان والاجادة التي يأتي بها ذاك، لا، لأننا حرمانا من التمرين والتعود عليها وكذلك العادات والملكات وممارستها ومزاولتها كثيرا حتى تنمو فينا وتصبح عادة فينا عادة

وسليقة ويكون لنا اسلوب متقن واجادة كبيرة بسهولة ويسر وغيرها من العادات التي هي من الفضائل الاخلاقية التي تكسب بالتعود كما قلنا.

اذن فأن جميع العادات التي تولدت فينا من عادات حسنة الى عادات رذيلة انما كان منشؤها ومولدها الاول هو كثرة تكرارها وطول ممارستها وكثر مشاهدتها متعاطيها فبهذا التكرار وبهذه المشاهدة التي من شأنها ان تقلل من اهمية خطرها اذا كانت رذيلة او زيادة اهمية فعلها واكبارها في عينه ان كانت فضيلة نشأت عاداتنا وتوكدت فينا واصبحت فينا جزءا لا يتجزأ عن كياننا ولا نستطيع ان نتهرب منها الا اذا قاومناها بأن نعود نفوسنا على تركها - فيما اذا كانت رذيلة - ونمارس ضدها ونضحي في هذا التعويد والممارسة الجهد الكبير حتى يتسنى لنا قلعها واحلال محلها الصالح من العادات.

والتربية في صغرنا لها الاثر الفعال في توجيه الطفل وتعيين مستقبله واناء العادات في نفسه التي تكون في ذلك الزمن التربية الصالحة لاناء كل بذرة يبذرهما في نفسه مربوه ومعلموه فان نفسه في تلك الساعة تكون صالحة لتقبل كل مايوحى اليها وكل ما يقع عليه نظرها من افعال واعمال كالقلم الحساس يتأثر بكل دقيقة وكبيرة تمر عليه فيرسم على صفحته كما ما يعرض عليه من نور وظلام وظلال وضياء وكذلك نفس الطفل ترسم عليها وتثبت فيها كل ماتم حولها من مرثيات وافعال وكل ما سمعته من اقوال وايحاءات فينمو عليها ويكبر وتكون تلك البذرات قد اخذت تنمو فتثمر فيتلقى المرء ثمارها ويحني ما جنته يد التربية السيئة عليه ومن الصعب جدا ان تتمكن بعد ان تتأصل فيه هذه الجذور من الصغر من قلعها واكتساحها من طريقك لانها تكون قد تشبثت في نفسك بجذورها المتينة وتكون درجة الصعوبة في قلع هذه العادات بمقدار ماقرت عليه من ايام نشوئها فقد تكون الصعوبة والمشقة التي تلاقيها في قلع عادة من العادات أقل من يكبر سنا عنا وقد تكون قلع عادة نشأت منذ زمان الطفولة اكثر من قلع عادة

نشأت منذ بضع سنين.

اذن فالتربية هي المسؤولة حقا عن كل هذه العادات الشريفة وعن كل هذه الرذائل التي غمرت على الاكثر جميع البشر ولم يخلص منها على ذلك الذي وفقه الله فقيض له تربية صالحة وصبر على الصعوبة والمشقة وقدر على قلع مافسدت فيه من العادات وهي الملامة عن كل هذه المآسي التي نشاهدها تتكرر كثيرا على مسرح الحياة فالتربية لها الدور الاول والشأن الخطير في هذا الشأن وفي توجيه الانسان الى وجهة الخير والشر والفضيلة والرذيلة ومن زمان الطفولة نشأت اكثر عاداتنا وجل مساوينا ولعل تقدم علم التربية الحديث قد يخفف من وطئة هذه الكارثة ويهدي المربين الى الطرق الحميدة لينشأ لنا جيل جديد صالح خير وليس ذاك بعزيز.

وكلمة الامام الحسين عليه السلام التي قالها في الطف تشعر بهذا وبأن جل الشرور انما نشأت وتوكدت بعد ان تنسم الانسان نسيم الحياة وانها لم تكن معه بل ولد وهو خالٍ من الشر والخير فقال: «ان الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه مادرت معائشهم فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون».

فحكمه على النوع البشري هذا الحكم يشعرا ان التربية هي التي لها الشأن الخطير في تنشئة هذه العوامل الشريفة في النفس الانسانية وان فهم من ظاهر العبارة غير هذا. وقال النبي صلوات الله عليه وآله بعد رجعته من آخر غزواته: «انتبهنا من الجهاد الاصغر وعلينا بعد الجهاد الاكبر».

ويعني بالجهاد الاكبر هو جهاد النفس التي ارتكزت فيها عادات الشر والرذيلة فعلينا ان نضاعف من جهودنا الشيء الكثير لنقلع تلك العادات ونقضي عليها ونساعد على ان تحتلها عادات صالحة لأننا قد أمرنا بأن نجاهدها لنخفف من غلوائها ونقضي على مساوئ السوء فيها وما النفس إلا تلك العادات الكثيرة والغرائز العديدة التي

تطرفت في وجهتها وسارت على غير طريقها نتيجة لسوء التربية ثم أشر مالهذا الجهاد من صعوبة ومشقة بقوله (الجهاد الاكبر)، اذن فالتربية هي المسؤولة عن هذه الشرور وهي البلاء الاكبر في حياتنا.

وغرضنا من هذا الكلام الطويل هو ان نقول بأن الشر ليس هو من طبيعة البشر وليست الرذيلة هي طبيعة خاصة في النفس بل ان العادات الرذيلة التي هي نتيجة التربية السيئة والتوجيه الخاطئ هي سبب كل هذه الشرور التي نراها قد طغت على كل افعال الانسان واعماله واستولت على كل غرائزه وحواسه حتى كنا نظن ان الشر هو من طبيعة البشر وانه جبل عليه وفطر على ارتكابه وانما الانسان يولد وطبيعته لاتدعوه لا الى الخير ولا الى الشر وتعد بلهاء غير موجهة واما الذي يوجهها الى الوجهة الخاصة هي التربية وهذا هو المذهب الذي يقرب من مذهب العدالة وهناك مذهبان آخران:

الاول - يقول ان الانسان من طبيعته الشر.

والثاني - ان من طبيعته الخير.

وهما مذهبان خاطئان وغير صحيحين ولو كان البشر من طبيعته الخير او الشر لما طولبوا باصلاح أنفسهم ولما حثهم الله تعالى على الخير والصلاح وأمرهم بجهاد النفس وتوجيهها الى وجهة الخير والصلاح ولكان بعث الانبياء والرسل عبثا مادامت الطبيعة هي التي توجههم اما الى الخير وإما الى الشر اذ لو كان البشر من طبيعته صفة من الصفات لما تمكن ان يكون غير طبيعته ويخالف الصفة التي فطر عليها من خير أو شر ولما استطاع ان يكون حسب مايهوى او ان يتعود على عادات لا تمت الى طبيعته بصلة فالحجر اذا كان من طبيعته السقوط الى الارض لا يعلو الى فوق لانه يناقض طبيعته التي كان عليها.

اذن ليس الشر ولا الخير من طبيعة البشر وانما هي تلد في الانسان وتنشأ من تربيته

ومحيطه الاجتماعي والدراسي والبيتي وانما في الانسان نوازع تنزع الى الخير او الشر والتربية لها الأثر الخطير في تقوية أي هذين من نوازع البشر العديدة فمن نوازع الخير حب الفضيلة وهي التي تقوده الى الخير والصلاح، ومن نوازع الشر حب النفس وحب التفوق وحب غيرهما فان تغلبت احدهما على الأخرى كان لها الأثر في توجيه الفرد حسب منهاجها وما ترمي اليه وليست هذه النوازع من الطبيعة بشيء ولا تمت اليها بسبب فحب الأكل وحب النكاح ليسا من الطبيعة البشرية.

وليست تلك النوازع التي سميناها بنوازع الشر هي في الحقيقة وفي انفسها نوازع شر وانما التربية السيئة قد تستغلها فتكون لها المساعد الاول على توجيه الفرد التوجيه السيء اما هي في انفسها فهي نوازع لاتدعو الى الشر وهي ضرورية اذ بها قوام الحياة فان الغريزة الجنسية هي في نفسها فضيلة وضرورية لبقاء النوع الانساني ولكن قد توجهها التربية من الطريق السيء فتشبعها من غير طريقها المعتاد وتطرفها في سيرها واما اذا استطاع المرء ان يوفق بينها وبين الغرائز ويعطي كلا منها حقها من الاشباع فليس لها اي اثر خطير سيء وقد تنقلب فتكون نوازع للخير والصلاح وان لم يستطع ان يشبعها من طريق الصلاح وان كانت التربية قد تطرفت بها تطرفا سيئا لامل فيها إلى الإصلاح فاجدى الطريق لقلعها هو كتبها وتجاهلها ليأمن مضارها ومفاسدها الوخيمة وهذا الداء لا يستعمل الا اذا استعصى عليه الداء ولم يفيد في اصلاحه اي دواء آخر عندئذ لم يبق له الا الكبت.

وقد وقع في الوهم بان النوازع الانسانية هي في نفسها شر كثير من الرجال العظماء فقادهم هذا الوهم الى كتبها واطمارها في عالم النسيان وما الرهينة والتصوف المتطرف الا نوع من هذه الانواع الذي يستعملون فيه الكبت لكل نزعاتهم الذين يظنون انها شر لذلك فهم ينقطعون الى الله ويخلدون الى العزلة ويكتبون مثلاً شهوتهم الجنسية

باعتبارها نزعة من نوازع الشر وليس من الصحيح ذلك اذا كان في مقدورهم استعمالها في الطرق الصحيحة وما ندري ما يكون الحال اذا نشأ جيل جلهم قد نزع الى نزعة الرهينة والتصوف لاشك ان نظام الحياة سينحل ويسير في غير طريقه الصحيح وقد قلنا ان جميع هذه النوازع هن قوام الحياة وقوام حفظ النوع الانساني لذلك نهى النبي عنها فقال لارهينة في الاسلام.

محاضرة...

في النفس الانسانية قوة كامنة اودعها الله سبحانه فيه ليستطيع بها ان يفعل الاعاجيب ويأتي بالمعجزات وخوارق العادات ووهبه من كنوز القوى ماتكفيه لان يسمو بنفسه الى غاية الكمال ويعلو بها الى اعلى ما يطمح اليه من درجات التقدم والعلم ولكن من المؤسف جدا اننا لم نستخدم من هذه القوة الا أقل القليل ولم نتمكن ان نفتح امامنا من هذه الكنوز ذات القوى التي لاتحد الا الشئ الذي لا يذكر وبقت هناك كنوزا وقوى كثيرة اخرى مغمورة تحت انقاض الاهمال مطمورة من جراء التهاون والكسل عن اقتناص تلك الفرص التي تمكنا من فض اختام تلك الكنوز المختومة من القوى الطبيعية وسر اولئك البشر المتفوقون على عامة الناس والذين استطاعوا ان ياتوا بما يميزهم عن سائر الناس انهم وفقوا الى استخدام كنوز اكثر واستغلال من قوة نفوسهم درجة اكبر فليس هناك رجال ناجحون متفوقون ممتازون لان طبيعتهم ومواهبهم متفوقة وليس هناك رجال مخفقون خاملون لانهم لم يوهبوا ما وهب اولئك من قوى ومواهب وانما هناك رجال استطاعوا ووقفوا الى استخدام قوى اكبر وهناك من لم يستطيع ان يستخدم من تلك الا الاقل الادنى اما في نفس تلك القوة العجيبة الكامنة فهم في ذلك سواء.

اذن فمن الواجب ان لا يستحقر المرء نفسه مهما كانت من الخمول والصغر وان لا يقف امام اولئك المتفوقين في المواهب والناجحون في الحياة موقف العاجز من القادر فيخيل الى نفسه ان الدرجة التي توصل اليها ذلك العبقري الناجح تاخر ان ينالها لانها في مناط الثريا مادام يملك نفس القوة التي يملكها ذلك الناجح ومادام الفرق بينهما ليس فرقا بقله المواهب وكثرتها وما دام هو يستطيع ان يبلغ درجته ان هو وفق

بالمران والتوفيق الطويل ان يكون كذلك الرجل وان استطاع ان يقتنص الفرص التي بها يستطيع ان يفض اختتام تلك الكنوز فذلك الرجل الناجح انما نجح لانه بذل جهدا اوسع وتضحية اكبر من نفسه بالتمرين والمران الطويلين وصقل مواهبه وهذبها وابرز مواهب اخرى لم يكن ليعرفها لولا صبره وتضحيته وكذلك كل رجل يستطيع ان يبلغ المنزلة الكمالية التي يتوق اليها ان هو لم يحتقر نفسه ولم يستخف بها وبيأس منها وان هو صبر كثيرا على تعويدها وتمرينها الطويلين ليتيح له ان يبرز القوى من مكنمها ويخرجها الى عالم الحياة ولاعجب ان تكون له تلك القوة الخارقة العجيبة وهو خليفة الله في ارضه اي خليفته في استخدام موارد الطبيعة والتحكم في اسرارها واستغلال خيراتها فهو ملك المخلوقات وهذا معنى خليفة الله في ارضه وانما استطاع ان يكون سيد المخلوقات ويمتاز على سائرهما وانما اهل لأن يكون خليفة الله على مخلوقاته بها وهبه الله من قوة عاقلة وفكر به يستطيع ان ينظم اموره ويدبر حياته وبه استطاع ان يعلو على الطبيعة فيستغل خيراتها ويستخدمها لخدمته ومنفعته فالقوة العاقلة في الانسان هي الفاصل بينه وبين سائر المخلوقات وبها امتاز ان يتفوق على غيره من البهائم فليس الانسان في الحقيقة بهيمة راقية رقي بعض الحيوانات على بعض وانما هو نوع آخر يتميز بقوته العاقلة المفكرة وفي الحقيقة ان الفضل في تفوقه يرجع الى هذه القوة العاقلة لا الى قواه ومواهبه الاخرى اذ هي لاشيء ولا نفع لها ان هي لم تنظم وتدبر ليستطيع الاستفادة منها وانما الذي ينظمها ويروضها ويجعلها قوة خير وصلاح هي القوة العاقلة المفكرة ولو تدبر الانسان بنفسه وما فيها من هبات الله من قوى واستعدادات ومواهب لأحس بعظمة الانسان وسمو منزلته ومكانته بين المخلوقات ولو عرف ذلك لاستصغر نفسه ولما داخله اليأس ونالته الضعة فليس هو بهيمة كما يدعيه البعض الذين قصرُوا عن ادراك هذه الناحية في الانسان والاحساس بهذه الموهبة المميزة بين النوعين.

لقد أودع الله - كما قلنا - في الانسان قوة عظمى يستطيع ان يكون بها عظيماً وسامياً لو هو استغلها تمام الاستغلال - وهذا شيء عسير - غير ماهو عليه الآن واودع فيه كذلك قوة عجيبة اخرى تساعده على ان يستغل تلك القوة وابرار ماكن فيها وتساعده على الانتفاع بها فهو بذلك لم يدع امر بروزها واستغلالها الى الظروف والصدف فمما لاشك فيه ان لكل شيء كمالاً فأودع سبحانه في كل ناقص وقاصر عن الكمال - ومنه الانسان - غريزة حب الكمال فهو دائماً يشاق الى ذلك الكمال ويسعى لتحصيله والوصول اليه مهما كان صعباً وشاقاً لان مايدعوه الى ذلك ليس باختياره بل تقوده الى ذلك غريزته وحب اشباعها فاندفاعه الى طلب الكمال وسعيه المتواصل الى بلوغه هو الذي يقيضه ويساعده لاستخدام تلك القوة والانتفاع بها وكل ماتصدر منه من افعال انما هي اسباب لجهة يتخذها ليشبع غريزته في حبه للكمال بسعيه ليس الا، وبذلك اكمل نعمته علينا واكمل هبته لنا وقد قال افلاطون في مثله (لكل شيء مثل أعلى) فهو دائماً يطلب ذلك المثل الأعلى فالانسان انما يطلب الصدق ويسعى الى التحلي به انما يطلب لأن فيه مثله الأعلى وانما يطلب الكرم ويريد ان يبلغ أعلى درجاته لأنه يريد اشباع نفسه التواقة الى المثل العليا واشباع الجانب الانساني او العاقلة فيه وانما يطلب فضيلة الامانة لأنها المثل الأعلى للنفس العاقلة التي ميزت الانسان عن الحيوان ولايمكن ان تكون الامانة والصدق مثلاً للنفس البهيمية لأن النفس البهيمية لاتطلب إلا اشباع لذتها الحاضرة وهكذا الاكل والنوم والحياة الجنسية.

واما الصدق والامانة مغيرة كل المغيرة لهذه اللذات العاجلة وهما بعيدتان كل البعد عن مثل النفس البهيمية العليا لانهما بعيدتان عن تحقيق اللذة العاجلة التي هي المثل الأعلى للنفس البهيمية فذلك الذي يضحي بالمادة لاجل اغراض روحية معنوية بعيدة عن المادة والمنفعة العاجلة كذلك الذي يطلب لنفسه القتل بالجهاد في سبيل الله

انما هو دليل على ان هناك نفساً معنوية روحية بعيدة كل البعد عن النفس البهيمية وهل هناك لذة عاجلة يكسبها المجاهد وهو يعلم انه يعرض نفسه للقتل ويضحى بحياته المادية الا ان هناك لذة معنوية آجلة ومثلاً روحياً اذن فالمثل العليا للنفس العاقلة هي التي صار بها الانسان انساناً لحيواناً بهيمياً.

أضغاث أحلام

المجتهد المجدد آية الله

الشيخ محمد رضا المظفر قدس سره

إعداد

الشيخ محمد الكوثراني

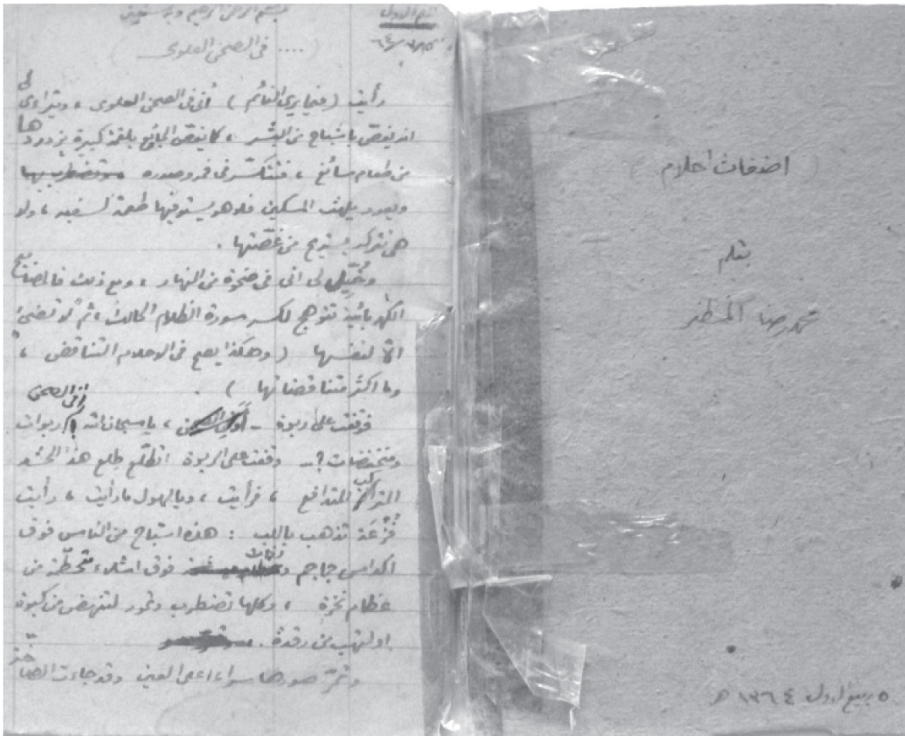
الإهداء

بين الأستاذ والتلميذ نشأت العلاقة الأدبية واستمرت؛
وفي طريق العلم ترافقا فكانا شريكي الدراسة ورحلة
العلم وهما اللذان تأثرا بنهج الأستاذ عنيت به المصليح
والمجهد المجهّد آية الله السيخ محمد رضا المظفر (قده)
وعنيت بهما الوالدين المقدسين والعلّامتين المجهبتين
السيد محمد بهر العلوم والسيخ محمود كوتراني طاب
نراهم..

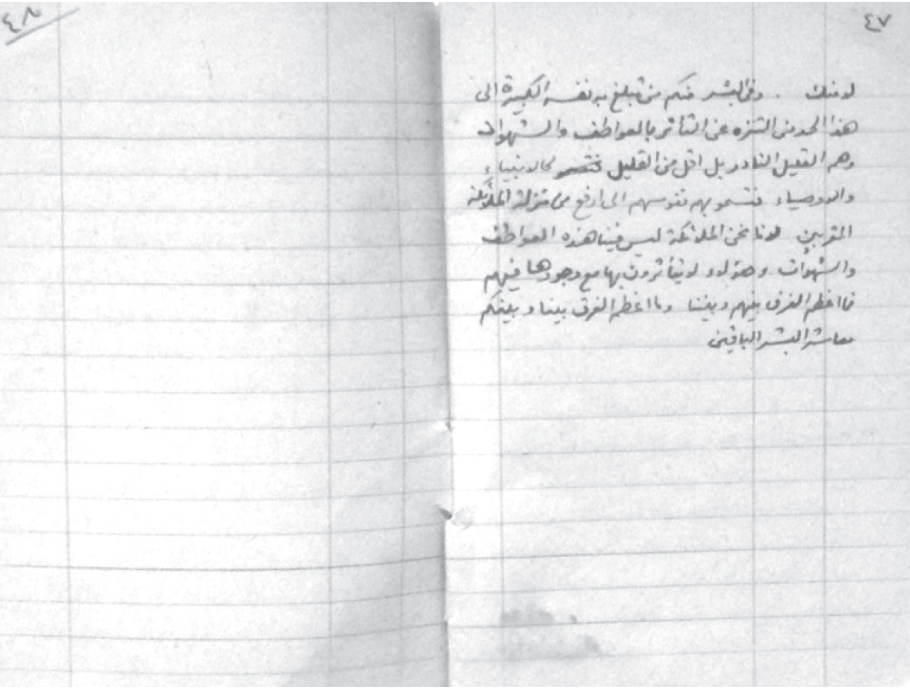
ولكن العلم أن صدقت الرؤيا باجتماع الأبناء على ما
رسمه الآباء.. تمسكاً بنهج العطاء وتفانياً في خدمة
الحق؛ وهم من أوقدوا فينا هبوة المعرفة وحب الإصلاح
وأردنا باب النجاة اللّامن في سلوك طريق ذات الشوكة.

... إلى أرواحهم نهدى هذا الجهد المتواضع

الصفحة الأولى من الكراس المخطوط للمؤلف



الصفحة الأخيرة من الكراس المخطوط للمؤلف



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا ونبينا محمد وعلى آله الهداة الطيبين الطاهرين.

وبعد...

العنوان: أضغاث أحلام.. ولكن المعنون ليس كذلك بل واقع معاش ونتحسسه جميعاً في مركب الحياة الذي يضمنا.. انه تعبير رمزي صادق ونفثة صدر مهموم، في قالب فكري ابدع فيه الشيخ محمد رضا المظفر رحمته الله حيث سكب بنات أفكاره في وضع الحلول والنظريات الصائبة لمعالجة الاوضاع السائدة ومحاولة تغييرها نحو الأصلح ولايصال الركب البشري إلى شاطئ الأمان..

لقد قدم لنا آية الله الشيخ محمد رضا المظفر طاب ثراه نموذجاً للعالم المصلح المتوهج الذي لا يترك فرصة إلا واستثمرها في سبيل العلم والعمل والاصلاح، فقد عاش ألم المعاناة في سبيل مجتمعه وتقدمه فكان يطمح لخلق مجتمع متكامل على جميع الصعد سواء منها الأخلاقية أم الدينه وسواء السياسية أم الاقتصادية.. لقد ضمن في كتابه أحلاماً أربعة عالج في كل حلم موضوعاً أو أكثر من مشاكل البلاد والعباد بطريقة نقدية مرموزة كي لا يسيء لأشخاص بعينهم بل الهدف التنبيه على الخطأ الشائع.

والمحور في أحلامه هو مدينته الفاضلة التي يحلم بها أن تضم مجتمعا مثالياً رسالياً تضمحل فيه الفوارق الاجتماعية وآفات الجهل والفقر والعاهات، بالاضافة إلى الحداثة التي كان يحلم بها وفق نهج الدين وتعاليم أهل البيت عليهم السلام. واتخذ في هذه المحاولة

الاصلاحية المكتوبة اسلوباً حوارياً فذاً ضمنه القيم، وأبرز حواراً موضوعياً مع الذات ومع الآخر فلم يتوان عن نقد الذات، واشتملت أحلامه على رؤى اصلاحية شاملة غير منفصلة عن الواقع وكانت مدينة النجف الأشرف هي ميدانه الأول باعتباره أحد أبنائها المسؤولين.. كل ذلك بأسلوب قصصي حوارى هادف مع احتفاظ النص بقوة اللغة ومتانة التعبير.

ولا بد لنا أن نشير إلى أننا قمنا باعداد هذا الكراس في هذه العجالة لكي يصدر الكتاب ضمن أعمال الشيخ المظفر الذي أخذت العتبة العباسية المقدسة ومؤسسة بحر العلوم الخيرية على عاتقها عبء ذلك مشكورتين عليه. وإلا فإننا بصدد إعداد تقديم يتضمن دراسة شاملة حول فكر الشيخ المظفر قدس سره بشكل عام ولا سيما توجهاته الاصلاحية ورؤاه الفكرية في جميع مناحيها. ونسأل الله التوفيق لنا جميعاً في العلم والعمل وفي النهوض بمجتمعاتنا وأمتنا نحو الاصلاح مع خالص الدعاء بالخصوص للعاملين في انجاح هذا المؤتمر المبارك. الصفحة الأولى من الكراس المخطوط للمؤلف الصفحة الأخيرة من الكراس المخطوط للمؤلف

الحلم الأول

٦٤^(١) / ٣ / ١٥

في الصحن العلوي

رأيت (فيما يرى النائم) أني في الصحن العلوي، ويتراءى لي أنه يغصّ بأشباح من البشر، كما يغصّ الجائع بلقمة كبيرة يزدردها من طعام سائح، فتتكسر في فمه وصدره ويعود يلهث المسكين فلا هو يستوفيها طعمة لسغبه، ولا هي تتركه يستريح من غصتها. وخيّل لي أني في ضحوة من النهار، ومع ذلك فالمصابيح الكهربائية تتوهج لكسر مسورة الظلام الحالك، ثم لا تضيء إلا لنفسها (وهكذا يصح في الأحلام التناقض، وما أكثر متناقضاتها).

فوقفت على ربوة - يا سبحان الله! أفى الصحن ربوات ومنخفضات؟ - وقفت على الربوة اتطلعّ طلع هذا الحشد المترابك المتدافع، فرأيت، ويا لهول ما رأيت، رأيت فُرْعَةً تذهب باللب: هذه أشباح من الناس فوق أكداس جماجم ورفات فوق أشلاء متحطّمة من عظام نخرة، وكلها تضطرب وتمور لتنهض من كبوة أو لتهب من رقدة. وتمر صورها سواءً على العين وقد جاءت الصاخّة ولكل امرئ منهم شأن يغنيه، فوجوه مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه عليها غَبَرَةٌ ترهقها قتره. وجلبتها تصكّ السمع وتوجف القلب.

فسألت نفسي: أي يوم مشهود هذا لم نعرفه في أيام النجف الأشرف، وذهبت

(١) تنبيه التاريخ لوحظ فيه السنة الهجرية القمرية.

أضرب أخماساً في أسداس، والعين مأخوذة بما ترى والقلب يكاد ينخلع جزعاً، وذهب عن ذهني (يوم النشور).

وبين أنا في الدهشة وإذا بالأشباح والأكداس والأشلاء تنهض كلها بشراً سوياً وتتدافع بغير انتظام متجهة ناحية المشرق حيث النور الساطع إلى عنان السماء.

فثاري داعي الفضول إلى الاندفاع مع الجماهير نحو ذلك النور الوهاج فماذا رأيت؟ رجلاً لا كالرجال قد تربّع على كرسي من نور وعليه جلال السلطان وروحانية النبوة وهيبة الامامة يملأ العين والقلب حسنه ووقاره، وخلفه وحواليه زمرة من ذوي العضلات المقتولة والجمال الفاتن والقدسية الالهية قد وقفوا صفّاً صفّاً...

والناس بين يديه كأنّ على رؤوسهم الطير رهبة وهيبة لهذا الجلال والجمال الإلهي. وما أسرع أن جاء إلى ذهني أنه علي أمير المؤمنين عليه السلام قد جلس لمحاكمة الناس على ما فرطوا في جنب الله وما اقترفوا في جنبه، وهؤلاء الناس هم المدفونون في جواره بالصحن المقدس والحرم الشريف الذين لا يحصيهم عدداً إلا الله تعالى.

فقلت في نفسي: يا للويل! ما جاء بي إلى هذا المأزق وهنا تتجلى السرائر بحقيقتها وتنكشف^(١) الأعمال عن نفسها، فلا ستار ولا تمويه! وأنى لي بالهزيمة وقد وقعت في الشرك؟ فجمد الدم في عروقي وسرت الرعشة في مفاصلي!

ثم تنفست الصعداء إذ تذكرت أنني لست من المدفونين في الصحن العلوي وأنا لا أزال حياً في دار الدنيا. إذن فلا أستمع إلى المحاكمات الجارية لأرى الحق كيف يظهر واضحاً كالشمس، وذاك أمنية النفس التي تجد الآراء والأفكار في أكثر المسائل الاجتماعية والدينية مطلّسة بالشك أو الجهل فتذهب حائرة لا تتبع إلا الظن، وذلك سبيلنا الوحيد عند إنسداد باب العلم وفقدان المعصوم. وما ألدّ العلم للنفس إذا بلغ

عين اليقين الذي ما وراءه شك وحيرة.

وعندئذ تصارعت عندي فكرتان حادثان^(١)، على العادة عندنا وأنا التمس لهما الحلّ عند سيدي ومولاي أمير المؤمنين، فكرة النجاة وغفران الذنوب لكل موالٍ لآل البيت مصير المجاورين مدفناً لقبر حامي الجار، على حسب ما يعتقدّه المؤمنون المتهافتون على الدفن في جواره. وفكرة ثانية أنهم ﷺ لا يشفعون إلا لمن ارتضى، لأنهم إنما جاءوا لتهديب البشر ورفع الظلم في الأرض فكيف يعدون بالشفاعة لأهل الذنوب، وفي ذلك تشجيع للمعاصي وإغراء لأهل الجهل والفساد وهم أولى بالغضب للرحمن، ولعل محاكمة هؤلاء المجاورين دليل على هذه الفكرة.

بيناً أنا في هذه الهواجس إذ دُعي أحد المغلّين بالسلاسل، فتمثلتُ سلسلة تسطع متقدة كأنها الجمر طولها سبعون ذراعاً، وقد سُحب بها جراً على الذقن باعتباره متّهماً في جريمة دينية، وهو يستغيث ولا يغاث. وما مثل بين يدي أمير المؤمنين إلا وشملته الرحمة فانحلت السلسلة من تلقاء نفسها وتجمعت ناحية كأنها تنتظره حتى يفارق المكان، فقلت في نفسي هذا من ذلك هذه أول علامة للنجاة بجوار أبي الحسن لنتنظر ماذا سيكون بعد!

تقدم الملك المقرب (نكير) أخو الملك (منكر) وكان في الصف الأول خلف الإمام.

فقدم يستنطق المتهم

- من ربك؟

المتهم - الله.

نكير - ما دينك؟

(١) كذا.

المتهم - الإسلام (ثم يتشهد الشهادتين).

نكير - ما مذهبك؟

المتهم - إني متمسك بالثقلين كتاب الله وعترته رسوله.

نكير - إذن ألم تعلم بأن نبش القبور محرّم في الشريعة.

المتهم - بلى.

نكير - ألم تعلم أن حرمة المسلم ميتاً كحرمة حيّاً؟ ألم تعلم أن الميت إذا سبق إلى أرض مباحة فدفن فيها كان له الحق فيها دون سواه.

المتهم - بلى.

نكير - إذن كيف سوّغت لنفسك أن تغصب مدفن غيرك وما كفاك ذلك حتى أبحت النبش المحرم وسببت بنزولك في مدفن غيرك التمثيل بجثمانه وإهانة مسلم ميت محترم.

المتهم: (يتمالك على نفسه وقد انخلع لبّه من هذه التهم العظيمة) سيدي... ليس الذنب ذنبي، أولست دُفنت ميتاً لا اختيار لي ولا قدرة؟

(ثم يحدّق المتهم في وجوه الجماهير ليلتمس من يلقي عليه تبعة هذه الجرائم، وإذا بحفّار القبور إلى جنبه مغللاً بالسلاسل النارية فيتذكر أنه هو الذي أنزله إلى القبر فاستطرد كلامه)... أليس حفار القبور هذا (ابن فلان) هو الذي صنع ذلك.

نكير: (يلتفت إلى الحفّار المكبّل باعتباره متّهماً وشاهداً): كيف ساغ لك أن تنبش قبر المسلم وتمثل بجثمانه وتغصب قبره لغيره.

الحفار (يتعجب): أنا السبب في ذلك! يا سبحان الله! إنما أنا رجل عامل إستأجرني وليّ الميت، وهو الذي حرّضني على إرتكاب هذا العمل بما دفع لي من نقود ثمناً

لجريمتي. ومع ذلك لم أر منه ولا من باقي الناس إنكاراً لعملي، وأحسبه عندهم جائزاً بل أمراً محبوباً في الشرع لاتفاق جميع أولياء الأموات والمشييعين والمستطرقين من أهل الدين وغيرهم جيلاً بعد جيل.

(وهنا يدخل ولي الميت شخصاً ثالثاً في الاتهام ويساق مكبلاً بالسلاسل ويوجه له نكير صوت الإنكار).

- أنت أمرت الحفار أن يصنع هذه الجرائم؟

(الولي): - أستغفر الله! إنما طلبت منه (باعتباره اخصائياً في القبور) أن يجد لميتنا أرضاً بكرة لم يدفن بها أحد من المسلمين ولما كشف الصخرة عن سرداب في الصحن ونزل فيه طلب إليّ أن أراه فلم أجد فيه أثراً لرفات إنسان. وعلى ذلك وافقت.

الحفار (يستشيط غضباً يحمله الغضب على شرح الحقيقة): الوليل للكاذبين! كل الناس يطلب مني هذا الأمر النادر، ويروح كل واحد منهم ليعتقد أني خصصت ميتة كرامة لعيونه بالمكان الفارغ، مع العلم أن المواقع للدفن في مجموع الصحن والحرم لا تزيد على سبعمائة موقع على أكثر تقدير، ومعدل من يدفن في اليوم أربعة أموات وعليه فالمواقع تمتلئ في أقل من ستة أشهر مع استثناء المواقع المختصة ببعض البيوت الرفيعة التي لا سبيل لنا عليها حتى من طريق التسريق. ولا يغيب عن البال أن الصحن والحرم مدفن للناس من قبل مئات من السنين.

فهل يخفى على إنسان عنده ذرة من التفكير إجتاع أكداس الأموات في هذه القبور وهي تتضحك من تراحم الأضداد. ولكن ماذا أصنع والناس يخادعون أنفسهم ويخادعونني، فينقدونني الدراهم لأفحص لهم عن سرداب بكر، فالتجىء إلى أن أخلي القبر فأزيح عن أعينهم بقايا الأجساد بقدمي عند النزول وربما بيدي عند الحاجة، وأريهم هذه المهزلة التي تتكرر كل يوم وهم يقبلون مني شاكرين هذا الضحك على

الذقون.

وكل مرة يغالط الناس أنفسهم فيذكرون فرحين - لهذه المصادفة العجيبة - أني وجدت لهم مكاناً فارغاً، مع أني كثيراً ما اضطر إلى أن أنقض كالصقر على مسكين لم يمض على دفنه أيام معدودات فأطويه كطيّ السجل للكتب وألقِ بجسمه المتفسخ ناحية وبالرغم من محاولة ستره عن عيونهم تنم عليه الرائحة المزعجة التي تعودت عليها فأتوجس من إزعاجي بطلب فتح قبر آخر ولكن العجيب أنهم قد يغالطون أنفسهم هذه المرة أيضاً ويتجاهلون هذه الرائحة التي لا تخفى على إنسان.

إذن أولياء الميت والناس معهم هم الذين يلجئوني إلى هذه الجريمة، ولا يدلوني على أنها جريمة على الأقل، لأنهم يتفقدون عليها عن رضا وغبطة ويغضون أنظارهم وهم عالمون.

وهنا يصغي نكير متعجباً من هذا الكلام الصريح والاعتراف الظريف، ويتوجه إلى وجه الإمام عليه السلام ليستلهم منه الطريق إلى الاستمرار في المحاكمة، ويعلو الصمت وجلال الموقف جميع الحاضرين، ولكن لا يطول الصمت حتى يقطعه (نكير) بتوجيه السؤال إلى الحفار في دعابة:

- كيف تستطيع إخفاء الرفات والقبر لا يسع لأكثر من جثمان واحد؟

فتعلو ابتسامة ساخرة من جميع الحاضرين ولكن الحفار لا يزال مجدداً فيقول في بلاهة:

- هذا أمر جد يسير وهو من أسرار المهنة، فقد بنيت القبور - على حكمة من البنائين من أهل المهنة أمثالي - فجعلت كل أربعة على الأقل مجموعة واحدة تُوصَل بعضها ببعض فتحة تكفي لالتهام جسد الإنسان، والحفار يعرف مواقع المجموعات

وطرقها فيتخذ قبراً منعزلاً من المجموعة الواحدة أو من عدة مجموعات مخزناً لبقايا الأجساد، وهو يسع بالطبع مجموعة كبيرة من الرفات المتهشمة لمدة طويلة حتى يتهيأ في كل ثلاثين سنة على الأكثر أن تنقل الرفات إلى دار السلام أو خزانات الصحن الكبيرة. نكير (متقزاً من هذه الفضائع المدبرة ومنكراً في تداخل أسباب هذه الجرائم): -

إذن أيها الحفاريون أنتم المدينون في هذا الأمر الفظيع بالدرجة الأولى.

الحفار (وقد وجد نفسه قد وقع في مأزق حرج فيستغيث): - سيدي إذا اعتبرنا مدينين فلك أمرك فينا، وليس لنا عذرٌ نعتذر به غير الطمع في حطام الدنيا الفانية التي زهد الناس فيها مولانا أمير المؤمنين فلم يزهدها، ولكن ما بال أولئك الذين يبذلون الأموال الطائلة لأجل بناء مثل هذه القبور.

نكير: من هم؟

الحفار: ألم تعلم سيدي بهم؟

نكير: أنت قل.

الحفار: (بعد صمت طويل واضطراب) أخشى أن أعزل من وظيفتي!

نكير: أبقيت لك وظيفة؟ أنت في عداد الأموات ولن ترجع إلى الحياة الدنيا حتى تحشاهم.

الحفار: (ملتفتاً إلى نفسه فتعروه نشوة الفرح أن أصبحت له الحرية في الكلام عن هؤلاء الذين أذاقوه الأمرين في تحكمتهم في وظيفته ومهنته، ولكنه لا يزال في قرارة نفسه خائفاً فيغلبه التحفظ) - لولا أن السلطة الموقرة للحرم تهيء لنا - معاشر الحفارين - بين فترة وفترة أن نكنس هذه القبور من بقايا الأجساد ونرميها كالقمامة خارج النجف أو في الخزانات (آبار الصحن الكبيرة) التي قيل أنها أعدت لهذا الغرض لافتضحت

حيلتنا فيعجز علينا وعلى الناس هذا الخداع المتبادل، ويقومون بهذا الكنس باسم ترميم الصحن الشريف وتعديل أرضه التي تصبح متعرجة بطول الزمن - بارك الله فيهم - نكير (يتكلف الهدوء): أتقول بارك الله فيهم؟ عجباً! أخبرني أية فائدة لهم بذلك حتى يبذلوا عليه المال؟

الحفار: بودي لو وجهت السؤال إليهم أنفسهم.

نكير: نحن الآن نحاكم المدفونين في هذه الصحن أفتظنهم من الموجودين في هذا المحشر.

الحفار (بعد تصفح وجوه الجماهير): بعضهم! ربما.

نكير (لنفسه): بعضهم! بعضهم! (وبصمت متوجهاً إلى الإمام يستلهم منه ما يكشف الحيرة ويتعجب للإنسان كيف يصنع بنفسه ويغالطها، يعمل العمل لخداع الناس ثم يخدع نفسه أيضاً) ثم يلتفت إلى الحفار:

- حدثني أنت لأنك على ما يظهر مطلع على دخائل هذا الأمر.

الحفار (يتشجع) -: ليس في الأمر دخائل وصريح الأمر أن مؤسسة الأوقاف جعلت الصحن كمزرعة تستثمرها يأخذ (الدفنية) الباهظة على كل من يدفن في الصحن والحرم، فلو لم تحرث هذه المزرعة لما استطاعت أن تؤتيهم بأكلها كل حين وموظفوها مع ذلك يشاركونني فيما أخذ من أجرة لنفسي.

نكير: تؤخذ هذه الضريبة لماذا؟

الحفار: أنا أدري! يقولون أنهم جعلوها ليخففوا من وطأة تكاثر الدفن في هذه البقعة الصغيرة بالقياس إلى المتعطشين إلى قرب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام من جميع أنحاء المعمورة، ولكن مع ذلك لم يقف حائلاً دون تهافت ذوي الثروة والجاه على الزلفى

لامامنا سيد الكونين ويقولون أيضاً أنهم يأخذونها لتكون كوارد للعبة المقدسة أيضاً فتصرف في مصالحها.

نكير (لأحد الملائكة الواقفين): ما أكثر حيل الإنسان لابتزاز الأموال من أخيه الإنسان! ثم يتوجه إلى الحفار:

- أتؤخذ هذه الضريبة على كل مدفون بلا استثناء؟

الحفار: نعم، أنها لا تشمل بعض الأصناف.

نكير: لماذا؟

الحفار: اعفني من ذلك.

نكير: لا بد من القول.

الحفار: لماذا وقعت البلية على رأسي وحدي؟ دونكم هؤلاء فاسألوا الأصناف وما أكثرهم في هذا المحشر (يقول ذلك ويلتفت إلى الإمام يتوقع العذر ولكن نكير يهدده ويقمعه منكر بالحديد) فيقول الحفار: - كل الذي أعرفه أن هؤلاء الملاعين واضعي نظام الدفنية نفعوا بعض ذوي النفوذ بهذه الكرامة ليطمئنوا إلى سكوتهم وتساهلهم عنهم فيما يرتكبون.

(نكير يتململ من تشعب نواحي هذا الأمر وتشعب المسؤولية فيحاول أن يفر من الميدان ولكن نظرة واحدة من الإمام ﷺ كانت كافية لتهدئته وجمع قواه التي قد تلاشت) فيعود يوجّه السؤال إلى (وليّ الميت).

- أيها الوليّ لقد سمعت الحوار مع الحفار وقد حملك بكثير من المسؤولية، فمع علمك بالحال كيف أقدمت على هذا العمل.

(الولي): - ماذا أصنع؟ إن ميتي من المحترمين ودفنه في وادي السلام إهانة له

ولي، على أي أعلل نفسي أن دفنه في الصحن يذكرني دائماً به فلا أنساه من الخيرات، والأهم أنه يمسي بقرب شفيعنا وسيدنا وعندي أن هذا سيهون ما يلقي من التمثيل به ويكفي أن يبيت ليلة واحدة في جواره وتضمن له الجنة ثم فليلق به في أية زاوية من زوايا الأرض، وفي سبيل هذه الكرامة الدائمة ما قيمة اهانة جثمانه والتمثيل به.

نكير: سبحان الله انك كنت تتنصل من معرفة الحال ثم تعترف! اترك ذلك ولكن من أين لك هذه الفلسفة؟ أيجوز في عقيدتك أن يطاع الله من حيث يعصى؟ وهل يصح التقرب بالفعل المحرم؟ وهل يصح تقديم العمل المندوب على ترك المحرم؟ فأين فلسفة أصول الفقه عندهم؟ وهل تنتظر الزلفى إلى إمامك بفعل محرم؟ ثم كيف تضحي بنفسك أنت بفعل تبعته عليك لزلفى غيرك؟ ليس هذا من العقل على أن هذا حال ميتك فما بال الدفين السابق يهان جثمانه ويمثل به في سبيل كرامة دفينك؟

الولي: سيدي (أولاً) لست من العلماء حتى أفهم هذه المسألة. (ثانياً) أني اتبعت وصية دفيني في ذلك.

نكير: يتوجه إلى جهة أمير المؤمنين عليه السلام باهتاً وكأنه يريد أن يستأذنه في الانصراف عن هذه الحيرة وبينما هو في هذا الصمت الباهت استيقظت من غفوتي مدعوراً. وأسفت على إنتهاء هذا الحلم قبل الظفر بإصدار الحكم أو حكمة من سيد الكونين تُجلي صدأ القلوب، كأنها ظلمات الذنوب حجبتنا من الاتصال بروحه العلوية صلوات الله وسلامه عليه.

بعد خمسين عاماً؟

استغرقت ذات ليلة في نوم عميق بعد سهر طويل وتعب مجهود من التفكير في إصلاح حالتنا الاجتماعية والدينية، وبعد أن تملكني اليأس في اللحظة من تمكننا من بعث الشعور في وجوب النهضة التي يتطلبها هذا السقوط في الأخلاق العامة والكسل المستولي على المشاعر والنفاق المتمكن في النفوس والجهل المتفشى في الناس، لا سيما في طبقات رجال الدين الذين هم عرق المسلمين النابض، فإذا كان دم ذلك العرق موبوءاً أصاب أعضاء المجتمع الإسلامي الشلل والمرض، وأقصد برجال الدين من لهم وظائف دينية ما تشمل حتى الوعاظ والخطباء وخدام العتبات المقدسة.

وأنا كنت في تلك اللحظة - مع ذلك - أعلل نفسي فراراً من تلك الخواطر المزعجة بالتمنيات السارة التي يخلقها خيالي وليس للمرء سلاح في صراع الواقع إلا الخيال، فافرض أننا تمكنا من الإصلاح فأصبحت الدنيا غير الدنيا، والناس غير الناس، وأذهب غارقاً في الأفكار كأني لست أنا وكأن البلاد ليست البلاد، حتى إذا هاجمني الخيال تلاشى الأمر الواقع فعادت تلك الخواطر السود لتقضّ على مضجعي.

قلت استغرقت في تلك الليلة في النوم بعد ذلك السهر والتعب فخيّل لي في النوم أنني قد رجعت إلى الدنيا بعد أن مت بخمسين عاماً، وكأني واقف على الباب الكبير الشرقي للصحن العلوي، ولكن الباب فارغ واسع ليس على ما كنت أتذكره لما كنت حياً. والناس كعرف الفرس تدخل منه إلى الداخل بأدب وحشمة وهدوء على كثرتهم وما لاحظت أحداً يخرج منه يضايق الداخلين، فاستغربت أن يسع الصحن كل هؤلاء الداخلين ما دام أنهم يدخلون ثم لا يخرجون وشعرت بما سألاقي من التدافع الذي

يمنع من أداء مراسيم الزيارة في هذا اليوم الذي حضر إلى ذهني أنه يوم الغدير، ومع هذا الشعور وطنت نفسي على الدخول معها كلفني الأمر، وما كنت أدري أن نظام الدخول والخروج قد تغير بتغير الزمن فالدخول من باب والخروج من باب آخر، ولا يسمح لهم الجلوس إلا في الايوانات.

وفي أثناء دخولي لاحظت خلوّ مدخل الصحن من المتسولين العجزة على ما كنت أعهدهم في أيام حياتي، عندما كانوا يصطفون سباطين بمنظرهم الشّع ورائحتهم المتينة وندبتهم المزعجة، وهم يتألفون من أكمه وأعمى وأخرس وأصمّ ومقعّد وأعرج ومجذوم وأبرص، فقلت في نفسي هذه عجيبة ثانية! ترى أين مضى هؤلاء؟ ألم يبق في الناس من يعطف على المتسولين؟ أم لم تبق في الناس حاجة إلى التسوّل؟

دخلت الصحن ولم أكد أضع قدمي اليمنى داخل الصحن حتى استقبلني أحد (خدّام الحرم) بمنظره الأنيق ووجهه الملبح الذي يشف عن الصحة والنشاط ولحيته السوداء البرّاقة وعمته الخضراء الزاهية، ومدّ إليّ يديه وصافحني باسماً وحيّاني بلطف وأدب، فتضايقت منه، وقد حسبته يستعطي مني بعض الدريهمات لقاء ما سيتمم لي من كلمات ملحونة نائية يسميها (الزيارة) لا تنطلي إلا على الجهلاء - غيري طبعاً - وعجبت من غباوة أهل هذا الزمان إذ تصوّرت أن هذا يجهل أن رجال الدين لا مطمع فيهم لخدّام العتبات وإن كانوا من غير سكان النجف فكيف وأنا ابن النجف؟ فقلت له بعبارة جافة: يا حضرة السيد أنه نجفي.

فقال العلوي بلطف ورقة وعبارة عربية فصيحة: ولكني لم أرك أبداً في النجف وأحسبك غريباً كما تبدو من لهجتك وبزتك فأردت أن أقوم بوظيفتي من واجب إرشادك.

أنا (بلهجة أهل زماني العامية النائية): انتة شنو والارشاد؟ ثم أعرضت عنه،

ولكنني لاحظت عليه أنه لم يفهم كلامي وقد اعترته مثل الدهشة.

فقال العلوي (بعد لحظة من الصمت وقد أدرك إعراضي عنه): إذا أبيت - يا مولاي - أن أؤدي لك الخدمة فقد سقط عني واجبي، وأرجو أن تكتب في سجلي هذا استغناءك عن الخدمة بطوع إرادتك لئلا أبقى مسئولاً (وأخرج سجلاً صغيراً من جيبه يلفت النظر في أناقته).

فلم أفهم ما يعني على التحقيق، وزاد عجبي من غباوته، إذ تصورت أنه يحاول أن يخدعني بهذا الأسلوب لابتزاز بعض الدراهم فقلت له بعبارة تكلفت فيها اللغة الفصحى هذه المرة لأفهمه أي رجل من أهل العلم ولم تنطل عليّ خدعته - يفتح الله عليك، ليس عندي ما أعطيك ولست أنا من ينخدع!

العلوي: ألم أقل لك أنك غريب؟ يبدو ذلك من لهجتك الغريبة عن أهل بلدنا ومن ظنك بي سوء الخداع والطمع عندك بل أنت أكثر من ذلك لم تزر النجف في حياتك على ما يظهر والمستغرب يا سيدي ما يبدو لي من حديثك أنك لم تتورّع فيه، ولم أشاهد ولم أسمع في حياتي رجلاً عادياً في أهل النجف يظهر على كلامه الكذب أو ظن السوء بأخيه المؤمن فكيف بالرجل الديني مثلك. وهنا أول واجب أؤدّيه معك قياماً بوظيفتي أن أنصحك بترك مثل هذا الكلام الذي يتوهم منه الكذب أو سوء الظن وأحاشيك منهما.

(وهنا فطنت إلى نفسي وشعرت بخطأي إذ حاولت أن أطبق جميع ما تقع عليه عيني وتسمعه أذني على الأوضاع والعادات في زماني الذي كنت أعيش فيه، وشعرت بأني غريب حقاً عن كل ما أرى وأسمع، ولفت نظري على الأكثر نصيحته التي شعرت فيها بمرارة الألم من جرأته وصراحته، ولم أستسغ نصيحة رجل مثله لرجل مثلي يعتز بمظهر الصلاح ومكانته الدينية والاجتماعية. ومتى كان الناس يجرءون على النهي عن

المنكر حتى عن مثل الكذب وسوء الظن وكل أحاديث المجالس لا تستقيم بدونها ودون أختها ملح الكلام (الغيبة)، ومع ذلك يجامل بعضنا بعضاً فلا يواجهه بتهمة فعل المحرم والمجاملة نوع من الرياء المستساغ، والأعظم من ذلك تعدّ المجاملة والتغاضي عن مساوئ الناس من سمات الرجل الصالح التقي وهي التي ترفع منزلة الشخص في نفوس العامة والخاصة وتجلب حبهم وعطفهم).

(كل هذه الخواطر مرّت على ذهني في هذه اللحظة السريعة وتبدل رأيي في هذا الرجل الهادي الرزين وتبدّى لي رجلاً يوثق بفضلته وصلاحه، وزاد شعوري بالحاجة إلى الاسترشاد به) فقلت:

حقاً اني غريب عن أوضاع البلدة كما حدثت، لأنني كنت أعيش في النجف في عهد بعيد فاسمح لي أن أسترشد بك!

العلوي: لك ذلك! وهذه وظيفتي.

أنا: نعم هذا الذي أريد أن أسأل عنه قبل كل شيء! ما وظيفتك التي تشير إليها في كل مناسبة؟

العلوي: وظيفتي تعليم الزائرين الغرباء، وتقديم النصائح لهم في سلوكهم مع الناس وأداء الشعائر الدينية وإرشادهم إلى كل ما يحتاجون إليه حتى فيما يتعلق في المكان الذي يختارونه لنزولهم.

(أنا): هل أنت وحدك موظف على ذلك؟

(العلوي): - لا! معي مائة رجل بمثل وظيفتي ينبثون على التناوب في الصحن والحرم ولنا مراتب متفاوتة يرجع الأدنى منا إلى الأعلى فيما يشكل عليه، وكلنا لنا مرجع أعلى هو الرئيس المطاع يسمى (أمين الحرم) الذي هو من العلماء الاعلام.

(أنا): من الذي يوظفكم؟

(العلوي): الهيئة الحاكمة في البلد.

(أنا): تعني موظفي حكومة العراق!

(العلوي): أية علاقة لحكومة العراق فينا؟

(أنا): إذن.

(العلوي): الهيئة الحاكمة هم جماعة من كبار علماء الدين برئاسة المقلّد العام، وهم الذين يسهرون على مصالح البلد الداخلية والخارجية وييدهم زمام شئون جميع الطائفة الشيعية في أقطار الأرض. وأما إدارة الحرم وما فيه فترجع إليهم وهم الأمناء على نفوسنا وأموالنا.

(أنا): كيف تسنّى للعلماء أن يحكموا البلد؟

(العلوي): أين كنت غائباً هذه المدة الطويلة حتى لا تعلم بحوادث نهضتنا الجبارة. وشرح هذا يطول، دونك - إذا شئت - كتاب (النهضة الدينية في النجف) يعطيك تفصيل تاريخ هذه النهضة من ابتداء تأسيس منتدى النشر وكيف تمكن رجال الجمعية من إصلاح شامل في ذلك الزمن بما جاهدوا صابرين وضحو مخلصين حتى تمكن العلماء المتخرجون من كليات المنتدى من الاستقلال بإدارة حكومة النجف باعتبار أنها بلدة دينية مقدسة لا يصح أن تدار إلا من قبل هيئة دينية مخلصة وبذلك استطاعوا إصلاح كل شيء فاسد في هذا البلد الأمين.

أنا: - (وقد هبط قلبي عند ذكر المنتدى وتذكرت أني أحد مؤسسيه ولكن أنى لي بهذه الدعوى أمام هذا الإنسان الكامل وقد ظهرت له بتلك النفسية والتربية الشاذة فكيف يصدّق مني ذلك فاكثفت أن أقول له):

- لقد سرّني والله ما ذكرت وسأقتني هذا الكتاب لأنزود من هذا التاريخ المجيد الذي لم أحلم به، واسمح لي أن أسألك عن أشياء أخرى فإن كل شيء عندكم يبدو لي

غريباً.

(العلوي): سل ما بدا لك.

(أنا): ما مقدار ما تأخذون من الزائر أجره على إرشاده وتعليمه.

(العلوي): يبدو أنك تفكر بغير تفكير أهل زماننا، أية أجره نستحقها على الإرشاد والتعليم، وإنما نقوم بهذا الواجب لوجه الله تعالى، والزائر إذا رغب في التبرع لمنفعة العتبة المقدسة فهنا صناديق موضوعة يلقي فيها ما يشاء.

(أنا): عمل جليل حقاً، ولكن كيف تعيشون أنتم وعائلاتكم.

(العلوي): نعتاش من المخصصات لنا من أوقاف الحرم، ونتناول منها مقدار كفايتنا.

(أنا): على أي أساس يكون توظيفكم.

(العلوي): على أساس الكفاية والقرعة.

(أنا): كيف؟

(العلوي): أن المتخرجين من كلية التبشير يقترح بينهم لتعيينهم إلى مدة معينة في مواطن التبشير المقررة المحتاجة إلى المبشر، والروضات المطهرة تعدّ من مناطق التبشير فإذا وقعت القرعة على أحد لخدمة إحدى العتبات تعين عليه ذلك ويتبع التعاليم الخاصة في هذا العمل.

(أنا): حتى لو كان المتخرج من غير أسر خدام العتبة المقدسة.

(العلوي): أُلقيتُ أُسر للخدام. ذهب ذلك النظام البالي وهل الوظيفة الدينية والكفاية تنتقل بالوراثة؟

(أنا): (وقد شعرت بخوف غامض من الاستمرار بهذا الحديث فحوّرتة إلى ناحية أخرى) فقلت:

- لاحظت أنك أيها العلوي الفاضل متقيداً باللغة الفصحى.

(العلوي): لاحظتني متقيداً! أأتقيد بلغتي التي نشأت عليها وقد أصبحت التربية من البيت إلى المدرسة على أساس اللغة الفصحى، فنسخت ثلث اللغات العامية القبيحة وأصبحت تاريخاً مجرداً لا نفهم منها شيئاً، وأظن هذا الكلام الأعجم الذي تكلمت به أولاً من تلك اللغات العامية الميتة.

(أنا): نعم (وقد خجلت من هذه الوصمة فحوّرت الكلام أيضاً) فقلت: افتقدت حين دخولي صفوف الفقراء على باب الصحن.

(العلوي): أظنك تقصد المتسولين الذين يدعون العجز والفقر فيضايقون الناس لابتزاز الأموال وخزنها.
(أنا) - نعم.

(العلوي): لقد ذهب عهدهم. ألم تشاهد تلك الدار الضخمة الصفراء المحاطة بالحدائق في طريق الكوفة؟ تلك دار العجزة والدار تعتني عناية فائقة بكفالة كل عاجز محتاج من ذوي العاهات والمعمرين وتمريضهم ثم تعويدهم على المهن والاعمال الحرة التي يمكن أن يتعلموها، ويصرف على الدار من خيرات العتبات ومن تبرعات المحسنين والحقوق الشرعية كسائر مؤسسات العتبة المقدسة، فهل ترى بعد مجالاً لوقوف المتسولين على أبواب الصحن؟ وكل هذا من نتائج نهضتنا المباركة التي حدثتك عنها.

(أنا): إن هذا لاصلاح عظيم. ألا تتفضل معي لأداء الزيارة.

(العلوي): بخدمتك.

(أنا): أستغفر الله! لك الفضل.

(العلوي): لماذا الاستغفار ولم لاحظ أنك أذنبت الآن.

(أنا): هذه كلمة تقال عادة تعليقاً على ما يقدمه المخاطب من كلمات التبجيل.
(العلوي): نحن لا نعرف هذه العادة، وهي مجاملة لا معنى لها، ذاك من المخاطب إحسان أفيستغفر الإنسان من إحسان غيره، هذا عجيب، والأعجب أنك لم تستغفر أنفأ مما بدا أنك أسأت الظن بأخيك المؤمن، وهي جريمة تجب التوبة منها فوراً، إني لأستغرب من هذا الخلق، ما أدري في أي مصر كانت تربيتك؟ وأنت تقول أنا نجفي الأصل؟

أما أنا فقد تملكني الخجل، ولم أحرّ جواباً، وقد استصغرت نفسي إزاء هذه النفس القدسية العالية بعد أن تخيلت أنني كنت أكلمه بأدب ديني ممتاز، على ما كنا نستعمله في زماننا.

ولم يكن مني إلا أن أخذت بيده بصمت ورحنا نمشي صوب الحرم المقدس، فلاحظت أن أرض الصحن معبدة بالمرمر المصقول كأنه المرآة الصافية، وأدركت من طريقة رصف المرمر وتلاصقه امتناع قلعه لدفن الأموات فسألته:
- كيف يمكن الدفن الآن في الصحن.

(العلوي): لقد ذهب ذلك العصر الذي يسمح فيه بتكديس الأموات طبقات بعضها فوق بعض، وإنما عبّدت أرض الصحن بهذه الصورة لتكفّ الأيدي من عادة الدفن فيه. وعقيدتنا أن الدفن في جميع وادي السلام هو دفن في جوار أمير المؤمنين (عليه السلام) ولا يبعد سلام الله وصلواته عليه عن أحد يلوذ به، وهل القرب في المكان له الأثر في القرب الروحي؟

(ولم نمش خطوات حتى وصلنا إلى موضع خلع الأحذية للدخول إلى الحرم - الكيشوانية - فتوقفت من خلع نعليّ إذ لم أر أحداً مسئولاً عنها في المكان، فأشار إليّ العلوي بأن أخلع نعليّ فوقفت متأملاً) فقال: ألا تروم الدخول؟

(أنا): بلى! ولكن عند من نؤمن أحذيتنا؟

(العلوي): نضعها في إحدى هذه الفتحات الصغيرة المرقمة ونأخذ منها ورقة فيها رقم الفتحة حتى لا تختلط الأحذية عند الرجوع إليها. وإذا لم يتفق فراغ إحدى الفتحات المحدودة في جميع الكيشوانيات ينتظر الزائر فراغ واحدة منها، وبهذه الطريقة يضمن وجود أناس محدودين في الحرم فلا يحصل التزاحم الذي له نتائج سيئة على توجه الزائرين وصحتهم وراحتهم.

(أنا): حسن ولكنها تبقى معرضة للسرقة؟

(العلوي): - وقد احمرّت وجنتاه من الغضب هذه المرة - : ومن يسرقها؟ ألم أنك عن سوء الظن بالمؤمنين.

(أنا): عفواً سيدي ألا يمكن أن يندس مع هؤلاء البشر الكثيرين سارق يتحين الفرص؟

(العلوي): - وقد هدأت أعصابه إلى حدّ ما - : لماذا تطلب العفو منّي؟ والله هو العافي عن المذنبين ولم تذنب إليّ؟ ما هذه المجاملات الغريبة؟ وهذا ما يدلنا على أنك من أبناء القرون البالية في آدابها وأفكارها.

(أنا): لقد حيرتني! وما أدري كيف أطمئن إلى ترك الحذاء بلا رقيب.

(العلوي): أنا أشرح لك الواقع: إن النجفيين أصبحوا أنزه مما تظن بهم ذلك، وقد طهرت البلد من كل مرتكب لأمثال هذه الجرائم، فإن السارق تقطع يده وينفى من البلد وهكذا تقام الحدود الشرعية على جميع أصحاب الجرائم والموبقات ويخرجون. والناشئة تربي تربية صحيحة عالية تجعلهم لا يفكرون في إمكان وقوع الجرائم من رجل مؤمن، وعلى هذا كانت تنشئة رجال النجف اليوم. وهذا بفضل النهضة الدينية التي قام بها متدى النشر كما أشرت لك إليها آنفاً ورغبت في أن تطّلع على ما كتب عنها.

وأما الزوار الغرباء فلا يدخل أحد إلى النجف الأشرف إلا بعد التأكد من شخصيته ونزاهته بما يحمل من تعريف في حقه من الرجل الديني المقيم في بلدة الزائر، وفي كل بلد إسلامي رجل ديني متخرج من كلية التبشير وموظف من قبل هيئة العلماء هنا. والزائر إذا بدر منه شيء ينافي الآداب الإسلامية يقدم إلى المحاكمة فوراً ويحكم بما يستحق من حدٍّ أو تعزير أو توبيخ ثم يخرج إلى بلدته ويُرسَل بتفصيل الحادثة والحكم إلى عالم بلدته، وجميع أهل النجف عيون ساهرة مخلصة على الزائرين. كلهم راعٍ وكلهم مسئول عن رعيته.

وقد جربنا أن إقامة الحدود الشرعية بإخلاص من أعظم العوامل لإجتثاث الجرائم من البشر، وقد أصبح الحاكم الشرعي هنا لا عمل له لندرة وقوع الجرائم والتعدي على الحقوق.

(أنا): - بعد الاطمئنان والدخول إلى الحرم - إن هذه الطريقة الصارمة في الحكم لا بد أنها قللت سكان النجف الأشرف.

(العلوي): بالعكس، إن محبي السلام والعدل والوداعة أصبحوا يتهافون على الهجرة من كل حذب وصوب، وهذا ما اضطر الهيئة الحاكمة إلى أن تحدّد الهجرة في كل عام بشروط ثقيلة تخاشياً من تزاخم السكان ومن دخول من لا يرغب فيه، وقد توسعت البيوت إلى حدود الكوفة.

(أنا): هذا ما كان يتوقع حصوله علامة لظهور إمام العصر والزمان عجل الله فرجه.

ولم أكد أصل إلى باب الحرم حتى استيقظت من النوم آسفاً من عدم رؤية الإصلاحات في نفس الحرم، ومسروراً بما شاهدت من إصلاح لم يقع في دائرة تمنياتي ساعة اليقظة وإن كان من أضغاث الأحلام.

الحلم الثالث

١٣٦٤/٦/٦

بعد خمسين عاماً أيضاً

كانت رؤياي هذه المرة ملحقة بحلمي السابق، وقد كنت خرجت منه مرتاحاً بما شاهدت وسمعت من إصلاح في المجتمع النجفي، فكانت رغبتني في متابعة ذلك الحلم اللذيذ أوحى لي أن ابتدء في حلمي الجديد من حيث إنتهيت.

لقد إنتهيت في حلمي السابق إلى الوقوف على باب الروضة الحيدرية المطهرة مع ذلك السيّد النجيب، وإذا به هذه المرة يودعني على الباب ليتركني إلى شيخ واقف هناك له وظيفة المزور والمرشد، فاستقبلني الشيخ بوجهه المتهلل وابتسامته التي تنم عن الرضا والاطمئنان والتقوى والإيمان، وحياني بأدب وإحترام، ثم تقدم فقرأ لي السلام على النبي ﷺ بعبارة فصيحة متقنة، وإذا هي كما كنا نقرأها في أيام حياتنا الأولى.

ثم دخلنا من الباب إلى الرواق فلفت نظري أن الجدران والسقوف ليس فيها تلك الزخارف والمرايا التي كنت أعهدّها، وإنما هي مرصوفة بالرخام الثمين على لون وردي واحد يشيع في النفس البهجة والسرور متصلة إلى السقف الذي كان على لون واحد أيضاً في لون أحمر خفيف مخطط بإطار كتبت عليه الآيات القرآنية بخط أزرق واضح يقرأ بسهولة تتجلى فيه روعة الفن وجمال التلوين.

وبعد قراءة إذن الدخول المعتاد في أيام حياتنا دخلنا الحرم الشريف، وإذا الجدران والسقف على نحو ما رأيناه في الرواق المطهر قد أزيلت تلك الزخارف والمرايا المعهودة في عصرنا الماضي، إلا أن الجدران على اللون الأبيض الناصع تتصل بالسقف على طريقة

الرواق، فعجبت من هذا التغيير الذي بدا لي أنه مقصود لغرض إصلاح، فلم تفتني الفرصة أن أسأل الشيخ عنه مستغرباً قبل الإنشغال بالزيارة فقال: - الشيخ: - أليس أن حرم الإمام عندنا بمنزلة المسجد في أحكامه، ومن المعلوم في الشريعة الإسلامية أن الزخارف والتصاوير والنقوش مكروهة أشد الكراهة في المساجد بل الزخرف بالذهب محرم وكذا قيل النقش بطلق الصور، وعلة الكراهة أظنها واضحة لأن النقوش تشغل المصلين والمتعبدين عن التوجه إلى الله تعالى على أن هذا الوضع الموجود الآن أبهج للنفس وأكثر روعة وجلالاً، ولا يقل ثمنه عن ثمن تلك النقوش والزخارف.

(أنا): - نعم! ولكن وجدنا الآثار الإسلامية في المساجد والمقابر تدل على عدم عنايتهم بهذا الحكم عند جميع أهل المذاهب حتى عند الشيعة، أفلا تدل هذه السيرة على أن هذا الحكم لا أصل له في الشريعة.

الشيخ - أرجوك اتركنا من حديث السيرة.

(أنا): - إن هذا غريب أليست السيرة من الأدلة عندنا على الحكم الشرعي؟

الشيخ -: ازادت الأدلة الأربعة خامساً؟

(أنا): - لا! ولكن السيرة هي من الإجماع بل أعلى أفراد الإجماع، لأنها إجماع عملي من العلماء وغيرهم، والإجماع العادي إجماع قولي من العلماء فقط.

الشيخ: الحق عندنا أن الإجماع المحصّل لا يتم لنا في هذه العصور بعد عصر الإمام الأعلى قاعدة اللطف أو الخدس الموهنتين والسيرة لا تكون حجة قطعية إلا إذا ثبت أنها تبتدئ من زمان المعصومين عليه السلام إلى زماننا حتى يكون المعصوم هو أحد العاملين بالسيرة أو يكون مقررّاً لها وفعله وتقريره حجة كقوله.

أما السيرة إذا كانت بعد زمان المعصومين فلا قيمة لها والتي يشك في استمرارها إلى زمانهم فأجدر بها ألا تكون حجة لأن الشك في حجية الشيء كاف في وهن حجته

إذ لا حجة إلا بعلم.

يا أخي إن الناس قد يعملون شيئاً لعادة لهم غير إسلامية أو هوى في نفوسهم أو لتأثيرات أخرى خارجية، ويستمرون على ذلك ويتسامح عنه رجال الدين وتمضي على العمل سنون أو قرون فيتخذ سيرة للمسلمين وينسى تاريخ تكوينها فيتخيل أنها عادة أو سيرة إسلامية، كسيرة تقبيل اليد والقيام للقادم وسيرة الاحتفاء بعيد يوم النوروز على أن السيرة إن صحت ودلت فإنما تدل على جواز العمل ولا ينافي ذلك كراهته كزخرف المساجد.

(أنا): إن هذا الطعن في سيرة المسلمين لجديد لم يعرفه علماءنا الأقدمون.

الشيخ: جده الكلام ليست من الأدلة على بطلانه إذا كان معقولاً، على أن الشك في السيرة بهذا النحو في ما أعلم أول من فتحه المجتهد الأكبر شيخ الطائفة الأنصاري في معاطاة المكاسب، ولئن حمل عليه بعض من تأخر عنه فعذر ذلك البعض أنه لم يتوصل إلى ما توصل إليه الشيخ من أسرار تكوين العادات والعقائد في الناس على طول الزمن، ولكل جيل نوع من العادات في سلوكهم ومعاملاتهم وإجتماعياتهم ومآكلهم وملابسهم قد تباين نوع ما عند الجيل السابق. وإنما التبدل يحدث بمرور زمن طويل قد لا يشعر به من يجري على يديهم التبدل. ولذلك لا نثق من السيرة الموجودة في هذا الزمان في أنها كانت موجودة في عصور الأئمة الأطهار عليهم السلام كما هي الآن لا سيما إذا وردت أحاديث عنهم تنافي السيرة كما في مسائلتنا ومسألة تقبيل اليد والقيام للقادم.

(أنا): ألا تذكر لي نص عبارة الشيخ الأنصاري رحمته الله لنرى مدلولها؟

الشيخ: قال رحمته الله في بحث المعاطاة: «وأما ثبوت السيرة واستمرارها على التوريث (يقصد توريث ما يباع معاطاة) فهي كسائر سيراتهم الناشئة عن المسامحة وقلة المبالاة في الدين مما لا يحصى في عباداتهم ومعاملاتهم وسياسياتهم.

(أنا): إن هذا كلام شديد وقعته على السمع، لا أكاد أستطيع الإصغاء إلى مثل هذا الطعن في المسلمين وقد أصبحت في ثورة نفسية لا أعرف كيف أعبر عنها وما أدري كيف يتكلم مثل هذا الشيخ العظيم بنحو هذا الكلام. عسى أنها كلمة مدسوسة في كتابه. وليته دلنا على هذه السيرات التي لا تحصى. وبيننا أنا في هذا الحديث إذ استيقظت مذعوراً وقد أخذني مثل الأفكل ورحت أضرب أخماساً في أسداس لهذا الحديث الغريب.

الحلم الرابع

١٣٦٤/٦/٢٠

مع أحد الملائكة

رأيت في عالم الأحلام كأن أحد الملائكة نزل إلى الأرض بصورة آدمي حسن الهيئة والهندام، [كما تنزل أصحاب (البرشوتات) على أرض الأعداء المحاربين]. نزل على حذر كأنه على استعداد للمقاومة ومداهمة الطوارئ.

ولكن نزوله كان في أرض خالية إلا أنني وقد كنت غير بعيد عنه، فارتعت بادي ذي بدء، لولا أنني تذكرت أن للملائكة من صفاء الطوية وحسن النية ثغرة من الضعف يستطيع أن يهاجمها الآدمي بما أوتي من حيلة ودهاء ومكر وخداع.

ويا سادتي إن الملائكة هم قوى الخير في الخلق أو إن شئت فقل هم قوى الله خير الخلق، وجانب الخير مقهور في الأرض لقوة الشر أبداً. وما كلمة البشر الا كلمة مركبة من كلمة الشر، وما الباء الزائدة فيها إلا حرف للخير لا يظهر على الأكثر في خط الكلمة إلا مطموساً على أنه هو مبدأ وجودها. نعم إن النفس الامارة بالسوء طاغية على ما في الانسان من نوازع الخير.

فبدا لي أن أستغل صفاء طوية هذا الملك الروحاني (لاستخلصه لي) بالإطراء عليه أو الثناء على ما أوتي من فضل وروحانية قدسية، على ما أعرف أن في النفوس ظمأ ملتهباً لا ينطفئ إلا بأن يُخلق في صاحب النفس شعور بأنه عظيم وأنه شيء لا كالأشياء. والثناء أحسن طريق لخلق هذا الشعور في النفس مما يبعث في صاحبها الرضا بالمطري والاطمئنان إليه والإعجاب به وإن علم أنه كان كاذباً أو مخادعاً.

إذ الغفلة والنفس الامارة سؤلا لي هذا القصد في استهواء رفيق وحدتي الجديد هذا الملك الروحاني وغلطت في قياس الملائكة على البشر، وهم لكمال وجودهم لم تُخلق فيهم إلا شهوة الجمال الكلي وحب الحق السرمدى. وليس هذا الظمأ الملتهب إلى الشعور بالعظمة إلا نتيجة لنقصان البشر وشعوره الداخلى بحطته عن درجة الكمال التي خلق لأجلها فيحاول تكميل نقصه بهذا الخيال فيبالغ فيه.

وأنا الآن إذ أحاول تصوير هذا الحلم لكم وتمثيل هذه الحقيقة في الإنسان لأخرج عن طبيعتي البشرية، يثيرني هذا الظمأ فأحاول أن احسن التصوير لأستدرّ عطفكم بإطرائي وأحثكم على الثناء عليّ من حيث تدرّون أو لا تدرّون، وقد لا أظفر بما يسكن اللهب من هذا العطش.

على أن قولي (أنا الآن...) كلمة توحى بها لقلمي تلك الانانية التي خلقها الظمأ إلى الشعور بأني (أنا) كأني أريد أن أقول لكم أنا شيء لا كالأدميين إذ لست مأخوذاً بهذا الظمأ البشري مثلهم متجاهلاً الأنانية أو حاطاً من قيمتها في نفسي، فهذه محاولة نكران الأنانية هي من الأنانية أيضاً وكم يتواضع الإنسان ليُمدح فيرتفع بهذا التواضع، فما أعظم مغالطاتك أيها البشر وما أدق التناقض فيك وما أبعد غور مركب النقص في نفسك.

لا أطيل عليكم في الخروج عن الموضوع وأظن حتى الآن لم أظفر منكم بالرضى الذي أمله لإشباع نهمتي فيا خيبتني معكم، كما خبت مع رفيقي الملك، فإني كما قلت غلطت في قياس الملائكة على البشر كما غلط ابليس في قياسه، فإن هذا الملك لما سمع ثنائي عليه جابهني بكلمة الحق المرة إلا في مذاق الملائكة الكرام فقال:

لا قيمة لثنائك عندي، فإن كنت صادقاً فما ثناؤك بزائدي على ما أنا فيه، وإن كنت كاذباً فلا يخلق فيّ ما لم أخلق له، فأنا أنا على كل حال. وأنتم يا معشر الأدميين ألم ينهكم

أئمتكم ومصلحوكم عن المدح مواجهة لأنه نقص في المادح وحمل على ظهور المدحون بالنقص، أما إنه نقص في المادح فلأنه من الكذب إن كان باطلاً ومن الملق والغو إن كان حقاً. وأما إنه حمل للمدح على الظهور بالنقص لأنه إن أقرك على مدحك كان كما داح نفسه ومادح نفسه يقرئك السلام وإن عارضك فقد كذبك وتلك صفة يواجه بها المادح وهو محسن بالظاهر.

وأنه تعالى تفضل عليكم معشر الأدميين أن خلق فيكم شهوة التفوق والجوع إلى الشعور بالأهمية لأنكم مخلوق ناقص وجعل فيكم قابلية الكمال فكانت هذه الشهوة ضرورية لكم وتحتاجون إلى إشباعها بالعمل للكمال والرفعة ولكن من نقصكم أيضاً اكتفاؤكم في إشباعها بالخيال الكاذب إذ تكتفون بالشعور بأهميتكم عند الناس وإن كان لا ظل لتلك الأهمية في نفوسكم ولا تسعون للعمل المثمر في تكميل نفوسكم، فأنتم أبداً تريدون أن تكمّلوا النقص بالنقص إن هذا لشيء عجاب، ولذلك لا زال البشر ناقصاً ورازحاً تحت نير الاوهام والخيالات.

أما أنا فقد سقط في يدي وشعرت بخيبة ممضة بكشف حقيقة ما في نفسي عند هذا الملك الروحاني الذي أردت إستخلاصه، والإنسان أكثر خيبة في الحياة عندما يتكون عنده الشعور بالنقص وبالأصح عند الشعور بأن نقصه انكشف للغير، لا سيما إذا كان في ساعة محاولته إلى إشباع شهوة الشعور بأهميته فيقوى فيه العطش إلى ذلك الشعور، ولا قيمة للمال وهو زينة الحياة الدنيا ولا شيء آخر إذا كان هذا الشعور بالأهمية متوفراً عند الإنسان المسكين. أما إذا فقدته فهناك طامته الكبرى وخيبته العظمى لا سيما إذا أميط الستار عن نفسيته الواطئة التي كان يظن أنه قد أسدل عليها ستار الحيلة والتمويه. وبعد الشعور بالخيبة اسفت على محاولتي الباطلة ولت نفسي على عدم تقديري الأمور بحقائقها وفهمت عندئذ أن حسن الطوية وصفاء النية لا يلزمه الانخداع

بالأباطيل وإنطلاء التمويه لا سيما إذا كان ذو النفس يرى الأشياء بمنظار الحق غير مثقل بالشهوات والعواطف.

وقد أدرك الملك المقرب مني هذا العراك النفسي فقال لي: «على رسلك لا تذهب بك الخيالات والأوهام» فتصرعك مقهوراً فإنك عندي في تقديري على حد سواء إن أسأت أو أحسنت لأن الإحسان لك والإساءة عليك ولا ينالني منها شيء، وليس فيّ ما يدعو إلى الغضب أو الرضى، وإن صحّ مني التأثر فعليك لا منك. وفي البشر منكم من تبلغ به نفسه الكبيرة إلى هذا الحد من التنزه عن التأثر بالعواطف والشهوات وهم القليل النادر بل أقل من القليل كالأنبياء والأوصياء فتسمو بهم نفوسهم إلى أرفع من منزلة الملائكة المقربين لأننا نحن الملائكة ليس فينا هذه العواطف والشهوات وهؤلاء لا يتأثرون بها مع وجودها فيهم فما أعظم الفرق بينهم وبيننا وما أعظم الفرق بيننا وبينكم معاشر البشر الباقين.

المحتويات

٥	مدخل
	محاضرات في أي القرآن الكريم
١١	المحاضرة الأولى في فاتحة الكتاب
١٤	المحاضرة الثانية في الحروف المصدّرة بها السور
١٦	المحاضرة الثالثة في المنافقين
١٩	المحاضرة الرابعة
٢٢	المحاضرة الخامسة
	أهل البيت (عليهم السلام)
٢٩	عيد المولد النبوي
٣٢	الإمام علي معجزة الإسلام
٣٦	علي المثل الأعلى للإنسان الكامل
٤٢	العدالة في الإسلام
٤٩	خلود وتخليد
٥٤	خلود النهضة الحسينية
٥٩	يا أبا عبد الله
٦٠	يا نور الحق
	مقدمات كتب
٦٣	ما أعظم تاريخ الكوفة
٦٨	أقدم كتابًا هو الأول من نوعه

- ٧٢ تقديم نشرة البذرة
- ٧٥ افتتاحية مجلة النجف
- ٧٧ يوميات جريدة الهاتف
- ٨١ تصدير كتاب المختار الثقفي للشيخ أحمد الدجيلي
- ٨٥ تقديم كتاب صور الحياة لضياء سعيد
- ٨٩ رشحات الفيوض
- ٩٠ شعراء العراق
- ٩٣ مقدمة كتاب العقد المنير
- ٩٧ العاصمة الدينية الكبرى
- ١٠٠ حفاظ القبائل العربية على تقاليدها
- ١٠٣ على هامش كتاب ماضي النجف وحاضرها

خواطر

- ١٠٩ ثلاثة ألقاب
- ١١٥ رسالة العرب
- ١٢٢ ليسمعها المسلمون...
- ١٢٥ مشاكل الحياة
- ١٢٧ إلى الأستاذ ص.ش
- ١٣٠ رسالة جوابية
- ١٣٢ رسالة ختامية من الشيخ المظفر
- ١٣٤ آدم وأكله للشجرة
- ١٣٦ مع أحد الملائكة
- ١٤٠ الإسلام ووسائل المستعمرين..

- ١٤٤ كيف يتدرج الغربيون في هدم المدنية والدين؟
 ١٦٦ السواك
 ١٦٩ رسالة الحجّ
 ١٧٥ مع الحجاج
 ١٨٣ الفضيلة
 ١٨٧ مستوى الأدب العراقي بين القوة والضعف
 ١٩١ حرية الفكر والإسلام

هوية النجف العلمية

- ٢٠١ جامعة النجف الأشرف صنو جامعة القرويين
 ٢١٠ توحيد الهلال بين الدول الإسلامية
 ٢١٣ العلم والسعادة الأبدية
 ٢١٧ توصيات الى طلبة كلية الفقه
 ٢١٨ رجل الدين
 ٢١٩ عصر الإفلاس الروحي
 ٢٢٥ كيف نربي المواهب النفسية
 ٢٢٨ مشكلة الدراسة الدينية
 ٢٣١ واجب الرجل الديني

السنيون والشيعة

- ٢٣٥ توطئة
 ٢٤٤ ترجمة الشيخ أبي عبد الله الزنجاني
 ٢٥٠ مقدّمة كتاب تاريخ القرآن
 ٢٥٣ تاريخ القرآن للأستاذ أبي عبد الله الزنجاني

- ٢٥٦ السنيون والشيعة وموقفها اليوم
- ٢٦١ السنيون والشيعة للأستاذ أحمد أمين
- ٢٦٧ حول السنيين والشيعة
- ٢٦٩ إلى الأستاذ أحمد أمين
- ٢٧٤ السنيون والشيعة والمؤتمر

محاضرات في علم الأخلاق

- ٢٨٤ المحاضرة الخامسة
- ٢٨٦ المحاضرة السادسة
- ٢٩٠ المحاضرة السابعة
- ٢٩٤ المحاضرة الثامنة
- ٢٩٧ المحاضرة التاسعة
- ٣٠٢ المحاضرة العاشرة
- ٣٠٧ المحاضرة الحادية عشرة

أضغاث أحلام

- ٣٣٥ المقدمة
- ٣٣٧ في الصحن العلوي
- ٣٤٧ بعد خمسين عاماً؟
- ٣٥٨ بعد خمسين عاماً أيضاً
- ٣٦٢ مع أحد الملائكة